د. زاهية الدجاني

المفهوم القرآني والتوراتي عن موسى (ع) وفرعون



دار التقريب بين المذاهب الاسلامية

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد.
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان.
برقياً: انكلسامس
تلفون ٢/ ٣٥٠٧٢١.
تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م

تصميم الغلاف: عبّاس مكّي
الاخراج الفني: زاهية عاصي

المفهوم القرآني والتوراتي
عن موسى عليه السلام وفرعون

مُقارنة عقائدية

بقلم:

الدكتورة زاهية راغب الدجاني

المحتويات

بين طيات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بين طيات الكتاب

يمرُّ زمان، ويأتي زمان، وتنشأ أجيال، وتفنى أجيال، والإنسان إنسان بتكوينه. وتوجهاته تتأرجح ما بين كفة الإيمان لدى بعضهم، وكفة الكفر والاستكبار لدى بعضهم الآخر. ولما تثقل كفة الميزان بالأخيار، فهذه إشارة لعلوٍّ في النفوس، وسموٍّ في العقول، وتهذيب، وصقل في الشخصيات البشرية. ومن ثم توطيد للحق، وتدعيم للعدل. ولكن حين تخف كفة الميزان بفعل الاشرار، يعمُّ الظلم، وينتشر الطغيان. إذاً، يوجد مساران للأشياء في تاريخ البشرية جمعاء: مسار سوي دعائمه الإيمان والتفكير المستنير، وهذا علوي بطبيعته، ثم مسار غير سوي، جوهره الظلم والطيش. وهذا سُفلي بطبيعته، وارتباطه بالشر، الذي تهبط به النفوس نحو الأسفل في سياق تدريجيّ، إلى أن تصل الى نقطة الحضيض. ومع هذا الهبوط يفقد الانسان انسانيته شيئاً فشيئاً. فالانسان بحكم التكوين يحظى بالوجدان والعقل. أما الوجدان فهو مركز الحس، في حين ان العقل مركز التفكير. هذا، والتصرف السليم يأتي دوماً، إن وجد التوازن السوي ما بين العاطفة والتفكير، فالعاطفة يضبطها الإيمان الصادق، علماً أنه حين تقع في حيزها الصحيح، يأخذ التفكير مساره الصحيح من حيث الفعالية.

هذا، وطالما أنّ ضبط العواطف مرتبط بالإيمان، فتجرد انسان أو آخر من الإيمان، يؤدي، لا محالة الى سيطرة الأهواء، والنزعات على النفس البشرية للشخص المعني بالأمر. على ان السيطرة تلك تؤدي الى الأثرة. والأثرة تعني حب الذات لدرجة تركيز كل همّ الشخص المعني بالأمر على منافعه ومعالمه الدنيوية. وهنا تنشأ كارثة إنسانية فعلاً، فإن كان الشخص حاكماً، فمعناه أنه لن يُراعي العدل في حكمه، فيضحى التخطي للقوانين، والتعدي على حقوق الغير أمرين مشروعَيْن

لديه. وإن كان قائداً حربياً، فيهمُّه التوسع لضم ممالك الى بلاده، دون اعتبار لأهل البلاد المفتوحة قط. وان كان تاجراً، فيُوجّه همّه نحو جمع المال لبناء ثروة كبيرة بكل وسيلة ابتزازية أو استغلالية دون اعتبار لحقّ الغير أو جهده.

وبالنسبة لفرعون ــ الذي تشكل قصته مع موسى ــ المحور الجوهري في دراستنا الحالية، فقد كان شخصاً مُبالغاً في الأنانية، مما دفعه ــ وهو يمتلك كل وسائل الوجاهة والمال والقوة المادية ــ للتصرف في بوتقة من التيه، والظلم، والطغيان، حتى تمركزت القوة التشريعية والتنفيذية فيه شخصاً. فبات دكتاتور زمانه. وشخص مثله، لا يملك أي قواعد خلقية متينة، فتغرُّه آلَة دكتاتورية السلطة. والغرور عدو للإنسان. فإذْ به يتعالى تدريجاً، حتى وصوله لنقطة الظن أنه الأعلى والأسمى بين الناس أجمعين. وطبيعي، في مثل تلك الأحوال، أن يخرج عن أي حبل من حبال التعقل، فيشتطُّ بالاشياء. وهذا ما حصل فعلاً، واذا بفرعون يُنصِّبُ نفسه كإله، طالباً الخضوع الكلّيّ له من جميع الفئات القاطنة في مصر، ومنهم بنو إسرائيل. ولكن، لما كان الاسرائيليون مدركين لحقيقة فرعون كبشر، فقد أنكروا عليه فكرة تأليهه لنفسه، وتنكّروا له، ووقفوا كحزب معارضٍ له روحياً.

هنا، نشأت مشكلة لفرعون، فيما أراد فرض إرادته، تبعاً لأهوائه، متخطّياً حدود بشريته، متطاولاً على الله تعالى. فقد برز مَنْ يتحدّاه في مجتمع مصر. وممّا لا ريب فيه، أنه بصفاته التي تقع في بوتقة عدم انضباط العواطف، وبالتالي البُعد عن التفكير السوي؛ كان من المتوقع لفرعون ان يبطش ببني إسرائيل. فالشخص العاقل عادة يحل الأمور بالحوار، ولكنّ شخصاً مثل فرعون، لا يجعل الحوار في منهجية سلطته؛ وان اضطر، بالجبرية التاريخية، للحوار، فيتهرب منه بوسائل السخرية الذاتية من المُحاور، أو تهديده، كما فعل مع النبي موسى، عليه السلام، لاحقاً. وضمن هذا الاطار، نفهم إذاً، لِمَ غالى فرعون في اضطهاد بني اسرائيل، والبطش بهم، بقتل أطفالهم، واستحياء نسائهم، وقهر ما تبقى منهم، دون اعتبار لشيء.

يُفهم من ذلك كله، ان دراستنا الحالية تركز ــ بين أمور عديدة ــ على زاوية الحكم، مُبيِّنة عناصر الفساد وأساليبه في السلطة، من حيث تسيير شؤون المجتمع.

هذا، وبما ان القرآن يخاطب الإنسان في الاطار الأزلي، فذلك يعني أنه يوجِّه الناس في كل زمان ومكان لعناصر الحكم الصالح؛ مُرغِّباً بها، محذِّراً من السلطة القائمة على التأليه، مع تأكيد أن مصيرها هو الزوال بالقوة الإلهية، التي لا يمكن لشيء أن يقف في طريقها. فالحكم الصحيح، كما تُظهر الدراسة، اعتماداً على قصة موسى مع فرعون، يقوم على دعائم ثلاث: التوحيد والعدل والمساواة، بمعنى أنّ القصة تربط ما بين الجانبين: الروحي والسياسي معاً، وتضعهما قاعدةً للأمن والاستقرار في أي مجتمع معني بهما في كل زمان.

هذا، وفي تركيز الدراسة على البُنية الاجتماعية وروابطها السياسية، تَبِيْنُ خطورة الطغيان على كيان المجتمع كله. فالطغيان عادة مقترن بالأنانية، والأنانية بدورها مرتبطة بالاستعلائية، والاستعلائية بالطبقية. وممّا لا ريب فيه أن الأنانية والاستعلائية معاً تؤدّيان، لا محالة، الى العنصرية مع مرور الوقت. وهذا أمر واضح في حكم فرعون كما يؤكد القرآن الكريم. ولكن الدراسة تظهر، بالمقابل أن التوراة، تضع بني إسرائيل في بوتقة استعلائية حقّاً، وحتى في أوقات ظلمهم من قبل فرعون وآله.

ومهما يكن من أمر، ففي خضم التنفير القرآني من أنانية فرعون واستعلائه، لأثرهما السيء اجتماعياً، بل وروحياً، فضلاً عن إسهامهما في التّدهور الثقافي أيضاً، فتبين أن التكوين الثقافي لم يكن سوياً، لاعتماده على الايمان، بالسحر والسحرة. صحيح ان السحرة شكّلوا إجمالاً الطبقة المثقفة؛ إلا أنه لارتباط السحر بالخيال، والوهم، والحيلة، فإنّ الثقافة لم تكن سوية. فالثقافة السوية هي المقترنة بالإيمان. وهذا شيء أدركه السحرة بعد ان تقدم موسى بمعجزته ــ معجزة العصا ــ التي تحولت الى حيّة، فالتهمت كل عصي سحرة مصر، الذين سخرهم فرعون للنصر على موسى وأخيه هارون. وبإدراك السحرة لأهمية الإيمان بالله تعالى، وحده لا شريك له، فقد صدقوا بربّ موسى وهارون رب العالمين، وانسلخوا عن فرعون، غير مكترثين قط بتهديد أو وعيد صادر عنه وعن ملئه. والمحور هنا، أن الخشية لا يجوز أن تكون، الا من الله تعالى وحده، وان الحضارة الصحيحة هي الحضارة القائمة على توازن بين الروح والمادة معاً. هذا من جهة، أما من جهة

أخرى، فالقصة القرآنية تُنفِّر من السحر، مُبيِّنةً أن السحر شيء باطلٌ وقائمٌ على الوهم. وهو بذلك مصدر للتخلف وللتقهقر الحضاري، لأن العقلانية تشكل جوهراً مهماً في البناء الحضاري في حياة الأمم. والسحر مُنافٍ للعقل والدين معاً. ومن تلك الزاوية، وكل الزوايا الأخرى الواردة في دراسة للقصة القرآنية عن موسى وفرعون، الاسلام كدين عقلاني، يدعو الى العلم والاكتشاف والمدنية على مرّ العصور. هذا، وفي خضم التحدّيات للإسلام، في محاولات إظهاره كدين قائم على الخرافات، وغير صالح للتكيف مع العصور، فالدراسة الحالية لتدحض تلك الإدعاءات بموضوعية تامة.

من كل ما تقدم، نرى ان الدراسة بالغة الافادة، لأنها باعتقادنا ــ قد تضيف الكثير الى عالم المعرفة الحديثة، وخصوصاً أن صيغتها الجوهرية تتسم بالتحليل الذاتي والاستنتاج من قبل المؤلفة نفسها .وكقاعدة، فان التفسير المصطحب بالتحليل يُعطي بُعداً عميقاً للدراسة. وفي الوقت نفسه، وبما أن التحليل الموضوعي يتطلّب معلومات واسعة في شتى ينابيع المعرفة، فالتحليل نفسه، يُهيِّءُ السُّبُلَ للاستنتاج السليم. والاستنتاج السليم هو المبني على قاعدة صلبة، متينة، مُدعمة بالموازنات والإثباتات المنطقية، والحجج الدامغة.

وتجدر الاشارة هنا، إلى أن دراستنا هذه ــ كما سوف نُظهِر لاحقاً بتفصيل أكبر ــ تشتمل على بابين. الباب الأول مختصٌ بالقصة القرآنية عن موسى وفرعون؛ ثم الباب الثاني المختص بالقصة التوراتيّة ومقارنتها بالقصة القرآنية، مقارنة عميقة تتَّسم بموضوعية بالغة، وجدّة فكرية. والمقارنات تركز عادة على نقاط التشابه وبمقابلها نقاط الاختلاف. بالنسبة للمقارنة المُجراة في دراستنا هذه، فقد تمّ التركيز على هاتين الزاويتين بموضوعية، وفيها يظهر أن نقاط التشابه أقلّ بشكل ملحوظ من نقاط الاختلاف بين القصتين. ونقاط التشابه تلك لا تتناول المسائل الكبرى إلا فيما ندر، في حين أن نقاط الاختلاف تتناول قضايا مصيرية، عقائدية في جوهرها إجمالاً، ولكن لها انعكاساتها على المسيرة التاريخية.

تشمل نقاط التشابه بعض الأحداث المتعلقة بحياة موسى، ونشأته، ووقوفه في وجه فرعون، بالأمر الإلهي، لإخراج بني اسرائيل من مصر، حتّى نقطة خروجه

بهم، وغرقه مع جنده. بينما تبدأ نقاط الاختلاف بين القصتين: القرآنية والتوراتية من المفهوم الإلهي، فمفهوم النبوة، والانسان كمخلوق، وحجمه، ومسؤولياته في الأرض. يُبيّن القرآن الكريم ان الله تعالى هو الكمال المطلق، وأنه منزَّهٌ عن الشرّ، والقاهر فوق عباده، يدير شؤونهم بعلم لا محدود، وعدل مطلق، ومشيئة لا ترد، وهيمنة على الكون. أمّا التوراة، كما يُستقى من القصة، فتقدّم مفهوماً محصوراً عن الاِله. فإله بني إسرائيل، واسمه يهوه يبدو كأنه إله خاص ببني إسرائيل جوهرياً، لا إله كل أبناء البشرية. والإله يهوه يبدو في القصة كأن رعايته الخاصة محصورة ببني إسرائيل. فهم شعبه الذي يحزن عليهم، ويتألم لآلامهم، ويهيء الأسباب لإنقاذهم، كمخلوقات تظهر كأنّها تتفرّد في الخصوصية عند الإله يهوه. وطبعاً، فإن لها الأمر في انعكاساته الأرضية، وأبرز تلك الانعكاسات ان الاسرائيليين يظهرون بمظهر التميّز من باقي الخلق، مع إرجاع هذا التميّز، كما يبدو، الى أسس روحية، تستشف من القصة التوراتية عن موسى وفرعون. ومن هذه الزاوية، نرى اختلافات جوهرية بين القصتين القرآنية والتوراتية بصدد مسألة المسيرة التاريخية. وربما نبعت تلك الاختلافات من بعض التحريفات المُدخلة على التوراة. والقرآن الكريم بدوره، يؤكد دخول تحريفات على التوراة في أكثر من موطن.

هذه هي أهم النقاط الواردة في دراستنا الحالية عن موسى وفرعون، في بضع محاور رئيسة. ولا بدّ وأن يتوقع القارئ وجود ينبوع من العبر والدروس فيها. وهذا صحيح. كمبدأ عام، ويتركز على القصص القرآني بالذات، فهو يقدم دروساً للعالمين. فالقصص القرآنية قصص واقعية، جرت في فترات متلاحقة من التاريخ. وبما أن الانسان يبقى إنساناً، وبما أن الشرّ موجود تماماً كالخير، فلا بد وأن تُكرَّر المشاكل نفسها جوهرياً في حياة الأمم، مع اختلافِ في الأزمنة والأمكنة. . والمشاكل تتجسد في حدوث تصدّع اجتماعيّ، أسبابه الخروج عن الدين، والتطاول عليه. إذْ تنشأ أمم على مرّ العصور، وترتقي؛ وينسى الكثيرون الهدف من وجودهم، فيرون الحياة الدنيا، كأنها نهاية المطاف، فتطغى عليهم المادية، ومعها الظلم والطغيان بشتى الأشكال والأنواع، مما يؤدي الى حدوث تصدّع اجتماعيّ، فانهيار تدريجي، فانحطاط، فزوال بقوة الله عزّ وجل؛ وبه انهاء دورة، وابتداء دورة تاريخية أخرى.

بدراستنا الحالية، تمّ التركيز على أهم العوامل التي أدت لحدوث تصدّع في المجتمع الفرعوني زمن موسى، وتتبّعناه بموجب أحداث القصة القرآنية، حتى الانهيار الكامل لحقبة فرعون، وابتداء دورة تاريخية جديدة في حياة المصريين من جهة، ثم بني إسرائيل من جهة أخرى. ولكن عند تلك النقطة، تنتهي القصة إجمالاً من التركيز على مصر بعد فرعون، لتتبع بدقة مجريات الأحداث بالنسبة لبني اسرائيل بعد مغادرتهم مصر، بالمشيئة الإلهية التي لا ترد. وطبعاً، بما ان الموضوع طويل للغاية، فكان لا بد لنا من تخصيص مؤلَّفيْن له. المؤلف الأول، وهو الدراسة التي بين أيدينا، بحيث تغطي فترة ما قبل خروج بني اسرائيل من مصر، حتى خروجهم، وغرق فرعون. والمؤلف الثاني، يغطي فترة ما قبل وصول بني اسرائيل مع موسى إلى الأرض المقدسة، ثم وصولهم اليها، والأحداث المكتنفة عندئذ، وصولاً إلى التِّيه، والعبر من ذلك، مع ما تحمله تلك العبر من فوائد جمّة لفهم التاريخ، وازالة الغموض على كثير من أحداثه.

هذا، وبالوصول الى هذا الحدّ، نكون قد زوّدنا القارئ بأهم النقاط أو الخطوط العريضة، التي تدور حول المحاور الرئيسة في الكتاب الأول، لننتقل الآن الى تفصيلاته، كما هي مصدّرة بـ«المقدمة»، وفيها نخوض بعض الشيء في قصص الأنبياء، نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، على أساس تكوين خلفية متينة للقصة في إطار تاريخي روحي؛ بهدف التأكيد أن قصة موسى وفرعون أتت ضمن سياقٍ تاريخي واحد، واضح بمعالمه وآثاره. فيسهل فهمها، واستيعاب عبرها ودروسها على مرّ التاريخ. وطبعاً، بما ان أحد محاور قصة فرعون، الظلم والطغيان، فيصبح من الطبيعي أن يأتي بحثها في بوتقة من التركيز على ظلم الأقوام السابقة، وأنواعه، وأصنافه، وانعكاساته.

وقبل الانتقال الى هذا الموضوع في «المقدمة»، نتوجه لله العلي القدير لاستلهام العون منه، في هذا الانتاج البالغ في الأهمية، في حقل مقارنة الأديان. وله، عزّ وجلّ، الحمد أولاً وآخراً.

بيروت، آذار ـ مارس ١٩٩٨

زاهية الدجاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الظلم ودوراته من عصر نوح عليه السلام حتى زمن فرعون

مع التقدّم السريع للزمن، الذي يقعُ في بوتقةِ القوانينِ الثابتةِ للكون، التي لا تحويل لها ولا تبديل، تنشأ أجيال، وتفنى أجيال. ومع تلك المسيرة الزمنية الدنيوية، تُؤسَّسُ دولٌ، وتندَحِرُ دول أخرى بالمقابل، لتَبقى الأحداثُ الأرضية في إطارِ التوازناتِ بشكل عام. وفي خضمِّ كل ذلك، تكتنفُ العالمَ حقيقةٌ ثابتة، وهي وجودُ أصنافٍ مُعينة من أبناء البشرِ على مرِّ التاريخ، من منطلقِ الصراعِ الدائرِ باستمرارٍ بين الخيرِ والشرّ. ولكن مع وجود تلك الأصناف، التي تقعُ في دائرةِ الخير والشرّ، فالتحديدُ للدائرتين هاتين يختلفُ بين زمان وآخر. فدائرة الخير تنمو وتتّسِعُ في العصور المُتَّسِمة بالروحانية، مقابلَ انكماشٍ في حيزِ الشرّ، في وقت نماءٍ وكِبَرٍ لدائرة الشرّ، مقابل انكماش في وجود الأخيار في الأزمنة المُتَّصِفَة بطغيان المادة على الروحانية. على أنه في اطار دائرتي الخير والشرّ، يبرزُ الانسان المؤمن، المتعقّل، الخيّر، الحكيم، بأفعالهِ التي تُعطي معنىً جميلاً للحياة، ومقابلُه يظهرُ الانسانُ الشرير، الذي يتخذُ طريق الظلم منهجاً له في الحياة، فيفسِد في الأرض، مُحوّلاً بذلك جمال المعنى الى قبح. فجمال الحياةِ مُقترِنٌ بفعلِ الخير فيها اتّساقاً مع القوانين الثابتة للكون، في حين أن فعل الشرّ يَسلبُ كل مقوماتِ الجمال التي تُضفي سعادةً على النفس البشرية. فالسعادةُ، ولو كانت نسبية على الأرض، مُرتبطةٌ دوماً بتوطيد الحق والعدل؛ في حين ان الافتقاد لها مُنبثِقٌ عن

الظلم الذي يتسبّب وجوده في إحداث التواء في الموازين الثابتة، التي تسير الأحداث الدنيوية بموجبها. ولكن ما معنى الظلم؟ وما حوافزه؟ الظلم آفة، وهو نابعٌ في جذوره من توجّهِ الإنسان نحو الجانب السفلي من الحياة، جانب الشيطان، بدلاً من الجانب العلوي، الذي تسمو به النفس، وتعلو به بالتهذيب والانضباط المتطلب للمعاملات الصحيحة. وبهذا الاطار، فالظلمُ مُقترنٌ بخَلَلٍ ذاتي مصدره الافتقاد الى التوازن بين العقل والوجدان، علماً أنّ ذلك التوازن هو العربة للإيمان المستنير، الباعث على التصوّف في بوتقة الحقّ. هذا، وعدمُ التوازن ذاك هو الثغرة التي يتغلغل منها الشيطان بوساوسه الى النفس البشرية، بحيث يَجرِفُ الانسانَ نحو الظلم. عِلماً أنّ للظلم أنماطاً، وأشكالاً، يُحدّدها القرآنُ الكريمُ، بخطوطِها العريضة، في قصص الأنبياء، في إطارها الجماعي. ونرى ضرورة هنا لإعطاءِ صورةٍ مختصرةٍ عنها، للأهمية التي تحمِلُها تلك الصورة في إبراز الظلم السائد في العصر الفرعوني أيام موسى، عليه السلام، في مصر، كحلقة في سلسلة، من حلقات الظلم الجماعي الذي بدأ منذ عصر نوح، عليه السلام، وصولاً لعصر فرعون. فالظّلم الذي أدّى إلى تدمير مستكبري أقوام: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، عليهم السلام، يقف بكل حلقاته، كخلفية لامتدادِ الظلم في عصر فرعون، ولو أنه أخذ أسلوباً جديداً، بشكل أو بآخر، رغماً عن تمازج كنههِ مع الأنماط الأخرى جوهرياً، وذلك الكنه هو الإجحاف بحقّ طبقة مُستضعفة من المجتمع.

وتجدر الاشارة هنا، إلى أنه في أي بحث متين، فإن الخلفية تشكِل القاعدة أو الأساس، الذي يَقفُ بنيانُ الموضوع على أعمدته. فإن ضاعَ ذلك الأساس، فلا محالة عندها من حدوث اهتزاز البنيان الفكري برمَّته، أي بنيان الموضوع المطروح للدراسة. ضمن هذا المنهج، فإن دراسةً متينةً عن «قصة موسى مع فرعون»، تتطلّبُ خلفية تاريخية، لأنه، طالما أن محورَ القصة هو ظلم حاكم متغطرس (فرعون)، لفئةٍ مستضعفة بمصر (بني اسرائيل)، فلا بدّ، إذاً، من الدخول في بحثٍ مُختصرٍ عن الظلم، الذي أحاقَ بأقوام قبل فرعون، كما ورد في القصص القرآنية. ومن الجدير بالذكر هنا، انه في كل قصة من تلك القصص القرآنية، نرى زاوية أو

جانباً من الظلم الذي يؤدّي إلى إحداث تصدُّع في المجتمع المعنيّ بالأمر. ولكن يبقى مبدأ واحد، وهو ان الظلم يُجحِف بكل الفئات المستضعفة أو الفقيرة أو العاجزة، عِلماً أن سببه الجوهري، هو الاستكبار. مثلاً، استكبار الملأ أيام: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ثم استكبار فرعون مع مَلَئِهِ أيام موسى. وتاريخ الاستكبار، في جميع مراحله يندرج في سلسلة واحدة، بحلقات لا تنتج سوى الظلم. وهنا تبرز صورة واحدة خلفيتها التشابه في النفسيات والنظرات، والتطلعات، على الرغم من اختلاف في الأزمنة، والأزمنة، والأسماء.

ولإيضاح تلك الحقائق، نرى ضرورة إعطاءِ صورة مُوجزةٍ عن الظلم في زمن نوح، ومنها، ننتقلُ للعصورِ الأخرى، وصولاً للعصر الفرعوني قبيل ولادة موسى، وما أعقبها.

١ ـ زاويةُ الظلمِ زمنَ نوح

في التركيز على تلك الزاوية، يجمل بنا ان نذكر أولاً، أن الذي يُراجِعُ السور القرآنية التي يَرِدُ فيها ذكر نوحٍ، يرى أن قاعدة الظلم في قصّته مع قومِه، منبثقة عن «الاستكبار». والاستكبار يعني وضع النفس البشرية في منزلةٍ لا تتناسبُ مع الحدودِ التكوينية للإنسان كمخلوقٍ تابعٍ لواجب الوجود (أي الخالق للكون وكل ما فيه). فالكبرياء مُرتبطٌ بالهيمنةِ على الكَون والاستغناء عن الخلق، وتلك صفاتٌ ينفرد فيها الخالقُ عن مخلوقاته. وبهذا الاطار، فالاستكبارُ البشريّ صفةٌ مذمومة، مرتبطة بالشيطان، وتحملُ معنى التطاول على الجوانب الروحية والأخلاقية معاً. وصاحبُهُ يتخطى التوازنات الكفيلة بالحفاظِ على العدل، من قيام بالواجبات في أطرٍ مُتناسبةٍ مع إيفاءٍ للحقوق، ولذلك فهو يُخِلّ بالموازين. على أن هذا الإخلال بالموازين هو الباعث على إحداث تصدّع اجتماعي. وفيما عنى مجتمع قوم نوح، فقد كان يُعاني مثل ذلك التصدع، من جرّاء وجود مجموعة مستكبرة، وضعَتْ نفسها في مكانةٍ مميّزة، لتستأثِرَ لنفسها بالتسلط والجاه والظلم، وما كان لذلك من أثرٍ في التعدّي على حقوق الضعفاء دون وازعٍ ضمير. فالاستكبارُ عادةً يُجرّدُ صاحبهُ من الضمير، وذلك لإنّ الاستكبار مقترنٌ بالَجانب العاطفي، الذي يطغى على الجانب العقلي،

فيختلُّ التوازن ما بين العقل والوجدان. وبناء على ذلك، فالمستكبر يَفقِد الرؤيا لحقائق الأشياء. وبفقدانها يرى أنه، لا الأعلى صفاتٍ، ومنزلة فحسب؛ بل عقلاً أيضاً. ومن تلك الزاوية، يضعُ نفسه كصاحبِ القرار الذي لا يُناقش، بل وصاحب الأمر والنهي، الذي لا يجوز لفئةٍ ما تخطّي كلمة من كلماته، لأنه يرى فيه تطاولاً عليه وتحدّياً له.

تلك بالضبط كانت مشكلة المستكبرين من قوم نوح. إذْ جرّهم استكبارهم للظن أنّ تعطيل رسالة نوح السماوية ـ التي اتبعتها الفئة المظلومة، الضعيفة منزلة اجتماعية ومالاً ـ يأتي من طريق فرض أنفسهم فرضاً بكلمة نافذة، من خلال صورتهم كرجال مالٍ ونفوذ. ولمّا كان نوح يحاول توسيع دائرة أتباعه، أحاط هؤلاء المستكبرون به لإقناعه بأن دخولهم في دعوته السماوية يُعطي لها وزناً كبيراً. ولكنّهم، أبدوا في الوقت ذاته، أنه لا مجال لدخولهم، بكل ثقلهم، إن أبقى نوحاً على المستضعفين في دعوته. هذا، ومن أجل تنفير نوح من المستضعفين، الذين دخلوا في رسالته السماوية، نظر المستكبرون الى المستضعفين كفئةٍ غير نافعة، يتَّسِمون بضحالة الفكر الذي لا يتناسب أبداً مع تفكيرهم، كسادة للقوم!! وبوصولهم إلى تلك النقطة، حاول المستكبرون إقناع نوحٍ بوجود فرقٍ شاسعٍ بين دخولهم هم كفئةٍ تتّسم بتفكير سامٍ، ودخول الضعفاء بتفكيرهم المحدود: فالضعفاء، برأي المستكبرين، قد دخلوا في رسالة نوح دون اقتناع، دخلوا لتناسبها مع منافعهم. أمّا، هم، فيَدخلونها عن فَهم، وإدراك لها، وكأنّهم يقلبون الحقائق، وكلهم أملٌ في استجلابِ نوح، لطرد الضعفاء والمساكين من حوله، بنيّة عزله، ثم القضاء عليه وعلى دعوته بالتوحيد، والعدل، والمساواة. وذلك من أجل إبقاء الأوضاع على ما هي عليه، وإيقاف حركة التغيير بمقوماتها الموجودة في رسالة نوح السماوية. وتلك قمة الظلم، بيد أن نوحاً، وضع تلك الفئة المستكبرة عند حدّها، حينما بيّنَ لهم بوضوح، بأن استجلاب الناس الى رسالته غير مرهونٍ قطّ بالمال، بل بالإيمان، ولذلك فلن يستجيبَ أبداً لطلبهم بطردِ المستضعفين، الذين يخضعون لله تعالى وحسابه، مَثَلُهم مَثَلُ كل أبناء البشرية، مؤكداً هنا انه، لولا جهلُ المستكبرين من قومه، لمّا تقدّموا اليه بطلب طرد المستضعفين من حوله. ثم

أكدّ لهم الهيمنة الإلهية، والعلم الإلهي بكل صغيرة وكبيرة في الوجود، وأنّ الله عليم بطلبهم ذاك، مُتسائلاً، مَن القادر على دفع عقاب الله عزّ وجل عنه، ان طردَ المستضعفين وظَلَمَهم؟! ومن أجل التأكيد لقومه، أن لا مكان لاستكبارهم، لكونهم بشراً مثل الآخرين ـ لا يجلبون نفعاً ولا ضرّاً، إلا بأمر الله تعالى ـ فقد وجه انتباههُم للإدراك بأنهم ليسوا أمام شخصٍ ثريّ يُتبع من أجل ماله، كما انهم ليسوا أمام شخص يدعي العلم بالغيب، للاعتقاد بأنه إله، ولا يدّعي أنه مَلك، كما أنه لا يَدّعي أن الفئة المستضعفة التي اتَّبعتْهُ غير مقتدرة على أداء واجباتها للمنفعة العامة بتأييد من الله تعالى، وإلاّ فسيكونُ ظالماً، مُستحقاً، للعقاب السماوي. وبذلك، أكدّ نوح للمستكبرين، بأنهم فئة ظالمة بكل معنى الكلمة، بل وتدعو لتثبيت الظلم، وهو أمرٌ يرفضه كل الرفض، لأنه يتناقضُ كل التناقض مع سنن الحياة الثابتة في العدل والحق. على أن كل تلك المعاني، وردتْ في الآيات التالية من «سورة هود»:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هـود] ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود].

من كلّ ما تقدّم، نرى أن الظلم يقعُ في اطارين: أولهما الإطار الفردي، والآخر الإطار الجماعي، الذي يأتي كانعكاسٍ تام للظلم الفردي. من سماتِ الظلم الفردي الاعتداد الشديد بالمال والمركز، بل وبالشخصية الذاتية وبأفئدتهم وعقولهم، لدرجة فقدان الرؤيا الصحيحة للأشياء، والظن أن سير الأحداث يجب أن يتمّ بإرادتهم، وكأنهم مرتكز العالم، ولا وجود لغيرهم!! فغَيرُهم، بنظرهم، فئة دونية فِكراً، وعاطفة، ومنزلة، يجب استغلالها واستعبادها لصالح الأغنياء من القوم، وأصحاب المنازل منهم. ولا يجوز لتلك الفئة، باعتقاد المستكبرين من القوم، أخذَ قرارات لنفسها، دون ما يفرضونه هم عليها. وبذلك، ضاعت حقوق

الضعفاء وبات مجتمع القوم، مكوّناً من طبقتين، طبقة الأثرياء وأصحاب النفوذ، والسلطة، وطبقة المستضعفين، المستذلين المستغلين، المستنزَفين، المستَعبدين. وقد أنزلَ الله تعالى الرسالة على نوح، من أجل تصحيح تلك الأوضاع الظالمة ليذكِّر:

أ) إن الكلمة النافذة هي كلمةُ الله تعالى.

ب) إن الحساب الإلهي موجود ويشمل الجميع.

جـ) إن الكلمة النافذة هي كلمة الله عزّ وجل، لا كلمة المستكبرين.

د) إن العقاب هو نهاية الاستكبار، ويتجلى ذلك بالتدمير الإلهي للمستكبرين مُقابل إنقاذ النبي نوح، مع مَن تَبِعهُ من المستضعفين، من قومه. ويتمثّل هذا، في الإيحاء الإلهي لنوح ببناء السفينة تحت رعايتهِ عزّ وجلّ، ثم تدمير الظالمين بالطوفان، وتغلُّب السفينة على أمواج الطوفان الهائلة، تحقيقاً للأمر الإلهي بوصول نوحٍ مع مَن حَمل بالسفينة، سالمين، لبرِّ النجاة، كما ورد في قوله العزيز:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤)﴾ [هود].

هذا، وبإنقاذ نوح مع مَن رَكبَ معه في الفلك، انتهتْ فترة زمنية مُتّسمة بالظلم، وابتدأت فترة جديدة قائمة على التوحيد، والعدل، والمساواة. أو بمعنى آخر، انتهتْ فترة من الانحدار الحضاري لتحل محلها فترة تأسيسية لحضارة جديدة تواكب العجلة الزمنية السائرة في تقدمها السريع.

ولكن الظاهر بوجود الخير والشرّ في حياتنا الأرضية، فإن الحماس الروحيّ المتجسِّد في بداية تأسيس للقرية الجديدة، على القواعد الصحيحة، المُتطلبة للحضارة المتوازنة، قد بدأ بالتناقصِ تدريجاً، حتى نقطة الوصول الى طغيان المادية على الروحانية.

ومع كل ذلك، فإن عودة الاستكبار بكلّ مساوئِه في نشر الظلم؛ سواء على نطاق فردي أم جماعي، بل وعودة التصدّع الاجتماعي للقرية المعنية بالأمر، في

دورة تاريخية جديدة، مُشابهة للدورة الأولى، ولكن بعناصر جديدة، عودة الإستكبار هذا، عززت الحاجة للتغيير الروحي الأخلاقي للقضاء على ذلك التصدّع، من خلال الأمر السماوي الذي لا يُردّ، وذلك باستبدال قوم بقوم آخر، وهؤلاء هم قبيلة عاد، على أن معاني التغيير في القرآن، تتجسّدُ في قولِه العزيز:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود].

في الواقع، إن العقاب الذي تَبعَ عقاب قوم نوح، هو ذلك الذي أنزلهُ اللهُ تعالى على قوم هود عليه السلام (أي عاد)، بسبب ظلمهم وطغيانهم أيضاً. ولكن كيف تبدّى ظلمهم الذي أدى بالنتيجة الى إحداث تصدّع في مجتمع عاد؟ ذاكَ ما سوفَ نُسلِطُ عليه الأضواء باختصار الآن، من أجل إظهار الظلم كسلسلة من الحلقات، ابتداء من عصر نوح الى عصر موسى. هذا، وحين يحلّ الظلم ويُفسِد ويخربُ، فيُمحَقُ بالكلمة الإلهية، فيحلّ العدلُ مكانه. ولكن لا تلبث زاوية أخرى من الظلم، أن تعود مرة أخرى، للظهور على الساحةِ البشرية، حيث ينتشر الظلم ويُتبَعُ بالتدمير الإلهي، يليه تأسيس حضارة جديدة. وتجدر الاشارة هنا، إلى أن الحضارة التالية، التي عرفت مساري الازدهارِ فالتدمير، هي حضارةُ «عاد»، قوم هود عليه السلام، كما ذُكِرَ سابقاً.

٢ ـ ناحية الظلم المختصة بمستكبري قوم هود (عاد)

من السور القرآنية المختصّة، بأجزاء منها، بهذا الموضوع، يَستشِفّ القارئ بأن طغيان قبيلة عاد، تجسّد في إطارين: أولهما، إطار «عُنصري»، مَيّزَ أفراد القبيلة أنفسهم فيه، ممّن حولهم من قبائل صغيرة، وذاك يتبعُ جانب العلاقات الخارجية. والثاني إطار طبقي داخلي، تمثّل في استئثار طبقة غنيّة بالموارد الداخلية والخارجية، فعاشتْ عيشةَ مجونٍ وترفٍ وبذخٍ ورفاهية في ظل عُمران مُبالغ في الانفاق عليه. ولمّا قلّتْ مواردهم ازداد ظلمهم، وتجسّد ذلك في قهر المستضعفين منهم وفي الاستنزاف الكبير لموارد القبائل الضعيفة في الخارج، باللجوء للبطش العسكري. وقد استُخدم قسط كبير من تلك الأموال لبناء مدينة «إرم»، التي وُصِفَتْ

قرآنياً بعدم وجود مثيلٍ لها في البلاد، كما ورد في قوله العزيز:

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر].

إنّ ظلمَ مستكبري عاد، تسبّب بإحداثِ تصدّع داخلي، علامته الفجوة ما بين أصحاب النفوذ والمال، والمستضعفين. ولا حياة لمجتمع يُعاني التصدّع كقاعدة، من منطلق غياب العدل والمساواة فيه. ولذا، أرسل الله تعالى النبي هود، لإصلاح الوضع برسالته السماوية، وذلك من طريق تدعيم التوحيد، والدعوة للحق، ولكن المستكبرين تعالَوْا على هود ودعوته، وأنكروا التوحيد والهيمنة الإلهية على الأرض، وبالتالي التهديد بقوة ظنّوا أنْ لا مثيلَ لها. وتلك ذروة الكفر، والتدهور الفكري. فالسموّ الفكري يقود الانسان دوماً للنظر في خَلْق الوجود، والتدبّر فيه، والموازنة بين الأشياء، حتى يَصِلَ الى درجة الإيمان المستنير. بيد انه، لتجرد مستكبري عادٍ من ذلك، عاشوا في سراب الوهم، ومن هنا، ورَدَ قوله الكريم:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ [فُصِّلت].

هذا، ومن منطلق استكبار عادٍ في الأرض، من خلال عدم ادراكهم لمحدودية البشر، كمخلوقات تابعة للخالق ـ الذي له القوة والعزّة جميعاً ـ فقد أخذهم الله أخذ عزيز مُقتدِر بعقابه، وجعلهم عبرةً للعالمين:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقّة].

إن تلك الآيات تؤكّد عجزَ القوة المادية البشرية، مهما سمت، ان ما قوبلت بالقوة الإلهية التي تتجلّى في كل الكون الذي لا يمتلك مفاتيحه الا الله عزّ وجلّ. بأمرِ سماوي، أهلِكَ القوم بريحِ صرصرٍ عاتية؛ وطبعاً، هل للإنسان المحدود بتكوينهِ، أن يقفَ أمام العواصفِ الثلجية العاتية؟ مستحيل. ثمّ، إنّ تدمير القوم بتلك العواصف، أتى في بوتقة حسابات تامة في الدقة. فالزمن المتطلب للتدمير كان ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقّة/٧]، ممّا يبيّن العلم الإلهي بكل

صغيرة وكبيرة، ومحق الظلم من منطلق هذا العلم التام، على أنه مع تلك العاصفة العارمة، تمّ إخفاء المستكبرين كلّيّة، فباتوا وكأنهم ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة]، مما يُبيّن مدى ضعف القوة المادية، مهما علت، عمرانياً أو عسكرياً، ومدى ضعف الظالمين مع ظلمهم. والآية ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة]، تقف كتجسيد للعبر؛ وهي ان للظلم دورات بتاريخ الانسانية، ولكن حينما يصل الى ذروته، ويعجز المستضعفون عن صدّه، يتحدّى الله الظالمين بقوة كاسحة لتثبيت كلمته على الأرض في الحق والعدل. وهكذا، انتهت دورة عادٍ في الظلم، ومضتْ عجلة التاريخ بسرعتها المعهودة، وفي طيّاتها نشأت حضارة ثمود، قوم صالح، عليه السلام، وازدهرت، فإلى نقطة العودة لاستفحال الظلم بمجتمع تلك القبيلة، فالتصدّع الاجتماعي، فالحاجة الى الاصلاح، فإرسال صالح برسالته السماوية لتحقيق الهدف، فالتكذيب له ولأتباعه، فالعقاب الإلهي للظالمين. وسوف نُركّز على تلك النقاط كلها، ونحن قد وصلنا للحلقة الثالثة من الظلم في السلسلة التاريخية المتقدمة في التاريخ البشري.

٣ ـ ظلم مستكبري ثمود، قوم صالح

بالانتقال الى قوم صالح، ثمود، فسنجدُ زوايا جديدة من الظلم المرتبط بالاستكبار. وكما يُستشفّ، فإنّ ظلم ثمود يبرزُ في تحكّم جماعة من المستهترين بكل القيم، المستخفّين بكل المبادئ، في مجتمع متّسم بعدم وعي أهله إجمالاً: ويتمثّل عدم الوعي ذاك في انسياق غالبية القوم وراء الجماعة المقصاة من المسؤولين عن شؤون القبيلة، انسياقاً أعمى، ومن ثم، السير في طريق الترف الدنيوي في أجواء من الإباحية المحرّمة دينياً، ومن ثم، قلب الموازين الأخلاقية رأساً على عَقب. وتجدر الاشارة هنا الى أنه حيثما وجدتْ الإباحية، وُجدتْ الفوضوية، وحيثما وُجِدت الفوضوية اختل الميزان الدقيق الذي يحفظُ وجود العدل في المجتمع المعني بالأمر.

وبهذا الإطار، فمجتمع ثمود كان مجتمعاً ظالماً بصبغته العامة. ولو وُجدتْ قِلَّةٌ متعقلة فيه، فقد ضاعتْ بين الغالبية الظالمة، وباتتْ مستضعفة، مُستغلّة، بلا

حقوق، ولا كرامة، ولا إنسانية. ومن هنا، أرسل الله تعالى صالحاً، لكي يُصلح المجتمع المتصدّع ذاك، لتلك القبيلة، ويكبح جماح الظالمين، ويُعيد للكلمة المظلومة حقوقها، إلا أنّ المستكبرين صدّوا بصلافة عن الرسالة السماوية لصالح، بل وكذبوه تكذيباً وصل بهم لأبعد الحدود. وبالنتيجة، طلبوا منه معجزة لإثبات صدق رسالته، كما يظهر من قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾ [الشعراء].

من مظاهر ظلم القوم لصالح، اتهامه بالسحر، كخطوة لتكذيبه، ثم التقدم بطلب معجزة منه لإثبات مصداقيته في النبوّة، في حين أن رسالته السماوية تتحدّث عن نفسها من حيث المصداقية. بيدَ أن الله تعالى، الذي لا يُعجزه أمر في السموات والأرض، أرسل لهم المعجزة التي طلبوها في صورة ناقة، ولكن مع إلزامهم بقوانين لاتباعها، وتهديد لهم بسوء العاقبة، إن لم يتّبعوها، كما جاء في قوله الكريم:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥٦﴾ [الشعراء].

بالشرح الآتي في «صفوة التفاسير» لمحمد علي الصابوني، فقد جاء: «هذه معجزتي إليكم وهي الناقة... تشرب ماءكم يوماً، ويوماً تشربون أنتم الماء.. لا تنالوها بأي ضرر بالعقر أو بالضرب... فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد يوصف... فقتلوها رمياً بالسهام...»[1] على أنه بقتلهم للناقة باتوا نادمين، كما وردَ في قوله الكريم:

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٥٨﴾ [الشعراء].

وتجدر الإشارة هنا، إلى انه بالارسال الإلهي للناقة لقوم ثمود، فالامتحان للقوم

(١) محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، مجلد ٢ (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١)، ص ٣٩١.

كان ويكمن في ما يأتي: إن اتبعوا الأوامر الإلهية في عدم إيذاء الناقة بضرب أو بعقر، فمعنى ذلك بدء صفحة جديدة في تاريخهم، بالعودة الى التوحيد والعدل. أمّا إنْ تطاولوا على الأوامر الإلهية، وعقروا الناقة، فذاك يعني، تأصّل التكذيب في نفوسهم، لدرجة استحالة توجيههم نحو الايمان.

هذا، ولما عقروا الناقة، أثبت القوم أنه لا مجال قطّ لإصلاحهم، فقد بلغ تطاولهم على الرسالة الذروة. فعقْرُهم للناقة، يدل على أنهم أهل دنيا بكل معنى الكلمة، وأنهم لن يُعطوا أي اعتبارٍ للدين، وأنهم اعتادوا على فوضوية المتطاولين على الدين، بحيث يستحيل التزامهم بقانونية الدين، وتعاليمه وشرائعه، بل بات الدين عدواً لهم، وبات كشيء يريدون التخلص منه بعجرفة وغرور، دون حسبان للعواطف، يفعلون ذلك، وهم يظنون القوة بأنفسهم كقوم «عاد» من قبلهم. ولذا دمّرهم الله تعالى، ولكن قبل تدميرهم، عذّبهم بالدنيا التي تهافتوا عليها، كما جاء في قوله العزيز:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود].

لتهافت قوم ثمود على الدنيا، فقد خصّص الله تعالى لهم ثلاثة أيام للتمتّع فيها، ولكن ليس في ظروف عادية من الصحة، بل بأحوال غير عادية «أي أحوال مرضٍ سلطه الله تعالى عليهم»، كما جاء في الشرح الإلهي لآية ٦٥ من «سورة هود»، في «كتاب مجموعة من التفاسير» للبيضاوي، النسفي، الخازن، وابن عباس: «قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مصفرّة، وفي اليوم الثاني مُحمرّة، وفي اليوم الثالث مسودّة. فكان كما قال وأتاهم العذاب اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود/٦٦] يعني العذاب»[٢]. وقد أخذهم الله عزّ وجلّ في الصيحة التي ماتوا في خضمّها وهم في أشد الهلع والذعر:

---

(٢) البيضاوي والنسخي والخازن وابن عبّاس، كتاب مجموعة من التفاسير، مجلد ٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، لا.ت.)، ص ٣٤٠.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴿٦٧﴾﴾ [هود].

وتلك هي نهاية الظلم، عذاب في الدنيا والآخرة، وخوف وهلع وفزع دنيوي، وخزي وقت الحساب الأخروي، وكلّه مذلّة وخذلان للقوم ... خذلان تاريخي... وخذلان في الآخرة؛ ويتجلّى ذلك الخذلان للقوم في أجمل معانيه، في قوله عزّ وجلّ:

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴿٦٨﴾﴾ [هود].

ضاعَ مالُ ثمود بكفرهم وطغيانهم، وحل محل المال فَقْر الصيت والسمعة في الدنيا، إضافة للخزي الأخروي، واقتُلعَ الظالمون اقتلاعاً من الساحة البشرية بالقضاء الإلهي الذي لا مردّ له، ولم يبقَ إلا العبر. فهل اعتبر كل من جاء بعد ثمود بما حل بهم، أم أنّ الطغيان عادَ بعد مضيّ فترة زمنية من تدمير ثمود؟ الواقع، أن هذا الطغيان عادَ، ولكن بزاوية جديدة، مع قوم لوط عليه السلام، وبحلقة جديدة.

٤ ـ جانب الظلم الذي استحوذ على قوم لوط

حتى الآن، لقد تحدَّثنا عن الظلم البشريّ الذي حل في دورات ثلاث في التاريخ البشريّ، ودخلنا الآن في الدورة الرابعة، وبعدها الخامسة، ثم السادسة المختصّة بالعصر الفرعوني قُبيل ولادة موسى عليه السلام، وأيام طفولته وشبابه. وبما أنّ الظلم مبدأ معنوي، ففهمه ككل إجمالاً، يتطلّبُ التركيز على كل زواياه الواردة في القرآن الكريم، عن موضوع الانحدار الحضاري في تاريخ الأمم الظالمة. ومن هنا، نشأتْ لدينا ضرورة لإعطاء فكرة موجزة عن الظلم في عصر لوط، ثم عصر شعيب عليه السلام، ومنه نتدرّج للعصر الفرعوني، لندخلَ في صُلْبِ موضوع الدراسة، بعد إعطاء خلفية بصدده. والخلفية كمبدأ، ضرورية في تقديم أيّ بحثٍ ملتزمٍ بنظرة موضوعية إيجابية كما ذُكِر سابقاً.

هذا، وقبل الدخول للحديث عن قوم لوط، يجدر بنا أن نذكر أولاً، بانه ان انبثق التصدّع في مجتمع قوم نوح من جرّاء استعباد القوي للضعيف، والغني

للفقير، وإن جاء التصدّع في مجتمع قوم هود، عادَ، بسبب العنصرية، والافتقار للوحدة العضوية النابعة من غياب العدل في ذلك المجتمع، وإن أتى التصدّع في مجتمع قوم صالح «ثمود»، من جراء الفوضوية وشدة تكذيب الغالبية من القوم للدين، وعبثهم بالموازين؛ فإنّ التصدّع في مجتمع قوم لوط، جاء في الواقع من الاخلال بالموازين، التي لا استمرارية لحياة، ان بقيت على اختلالها. وذاك يتناقضُ مع الموازين الثابتة للكون، التي لا تحويل لها ولا تبديل. مُشكلة قوم لوط، تبدأ من الانحلال الخلقي للرجال من القوم. والنابع في ثمود من التمرّد على المسيرة الطبيعية للحياة، والسبب في ذلك يعود الى عدم الوعي في فهم إنسانية الإنسان، التي يقف العقل المتوازن مع الوجدان، كأساسٍ لها. فمع عدم الوعي ذاك، ينحدر الانسان الى مرتبة حيوانية، فيُصبح أسيراً لغرائزه وأهوائه التي تقوده الى كل ما يخرج عن المسار الطبيعي للأشياء. والمسارُ الطبيعي للحياة يقضي بالتناسل، في ظلّ الزواج القائم على شرائع دينية، بين الرجل والمرأة. وهذه هي نقطة تمرّد قوم لوط من الرجال. أراد رجال القوم معاشرة بعضهم بعضاً، دون اعتبار للزواج الشرعي. ومن هنا، قلبوا الموازين رأساً على عَقب، وسبّبوا ظلماً وإجحافاً، بسبب:

أ) تحكّم الرجال في المجتمع، وترك النساء جانباً، علماً أن المرأة هي نصف المجتمع، ولا حياة لمجتمع، لا تكون فيه للمرأة مُساهمة فعالة.

ب) إهدار كرامة المرأة، وعدم اعتبار إنسانيتها، وأسباب وجودها.

هذه الانحرافات تُشكل طغياناً على المسيرة الاجتماعية، فأيّ مجتمع هذا، الذي فيه تنزوي المرأة، وتُعطّل العائلة، وينقطع النسل؟ بناء على هذا الوضع المُتردّي، أرسل الله تعالى لوطاً، برسالة سماوية، ليُخرِج الرجال من أوحال الحيوانية الى الانسانية. فكيف كان ردّ فعلهم؟ كان طيشاً وطغياناً، وتهجّماً عليه وعلى رسالته، وتمرّداً عليها وعصياناً، لإبقاء الأوضاع كما هي عليه. وقد أظهر القوم انحداراً في نفوسهم الى الحضيض، حين أرسل الله تعالى، ملائكة بهيئة رجالٍ، لبيت لوط. إذْ ما إنْ علمَ رجال قومه، بوجود رجال، بهيئة حسنة، في بيته، حتى هرعوا الى منزل ذلك النبي الكريم، بطريقة تحمل في طياتها التنكّر

لانسانيتهم، وهبوطهم لمرتبة حيوانية، تتجسّد في عدم انضباط خلقي تام. ومن مظاهر عدم الانضباط ذاك، خروج القوم عن كل أعمدة الحياء أو الخجل. وأمّا لوط، وقد ضاق بهم ساعة هروعهم الى منزله، فكان يحاول بكل جهد لديه إظهار دنسهم لهم، في مسيرتهم غير الطبيعية، مع سعي منه لاقناعهم بأن الخروج من موقفهم المتردّي ذاك، يكمن في زواج الرجال من نساء القرية، في ظلّ القانون الشرعي، وأمرهم بتقوى الله عزّ وجلّ، وعدم إحراجه أمام ضيوفه. ولكن هيهات، فمع تجرّدهم من التفكير بسبب سيطرة الغرائز على عقولهم، اصرّوا على انحرافهم بصلف وغرور، مُتنكّرين للزواج الشرعي من النساء، ناظرين للشذوذ الجنسي كحقٍّ لهم، يجب على لوط الاعتراف به بزعمهم. على أن تلك المعاني تتمثل في الآيات القرآنية التالية:

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود].

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنهم بوقفتهم المُخجلة تلك، قد أرادوا فرضَ إرادتهم في إحداث تغيير في سنن الحياة، التي لا يمكن حدوث تغيير ولا تبديل فيها، لأن مسيرة الحياة هي في اتباع الأخلاق، وبناء العائلة، والتناسل، والعمل المجدي، الذي يشترك فيه الرجال والنساء معاً. ونلفت هنا، الى ان نظرة تحدّي رجال مجتمع لوط، للدين والقيم، تتشابه مع نظرات مماثلة لفئات، بين الرجال، تدعو للشذوذ الجنسي في عالمنا الحاضر، في بعض الأقطار، التي تُتيح قوانينها الإباحية. وهكذا يلتقي الأمس باليوم، بنفوس يجمعها الشر القائم على إفساد شيطاني، وكأنّ المجموعة المفسدة بعصرنا، المُشابهة بتصرفاتها وتطلعاتها ومطالبها، لجماعة قوم لوط، لم تسمع بما جرى للمفسدين من قوم لوط، أو إنْ هي سَمِعت أو قرأت، فلم تعتبر بهذا. وانّ ما جرى لقوم لوط هو التدمير بالقضاء الإلهي، الذي لا مردّ له، كما ورد في قوله العزيز:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

إنّ قوله العزيز، يُبيّن مرة أخرى، أن نهاية الظلم هي التدمير لأهله بكوارث طبيعية متتالية، تؤكد الوجود الإلهي، والهيمنة الإلهية على الكون، في كل زمان ومكان. وفي الوقت نفسه، فإنّ قوله الكريم يؤكِد أنّ الظلم يتكرر على الساحة الأرضية. وبعد محق ظلم قوم لوط، سارت العجلة التاريخية الى الأمام، ومع سيرها، وصولاً لنقطة مُعيّنة، عاد الظلم للانتشار في قوم مدين، الذين أرسل الله تعالى إليهم شعيباً، عليه السلام للإصلاح لكن من دون جدوى، في حلقة تاريخية خامسة، كما سوف نشرح بالآتي:

٥ ـ ظُلم مَدْيَنَ، وتحدِّيهم لرسالة شعيب السماوية

بالنسبة لظلم مدين، فقد اتّخذ طابعاً اجتماعياً، ولكن من زاوية أخرى، ألا وهي زاوية عدم الإيفاء بالكيل والميزان. وتلك مشكلة، تُصيبُ المجتمعات عادة، حين تستأثر المادّية بالنفوس، ويتوجَّه الاهتمام نحو الدنيا، دون اعتبارٍ للروح. وممّا لا شكّ فيه ان استحواذ المادّيّة على نفس أيّ شخص، يولِّدُ لديه الطمع الذي يتطوّر الى جشع. بمعنى أنّ حبّ المال يتولّد لدى ذلك الشخص، ويتفاقم لدرجة الاستحواذ على عقله وعلى وجدانه، فيصبح همّه، أو الشغل الشاغل له تجميع المال وعَدّهِ. وهذا هو الجشع. وبما أنّ الجشع لا يتوافق مع مبادئ الدين، الداعية الى القناعة، فالجشع يجرّ صاحبه غالباً نحو عدم الاكتراث لأسلوب جمع المال، حتى ولو خرج عن شرائع الروح في الأمانة والصدق. أما والأمر كذلك، فَيُتوقَّع من الانسان الجشع ان يتعدى على حقوق الآخرين، خفيةً، من طريق الاختلاس، فالسرقة العلنية. فالاختلاس يُولِدُ عدم الشعور بالحرَج، والحرَج يُفقِد الخجل، وعدم الخجل يدفعُ صاحبه لفعل أي شيء، دون أي وازع ضمير. فإنْ أبقينا تلك المعلومات في ذهننا، وعُدْنا لمدين، قوم شعيب، نفهمُ ممّا ورَدَ عنهم قرآنياً، أنهم يُشكّلون نموذجاً لقوم، سيطر الجشع على غالبيتهم، فباتوا يأكل بعضهم بعضهم الآخر، خِلسة أو علانية. وطبعاً، حين تتدهور الأحوال الاجتماعية في مكان بهذا الشكل. فلا بد أن تكون أكثر الفئات تضرّراً هي الفئات المُستضعفة. ففي تلك الأحوال، يزدادُ الأغنياء مالاً، مقابل ازدياد الفقر في صفوف المستضعفين. وذاك

ظلم، يؤدّي إلى حدوث تصدّع اجتماعي، وهذا ما حصل بالضبط في مجتمع مدين. فأرسل الله تعالى شعيباً، للقوم لهدايتهم نحو طريق الأمانة في المعاملات، واضعاً لهم السُّبُل لإصلاح نفوسهم، روحياً وأخلاقياً، مُبيِّناً لهم سوء عاقبة التلاعب في المكيال والميزان، وإنقاص حقوق الفئات المتضرِّرة من الناس، مُنذِراً، ومحذِّراً:

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦)﴾ [هود].

ولكن كيف كان ردّ فعل العابثين من قوم شعيب على رسالته السماوية التي تدعو الى الأمانة المرتبطة بالإيمان الخالص لوجه الله تعالى وحده لا شريك له، والخوف من يوم الحساب؟ كان ردّ فعلهم الصدود التّام، والسخرية من شعيب، واتهامه بنهيهم عن شيء يريده هو لنفسه، ثمّ تحذيره بالقتل رمياً بالأحجار لولا رهطه، فشعيب بقولهم ضعيف في ذاته، ليس له لديهم مكانة ولا احترام. بردّهم ذاك، فمن الواضح أنّ جشع القوم، وإفسادهم، غطّيا أبصارهم، فلم يدركوا أو يستوعبوا نبوّة شعيب. ولذا تحدثوا في اطارٍ دنيوي، إطار التوقّف عن رجمه حتى الموت، إتقاءً لرهطه، غير مدركين ان الحماية له سماوية. وهو، وإنْ رعاه الله عزّ وجلّ، فلن يتركهم، عزّ شأنه، في غيِّهم، وظلمهم، وإفسادهم، بل سيُخزيهم بعذابه جزاءً لإصرارهم على التلاعب بالكيل والميزان، والتحدّي للرسالة السماويّة والسخرية منها وبشعيبٍ معاً. وفعلاً، جاء أمر الله تعالى، ودُمِّر الظالمون تدميراً، كما ورَدَ في قوله العزيز:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود].

وهكذا تمَّ القضاءُ على دورة خامسة من الظلم البشري بالأمر الإلهي، الذي لا مردّ له، وأُخِذَ الظالمون بخوفِ الصيحة ورعبها، فباتوا جاثمين في ديارهم، دونَ أن ينفعهم مالهم الذي جمعوه أبداً. فمالهم لم يحْمِهِم من هلع الصيحة، كما أنه لم يحمهم من الموت كخاتمة لحياتهم؛ كما أن المال لم يُعطِهم الحماية من الخزي الدينوي والأخروي، فاسم مَدين، كاسم ثمود، بقي مرتبطاً بالخذلان للتطاول على الحدود الإلهيّة. واسم القومين الظالمين بقي في مجال الدروس والعبر. وهكذا انتهت دورة أخرى من الظلم في التاريخ البشري في عهوده الأولى.

٦ ـ الظلم الجماعي بكل نماذجه قبل عصر فرعون (ملخّص)

يجدر بنا القول إنّ القرآن الكريم زوّد القارئ بخمسة نماذج عن الظلم الجَماعي قبل عصر فرعون، الذي وُلِد موسى في أثنائه. هذا، وبما أنّ القرآن أزليّ، فأفكاره أزليّة. فذاك يعني أنّ الأصناف المذكورة عن الظلم في حياة الأقوام، هي نفسها الأصناف التي تتكرّر على الساحة البشرية أثناء التاريخ برمَّته. وتكراراً، لما وردَ عن تلك الأصناف بإيجاز، فهي:

أ) الظلم الناتج عن وضع طبقةٍ نفسها فوق الآخرين، انطلاقاً من اعتقادها بالتفوُّق على غيرها بالتفكير، بل والسماح لنفسها بالتحكّم بمصائر الآخرين، متوهمّة أنّ تفكيرها يتّسم بالتميز، إضافة إلى المال والمكانة، ومن ثم الاستئثار بالمغانم لنفسها، وتلك سمات مستكبري قوم نوح.

ب) الظلم المرتبط بالاستئثار بالموارد الداخلية والخارجية من قبل طبقة دأبها الترف، ومنهجها الرفاهية، من حيث المبالغة في المصروفات العمرانية من جهة، ثم العنصرية التي يبثّها المستغلّون هؤلاء بين القوم، ليقفَ الكل باستعلائية على مَن حولهم بالخارج. بمعنى أن الظلم ذاك يقع في إطارين: إطار داخلي طبقي، بانقساماته، ثم إطار تزول فيه تلك الانقسامات ظاهرياً لإبداء الاستعلاء على الغير بحكم العنصرية المنتشرة بين القوم ككل. وذاك هو الظلم الذي استشرى في قبيلة «عاد» بصنفيه.

ج) الظلم المرتبط بشدّة التكذيب للدّين، والتطاول عليه وعلى القيم الواردة

فيه، وعلى كل شرائعه التي تنظّم المجتمع، بقصد الإبقاء على فوضوية رهيبة تُحِلّ أصحابها من التمسّك بالأخلاق، ومراعاة حقوق الغير؛ فوضوية تهدف لمحق العدل محقاً، وقلب كل موازين الحق قلباً. وذاك هو الظلم الذي ساد في مجتمع «ثمود».

د) ظلم قوم لوط المنبثق من عدم اتّباع المسار الطبيعي في صدد التكوين العائلي، والتناسل المتطلّب لمسيرة موكب الحياة بأجيالها المتتابعة، بل ومحاربة ذلك المسار بصلف وغرور، مُصطحبَين بتطاول على الرسالات السماوية وأحكامها وقوانينها الأخلاقية والتنظيمية.

هـ) ظلم مَدين الآتي من مُنطلق الإفراط في حبّ الدنيا وماديّاتها وزخرفها، ومن ثم، التوجه نحو جمع المال بأي وسيلة لإرضاء الأهواء والشهوات، دون اعتبار للدّين أو للقيم، ودون مُراعاة لحقوق المستضعفين.

والآن لو وضعنا كل تلك الأصناف في بوتقة واحدة، لرأينا أنها كلها تُخلّفُ فئاتٍ من المستضعفين وراءها. وذلك يُسبّب تصدّعات اجتماعية بأصنافها وأشكالها المُبيّنة سابقاً؛ وطبعاً، حيثما افتُقِدت الوحدة الاجتماعية، ووُجِد التصدّع، بات الانحطاط الاجتماعي أمراً محتوماً. ومن هنا، جاءت الرسالات السماويّة لتلك المجتمعات كلّها لأهداف إصلاحية. وكما ورَدَ في كتابنا «أحسن القصص»، فقد كان مجيء النبيّ لكل قوم، يهدف لتعليمهم «بأن طريقتهم في الحياة فاسدة وأنّ هنالك طريقة صحيحة يتوجب عليهم أن يتّبعوها بكل صدق وأمانة. وذلك من أجل إقرار الحق، ومحق الظلم ونيل السعادة المرجوّة على نطاق فردي وجماعي معاً. .»[٣]. هذا، وقد كان النبي المرسل لكل قوم يتّبع ثلاث مراحل في الاصلاح: «في المرحلة الأولى، كان النبي يدعو لضرورة الالتزام بالوحدانية حتى يُدرك الانسان مكانته كمخلوق تابع لواجب الوجود، فلا يطغى ولا يعلو في

---

(٣) زاهية راغب الدجاني، **أحسن القصص** (بيروت: دار التقريب بين المذاهب الاسلامية، ١٩٩٥)، ص ٩.

الأرض بغير حق ولا يفسد. ومن هذه الخطوة، كان ينتقل في مرحلة ثانية للكشف عن الأخطاء التي أدّتْ الى حدوث الصدع في المجتمع المعني بالأمر، ومن ثم، يمضي، في مرحلة ثالثة، الى التقدّم بالأحكام والقوانين المناسبة للاصلاح...»[(٤)]. وتلك باختصار الدعوة للالتزام بالتوحيد والعدل، والمساواة[(٥)]. ثم الإدراك بأن الحياة الدنيا تُشكِل مرحلة مؤقتة في حياة الانسان، مرحلة الأعمال، التي تليها مرحلة الحساب، بموجب تلك الأعمال في الآخرة. تلك هي الخطوط العريضة لإصلاح أي مجتمع عانى أو يعاني تصدُّعاً على مرّ التاريخ البشري برمّته. فأسباب التصدّع تبقى في حلقات من التكرار، كما ذكرنا سابقاً، بسبب وجود الشر في الحياة، وتذهب بتغلّب مقوّمات الخير على الشرّ في بوتقة روحية أخلاقية.

٧ ـ دورة فرعون في الظلم

ولكن لو عُدنا مرة أخرى الى التركيز على زاوية جديدة من زوايا الظلم، التي تبعثُ أو تلَتْ أول خمس حلقات، ذكرناها آنفاً، فتلكَ تجسّدت في عصر فرعون،

---

(٤) المصدر نفسه، ص ٦.

(٥) بالنسبة للاسلام فأهم مبادئه هو «التوحيد». والتوحيد يعني عبادة الله تعالى وحده خالق الكون، المدبر لشؤونه، المنظم لأموره، المهيمن على كل مجرياته. وقد ورد في قوله الكريم:
﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون] أي كما يقول الشنقيطي «وأعظم الكافرين هو مَن يدعو مع الله إلهاً آخر، لا برهان له به؛ ونفي الفلاح عنه يدل على هلاكه وأنه من أهل النار. وقد حذّر الله من دعاء إله معه في آيات كثيرة». راجع محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن الكريم**، جزء ٥ (بيروت: عالم الكتب، لا.ت). ص ٨٣٢.
وفي هذا الإطار، نرى ان الانسان مخلوق تابع لواجب الوجود أي الله تعالى. وعليه فهو بحاجة دائمة لاستلهام العون منه عزّ وجلّ لأداء مسؤولياته في الحياة، على أكمل وجه ممكن. وطبعاً في أداء الانسان لمسؤولياته يجب أن يُتمَّها في بوتقة من العدل. والعدل هو القيام بواجباته مع الحفاظ على حقوق الآخرين، حتى لا يحدث إجحافاً بحقّهم. والعدل مبدأ قرآني مهم، طالما تحدثتْ الكتابات المختصة بالفكر الاسلامي السياسي والاجتماعي والاخلاقي، خلال التاريخ، عنه. والعدل هو دعامة رئيسية في الاستقرار والأمن الاجتماعي، والتقدم الحضاري. هذا، وبالنسبة للنظرة الإسلامية في العدل والمساواة، راجع: **Zahia Ragheb Dajani, Egypt and the Crisis of Islam (NewYork: Peter Lang, 1990).**
ص ص ١٠٩ ـ ١١٤؛ ١٢٢ ـ ١٢٣؛ ١٤٩ ـ ١٥٠.

قُبيل مولدِ موسى، كما نستشفُ من القرآن الكريم[٦]. والظلم هنا، كسابقه، مرتبط بالاستكبار، ولكن مع ظواهر جديدة، تستدعي الانتقال من التركيز على القبيلة الواحدة، للتركيز على الدولة، برئيسها فرعون، وحكومتها، ونظام حكمها الذي يقع في الإطار الدكتاتوري[٧]. يدار الحكم من قبل فرعون، والفئة التي اختارها لمساعدته في تدبير شؤون البلاد. وتلك فئة مُوالية له تماماً، تُنفّذ إجمالاً كل ما يُمليه عليها من قوانين وأحكام، دون أية مناقشة. وفي الجهاز أيضاً رئيس للجيش يعمل من أجل تدعيم سلطة فرعون، وادعائه التأليه، بالرغم مما يتضمّنه ذلك من ظلم عظيم. فالتّأليه لأي حاكم، كقاعدة، يعني خضوع السلطتين التشريعية والتنفيذية له، ومن ثم، وضع نفسه في مكانة استعلائية لا تجوز له كبشر، لأن الهيمنة على الخلق، لله تعالى وحده، علماً أن الله يُصرِّف شؤون العباد بعدلٍ مُطلق[٨]. أمّا الانسان الذي يؤلّه نفسه، فيتصرف عادة في بوتقة أهوائه ومصالحه، ومنافعه.. وحين تجتمع مسألة المصالح تلك مع سلطة بلا حدود، ينبع الظلم ويتفجّر. تلك كانت مشكلة العصر الفرعوني.. فرعون يعمل كل ما يريد تحت ستار التأليه. ويضربُ بيدٍ من حديد، على كل مَن يَعرِفُ أن الألوهية لله تعالى

---

(٦) بصدد التعريف بفرعون، يقول الاستاذ وهبة الزحيلي: «وفرعون ملك مصر في زمن موسى، ووزيره هامان. وكان موسى قد جاءهم من عند ربه بالحجج الواضحات الدالة على صدق رسالته فاستكبروا في الأرض، وأبوا تصديقه والإيمان به، وكذبوه وكفروا بالله تعالى، وبرسوله، فكانوا خاطئين آثمين عالين مفسدين. وهبة الزحيلي، **التفسير المتميز في العقيدة والشريعة والمنهج**، جزء ٢٠ (بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩١)، ص ٢٣٩.

(٧) وفي إشارة جانبية يجدر الذكر أنه في خطبة للإمام علي بن أبي طالب، يعرض ثلاثة أنواع من الظلم «.. (ظلم) لا يُغْفَر، وظلم لا يُتْرَك، وظلم مغفور لا يُطْلَب. فأمّا الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله.. وأمّا الظلم الذي يغفر، فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات. وأمّا الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص هناك شديد» راجع الشريف الرضي، **نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبده**، جزء ١ (بيروت: المكتبة الأهلية، لات). ص ٩٥. وتجدر الإشارة هنا إلى أن فرعون ظلم العباد بحكمه، وخصوصاً بني اسرائيل منهم، كما سوف نشرح في ما بعد.

(٨) بالنسبة لموضوع العدل الإلهي المطلق، فقد أورد الشهرستاني الآتي: «وأمّا العدل... (فهو)... أنّ الله تعالى عدل في أفعاله، بمعنى أنه متصرف في ملكه... يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. فالعدل وضع الشيء موضعه، وهو التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم... فلا يُتصوّر منه جور في الحكم وظلم في التصرف...». أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، **الملل والنحل**، جزء ١ (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٩٦٨)، ص ٤٢.

وحده، لا شريك له، وأنه لا يجوز لبشرٍ الادعاء بالتأليه. هذا، وبما أنّ بني اسرائيل كانوا هم الرافضين لتأليه فرعون لنفسه، فقد وجه فرعون همّه نحو البطش بهم، بأساليب عدة، حتى لا يؤثّروا على الآخرين، من حيث حثّهم على رفض مسألة تأليه فرعون.

وبهذا، أذلّهم، واستعبدهم، وحرمهم من كرامة العيش، كما سوف نشرح فيما بعد. على أنّ ذلك بدوره تسبّبَ في إحداث تصدّعٍ في مجتمع دولة فرعون، ممّا دعا الى وجوب حصول إصلاح هناك، فأرسل اللّه تعالى، موسى عليه السلام، ليقومَ بذلكَ الدور الشاق، وتظهر صعوبةُ دور موسى بجلاء في السور القرآنية، التي تربط الرسول محمد صلوات الله عليه، بموسى، من زاوية طمأنة الرسول الأعظم بظفره على المشركين في خاتمة المطاف. أو بمعنى آخر، فالقرآن يبيّن لمحمد (ﷺ) أن الاستكبار موجود دوماً على الساحة البشرية، ومعه الطغاة. وقد جابه موسى من قبله استكباراً كبيراً من فرعون وجنده تخطّاه بعونهِ عزّ وجل. كما واجه كل الأنبياء من قبل موسى صُدُوداً وصَلَفاً من أقوامهم، ولكنّهم تخطّوا الطغيان، بعون الله عزّ وجلّ. أمّا والأمر كذلك، فالرسول الأعظم، محمد (ﷺ) وقفَ في مجابهة صلف المستكبرين، كما كان الحال مع مَن قبله من أنبياء ورسل، علماً أن دوره هو الأكبر بين أدوار الأنبياء جميعاً، صلوات الله عليهم وسلامه، لأنّه، كخاتم للنَّبيِّين والمرسلين، معنيٌّ بتبليغ رسالة كونيّة شاملة. إن النقطة البارزة هنا، هي ان الكلام في القرآن على استكبار وظلم الأقوام الذين وقفوا ضد الرسالات السماوية، جاء في اطار متسلسل ولكن موحّد بقواعده وأسسه. ومن هنا فقد وردَ ذكر موسى وفرعون، في القرآن الكريم، في ظل خلفية، من المبادئ الأزلية، لتبّين أهمية العبر والدروس المستقاة من التاريخ البشري. وبذلك أعطى القرآن أهمية خاصة للتاريخ بحلقاته الكاملة في سلسلة واحدة. بيدَ أنّه بالنسبة للتوراة، التي خاضت في جزء من قصص الأنبياء، مع إعطاء أهمية خاصة لقصة موسى مع فرعون، فقد قدّمت تلك القصة في قالبٍ غلب عليه طابع السرد، والوصف، في حين غلب الطابع الفكري العميق المدعم بالأدلّة والبراهين، المثير للتأمّل والتفكير، على القصة القرآنية. على أنه من جرّاء تلك الفوارق الأساسية، فالتركيز على

الدروس والعبر أكبر بكثير في القرآن، ممّا هو عليه في التوراة. فالقرآن يضع ظلم فرعون مع ما سبقه سالفاً، كنماذج لأنماطٍ من الظلم، التي دُمرت سماوياً، لتناقض الظلم مع السنن الثابتة للكون، وبهذا الاطار، فإنّ مستضعَفي بني اسرائيل يقفونَ في البوتقة التي وقفَ فيها المستضعفون من قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، الذين أنصفهم الله تعالى، بتدمير الظلم وأهله، كلّ ذلك في وقته المقدَّر، تماماً، كما هزمَ الله تعالى مشركي قريش، ونصر محمداً (ﷺ) وأتباعه عليهم. وتكراراً، فكل ذلك معنيّ بإظهار أنّ سنن الحياة، قائمة على العدل والحق. وأنّه حين يجنح أقوام نحو الظلم، وتُستضعَفُ الاقليات المؤمنة، وتَفقِدُ تلك الأقليات، قدرة الدفاع الصحيح عن نفسها في وجه القوى الطاغية، يتدخّل الله عزّ وجلّ لإنقاذ المستضعفين، ومحق الظالمين من خلال وسائل يُسخّرها لتحقيق هذا الهدف. وهذا بدوره معنيّ بتذكير الانسان، في كل زمان ومكان، بالهيمنة الإلهية على الكون، وتنظيم شؤونه بعلم لا يحدّه شيء، وذلك حتّى يتصرّف الانسان بدافع من معرفته لحدوده وقدراته في ظل اتّباعه للشرائع السماوية. هذا بالنسبة لأهداف القصص القرآنية، بما في ذلك قصة موسى مع فرعون. بيد أنّه فيما يتعلق بالتوراة، فذاك الطابع الشمولي غير موجود إجمالاً. ومن تلك الزاوية، فالقصة تأخذ طابعاً محدوداً، في معظمها، موجَّهاً نحو التركيز على بني اسرائيل، وكأنهم محور ابناء البشر، بمكانة لا مثيل لها. وبذلك التصنيف، يبدو من أحداث القصة التوراتية، أنّ ظلم فرعون لبني اسرائيل شكّل حادثاً فريداً من نوعه. وتجدر الاشارة هنا الى أن القرآن الكريم، يُظهِرُ الظلم كمحنة أيضاً، ولكن يُبيّنُ بالوقت نفسه، أنّ تلك المحنة تشمل دورات، بأنواع، وأصنافٍ من أبناء البشر. ومن هنا، يُنفّرُ من الظلم، سواء أَأُطْلِقَ هذا الظلمُ ضد مستضعفي قوم نوح، أم هود، أم لوط، أم شعيب، أم بني اسرائيل[٩]. أو بمعنى آخر، فالقرآن يُنفِّرُ من الظلم كمبدأ

(٩) وتجدر الاشارة هنا إلى أن كل الأنبياء والرسل كانوا يعانون غطرسة أشراف أقوامهم، وكذلك أتباعهم. فعلى سبيل المثال نعرض لشيءٍ مما وقع لنوح (ع) مع هؤلاء المستكبرين، أورد محمد بيومي مهران الآتي: «فإن نوحاً عليه السلام، لم يرَ من قومه الا آذاناً صماء، وقلوباً غلفاً، وعقولاً متحجرة، لقد كانت نفوسهم أيبس من الصخر، وأفئدتهم أقسى من الحديد، لم ينفعهم نصح أو تذكير، ولم يزجرهم وعيد أو تحذير، وكلّما ازداد لهم نصحاً؛ ازدادوا في طريق الضلال سائرين...». محمد بيومي مهران، **دراسات تاريخية من القرآن الكريم** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٨)، ص ٢١.

عامٌ، في حين أنّ التوراة تُنفِّرُ منه كآفة، سُلِّطتْ من فرعون على بني اسرائيل بالذات، بالرغم من أفضليتهم على الآخرين.

في دراستنا هذه، سوف نركز أولاً على قصة موسى مع فرعون، كما وردَتْ في القرآن الكريم. وبعدها ننتقل الى تقديمها كما وردتْ في التوراة، مع اجراء مقارنة تشمل الاسلوب والمضمون في تقديم تلك القصة في كلٍّ من الكتابين المُقدَّسين، مُتوخِّين الصدق، والأمانة في البحث والمقارنة[١٠]. هذا، وبتناولنا للقرآن الكريم، لا بدّ لنا من الرجوع الى بعض مراجع التفسير من جهة، إضافة الى بعض المراجع المختصة بالفكر، ان اقتضت الضرورة، لتدعيم نقطة أو أخرى. ومن الجدير بالذكر هنا، أن النقاط البارزة في قصة موسى وفرعون القرآنية، تشمل الآتي: ولادة موسى في ظل ظروف صعبة لبني اسرائيل. نشأته وظواهر تمرّدهِ على الأوضاع في شبابه، عدم رضا فرعون وجنده عن ظواهر تمرّد موسى والكيد له. خروج موسى من مصر حرصاً على سلامة حياته من كيد القوم. أحواله وزواجه بعد مغادرة مصر. اتخاذه لقرار العودة الى مصر، والفيض السماوي عليه، وهو في طريقه، بتكليمه، وتكليفه بمجابهة فرعون في خضّم التحديد لموسى لأهم المبادئ المختصة بالواجبات الدينية، ومصير الانسان، مع تأهيله لمجابهة فرعون، بتدعيمه بالقوة من خلال معجزتين، ثم مواجهة موسى لفرعون من خلال حوار متين. ثم المباراة بين موسى وسَحَرِة فرعون، وانسلاخ السَّحرة عن فرعون بالدخول في طاعة الله عزّ وجل؛ فمجريات الأحداث بعد ذلك حتّى خروج موسى بين قومه من مصر، ولحاق فرعون وجنده لهم، وغرقِ فرعون مع آله في اليمّ.

هذا، وبعد تقديم لتلك الأحداث، وتحليلها، يتمّ انتقالنا للتوراة لعرض ما جاء فيها عن القصة، مع اعطاء الحيّز الأكبر للمقارنة. ثم التقدم بالنتائج النهائية للدراسة ككل.

ومن الضروري أن نذكر هنا، بأن الجزء الأكبر من الدراسة يعتمد على الاجتهاد

---

(١٠) بصدد كلمة التوراة، فقد أورد أحمظد أمين الآتي: «وكلمة التوراة يستعملها المسلمون كثيراً للدلالة على أنّها كل الكتب المقدسة عند اليهود، فتشمل الزبور وغيره، كما يستعملها اليهود أنفسهم أحياناً». أحمد أمين، **ضحى الاسلام**، جزء ١ (بيروت: دار الكتاب العربي، لا.ت)، ص ٣٢٨.

الذاتي للمؤلفة كسبيل لتقديم أفكار جديدة، لم يُؤتَ بها سابقاً، في الاجتهادات المختصة بتلك القصة. فكقاعدة فكرية عامة، تنمو المعرفة وتزدهر، باجتهادات كثيرة. تبدأ من قاعدة، وتكبر، ويظل الباب مفتوحاً لنماء أوسع مدًى، مع المسيرة المُطرّدة لعجلة الزمن، أثناء وجود الانسان على الأرض.

ويبقى أن نضيف انه بعد هذه الجولة التي تركزتْ على إعطاء خلفية لموضوع الدراسة، ومقتطفات منه، مع اشارة الى طريقة البحث والمصادر، يجب ان ننتقل الآن للتركيز على أول فصل بمؤلفنا هذا، وعنوانه «ظلام وظلم، ومولد يحملُ رياح التغيير في كنفه». ولكن قبل البدء به نتوجّهُ بالتضرّع الى الله تعالى لكي يوفقنا في سعينا لإرضائه، بما نتوصل اليه من أفكار جديدة، بصدد قصة موسى مع فرعون؛ بكل ما تحمله من دروس وعبر في طيّاتها، على مدى التاريخ.

الباب الأول

القصة القرآنية عن موسى وفرعون
شرح وتحليل

الفصل الأول

ظلام وظلم ومولد يحمل رياح التغيير في كنفه

حتى الآن، لقد بيّنا أنّ الظلم يقعُ في إطار سلسلة بحلقات مُتتابعة، من مُنطلق ارتباط الظلم بالشرّ، في عالم مُكتنفٍ بالخير والشرّ معاً. وطبعاً، بما أنّ الظلم يعني التعدّي على حقوق الضعفاء، أي على انسانيتهم وكرامتهم ووجودهم وكيانهم، وبما أن ذلك يؤدي الى التصدّع الاجتماعي، فالانحدار الحضاري؛ فهذا يعني أنّ الظلم مُقترن بالظلام. وحينما يسود الظلام وينتشر في مجتمع ما، يُسيطر التجمّد الفكري عليه، ويعمّ الركود فيه؛ علماً أن معانيَ الحياة، وقيمها، تختفي بوجود ذلك الركود. وقد لا يشعر الظالمون به، لأن الركود يكون نتيجة لآثار إفسادهم، في حين ان الفئة التي تشعر به، هي الفئة المستضعفة، المؤمنة بمعاني الروح والأخلاق، المدركة تماماً لأهمية الاستنارة الفكرية في التخلّص من التجمّد وآثاره في التخلّف الحضاري. ولكن، ان وقفت تلك الفئة لمناهضة الظالمين، لتغيير الأوضاع، فهي تُجابَهُ غالباً بقسوة، وتيه، وبطش، وطغيان، من هؤلاء الطغاة. وهذا ما حصل لمستضعَفي أقوام: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام. فأرسلَ الله تعالى الأنبياء أولئك، لإنقاذهم من جور أهل الاستكبار والظلم. وهذا ما حصل لبني إسرائيل في مصر أيام حكم فرعون، قُبيل ولادة موسى، وبعدها، وحتى خروج موسى بالقوم من مصر، وغرق فرعون مع جنده في اليمّ. وتكراراً لما ذكرنا في الفصل السابق، فظلم فرعون لبني إسرائيل أتى جوهرياً، نتيجةً لوقوفهم كفريق مناهض لفكرة تأليه فرعون لنفسه، ومحاولة فرضها

بالقمع. وعند تلك النقطة، نرى ضرورة للاستفاضة في موضوع تأليه فرعون، وعواقب ذلك، كما هو مستقىً من قصة فرعون مع موسى.

١ ـ تأليه فرعون لنفسه

قبل الشروع بالحديث عن موضوع تأليه فرعون لنفسه، يجب أن نذكر بأن التأليه تطاولٌ على التوحيد، ولذا، فالعقاب السماوي المفروض على المتألّه كبير، والقرآن الكريم يضع دوماً حدّاً فاصلاً ما بين الألوهية والبشرية. وذلك لتذكير أبناء البشرية بأنهم يخضعون كلهم لله تعالى، العالم بكل صغيرة وكبيرة، المهيمن على الكون وكل ما فيه. وحتى فيما يختص بالأنبياء والرسل، فالتشديد على بشريَّتهم كبير في القرآن الكريم، وذلك لتأكيد الحدّ الفاصل بين الألوهية والنبوة. فالأنبياء بشرٌ مصطفون من الله تعالى بعلم لا يحدّه شيء، وحكمة بالغة. بالنسبة للانسان المؤمن، فهو يُدرِك تلكَ الحقائق، ولذا يتصرّفُ ضمن معرفة حقه، بحدوده وإمكاناته كبشر، فلا يعلو ولا يطغى في الأرض من غير حقّ. أمّا الانسان غير المؤمن، المستكبر، فقد لا يعي تلك الحقائق، أو حتى لو أدركها، لتنكّر لها، لأنه يرى الأشياء في بوتقة من المنافع والمصالح.

ولذا، يوجد اتّجاه لدى المستكبر، المحبّ للسلطة الدنيوية، نحو التأليه، وذلك للإبقاء على مصالحه. فالتأليه يضعه في مركز الأمر والنهي، بلا حدود، ومن خلاله يستطيع تنفيذ أهدافه في السلطة المطلقة، ولكن دون شعور منه، بأن الله تعالى له بالمرصاد. وأنه عزّ وجلّ، إن أمهله، فلن يهمله، وأنه حينما تنتهي فترة الإمْهال، يأخذه أخذ عزيز مقتدر، فيبقى عبرة للعالمين. وذلك ما حصل لفرعون كما ذكرنا سابقاً، بعد أن عاث فساداً وإفساداً في الأرض، بتيهِهِ وغيّهِ وظلمه.

٢ ـ مظاهر تِيهِ فرعون

مِن مظاهر طغيان فرعون، توجهه نحو الاستبداد والبطش ببني اسرائيل، كفئة معارضة لفكرة تأليهه لنفسه، لتمسّكهم بالتوحيد وقتذاك. وطبعاً، فطغيانه عليهم

كان يهدف للقضاء على أي معارضة ضدّه تُخِلّ بمصالحه[1]. فالمعارضة، قد تمتدّ للفئات الأخرى، وإن حصل ذلك، فمعناه التهديد لسلطته. ولذا، اتخذ اجراءات غير انسانية، وتعسّفية بحق بني إسرائيل، تهدف الى الحدّ من تكاثرهم من جهة، وتحويل حياتهم حزناً وألماً من جهة أخرى. فقد أعطى أوامر بقتل الأطفال الذكور منهم أوّلاً، وفضلاً عن أن ذلك الأمر معنيّ بالحدّ من تكاثرهم كما ذكرنا أعلاه، فهو غير انساني، لأنه موجّه نحو قتل نفوسٍ بريئة من غير حق، وتهديم نفسية آباء الأطفال. فالطفل عزيز على أبويه، وقتله بَطْشٌ يُسبّب حزناً لهما، وإن تطوّر، فقد يُعطلها عن العمل. وقد يلجأ الآباء لإيجاد وسائل لإخفاء أطفالهم، ولكن، حتى ان نجحوا، فيبقونَ في حالة خوف من كشف أمرهم، والبطش بأطفالهم وبهم أيضاً، لخروجهم على أوامر فرعون. وعلى أي حال، فالذعر كان يسيطر وقتئذ على عائلات بني اسرائيل، وانعكس على عمر الإنجاب للآباء والأمهات. وذاك يعني حدوث اضطراب، وقلق، بين تلك الفئات. فاذا ما تركنا الأطفال ووالدِيهم في سوء أحوالهم، وانتقلنا الى النساء المسنّات، فقد فرض فرعون عليهن الخدمة في البيوت، إذلالاً لهنّ، وإهداراً لإنسانيتهنّ. فكأنّ فرعون أراد ان يُدمي قلوب بني اسرائيل، حتى يشغلهم، عن التأثير على الآخرين، بصدد معارضة فكرة التأليه، التي فرضها فرضاً في المجتمع الخاضع لحكمه. وقد شاء الله تعالى لموسى، أن يُولد في تلك الظروف العصيبة، ثمّ يكلّفه بوضع حد لطغيان فرعون، بتهيئة وسائل التغيير له. هذا وقبل الانتقال لموضوع مولد موسى، يهمنا أن نذكر أن القرآن ليس كتاباً عن التاريخ، بل هو كتاب وحي شامل، يتحدَّث عن الشرائع التي تُنظِّم حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً، عبادة ومعاملات. والقرآن ينير الطريق للناس لنيل حسن الثواب من خلال أحكامه، وقوانينه، ويحذِّرهم من سوء العاقبة ان لم يلتزموا

---

(١) باختصار، إنّ الحكم الفرعوني، لم يُعْطِ أيّ اعتبار للعدل، في حين أنّ العدل أساس الاستقرار، واستمرارية السلطان. ومن الجدير ذكره هنا قول الحكماء: «مما يجب على.. (الحاكم)... [ان يلتزمه] العدل في ظاهر أفعاله لوقاية أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لاقامة أمر دينه، فإن فسدت السياسة ذهب السلطان. ومدار السياسة كلّها على العدل والإنصاف». أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، **كتاب العقد الفريد**، جزء ١ (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨)، ص ٢٣. وبالنسبة لحكم فرعون، فالظلم قاعدته بكل ما يحمل هذا الكلام من معنىً.

بأحكامه، وقوانينه، وشرائعه تلك. هذا، وإنْ وَرَدَ التاريخُ في القرآن الكريم، ببعض أحداثه، فَيرِدُ في بوتقة أفكار أزليّة، وقيم، تهدف الى إنارة الانسان كفرد، وجماعة، وتوجيهه نحو الاتّعاظ، على أساس انّ القضايا الاجتماعية، تسبب التواءَ في الموازين؛ يتكرّرُ على مرّ التاريخ البشري، بحكم وجودنا في عالم مُكتنفٍ بالخير والشرّ معاً. وبوصولنا لتلك النقطة، فسوف ننتقل للحديث عن مولد موسى، والظروف المحيطة به.

٣ ـ مولد موسى

كما قلنا سابقاً، فقد وُلِد موسى (ع) في ظروف من الطغيان الكبير في مصر بسبب استكبار فرعون، وتأليهه لنفسه. ويتجلى ذلك، في «سورة القصص» التي تبدأ بطمأنة الرسول (ﷺ)، الذي كان يُعاني من استكبار كُفَّار قريش، تماماً كما عانى موسى، بعد ان كبُر، من استكبار فرعون وآله. وعليه، فالسورة تجمع ذهنياً ما بين زمن الرسول محمد (ﷺ)، وزمن موسى عليه السلام، قُبيل ولادته، وبعدها بمراحل. وتبدأ، بتثبيت الوحي وإعطاء خلفية عن طغيان فرعون باختصار، كما يتمثل في النقاط الآتية:

أ) تشتيتُ المجتمع المصري الى فرق وأصنافٍ عديدة، بإجبارهم على طاعته.

ب) إذلال بني اسرائيل بالذات بذبحِ أبنائهم من الذكور، واستحياء نسائهم (كما ذكر سابقا):

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

اذاً، تركِّز السورة على عرض ظُلم استشرى في الساحة الأرضية في زمن فرعون. ومن تلك النقطة، ننتقل للتركيز على الدور الإلهي في تصحيح الأحوال، من خلال، إرساء قواعد الحق والعدل، المتجسّدة في رفع المعاناة عن الفرقة المظلومة وقتئذ (وهي فرقة بني اسرائيل)، وردّ حقوقهم اليهم بتهيئة الأسباب لظفرهم على فرعون، كما جاء في قوله العزيز:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص].

إضافةً لما تقدّم ذكره، فإن ما ورَدَ من آياتٍ في سورة القَصَص وفي القرآن كله، يؤكد أن الله تعالى منزَّهٌ عن الظلم تنزيهاً كُلّيّاً بكماله. وعليه، فالعدل المطلقُ صفة إلهية، وبتلك الصفة المُصطحبة بعلم لا يحدّه شيء، ورحمة على المستضعفين، وإرادة فائقة، وقوة بلا مثيل، فالله تعالى هيّأ أسباب التحويل التاريخي، بأوّل مفاتيحها، الكامنة في ولادة موسى. والسورة تبين الكلمة الإلهية بإحياء موسى، رغماً عن أنف فرعون وآله، كما أتى في قوله العزيز:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص].

إن الايحاء لأم موسى بإرضاع طفلها، إيذانٌ بخلْق ذلك الطفل ليحيا، ويكبر، ويترعرع، ويقوم بمسؤولية كبيرة، بالرعاية الإلهية. كما ان تهيئة الأسباب السماوية لرعاية ذلك الطفل من الأخطار، لدلالةٌ على عظم شأنه روحياً منذ ولادته. هذا، والحماية السماوية للطفل تظهر في الإيحاء لأم موسى، أنه في حالة شعورها بخطر مُحيطٍ بطفلها، فعليها وضعه في صندوق، ثم إلقاء الصندوق في النهر، نهر النيل بشجاعة، وثبات وجدانيّ. فالله تعالى سوف يردّه سالماً إليها ويجعله في وقت ما رسولاً، يُرسَل إلى فرعون، لكي يقوم بإنقاذ بني إسرائيل من نير ذلك الطاغية، بالقضاء الإلهيّ الذي لا يُردّ.

إذاً، فإنقاذ القوم أمر مُدبّر من السماء، وذاك يُظهرُ تكراراً، أنه عند حدوث التواء في الموازين الأرضية بفعل الطغاة، ويعجزُ المستضعفون عن مجابهة الظلم، وهم في أشدّ حالات المعاناة، يُهَيِّئُ الله تعالى الأسباب الكفيلة بتصحيح الأوضاع تدريجاً. فالله عزّ وجلّ، هو الذي خلق موسى، وهو، عزّ شأنه، الذي أوحى لأمّهِ بالتدابير الكفيلة بإرجاعه سالماً إليها، بل وجعلهِ مِن المرسلين. هذا، وبالخطة

الإلهية التامة في الحكمة، فإن آل فرعون، هم الملتقطون لصندوق الطفل، كما أتى في قوله الكريم:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص].

إن تلك الآليّة تُبيّن الارادة الإلهية في التحطيم النفسي للطُّغاة، بالتنبيه على زاوية ظلمهم، لضربهم منها. فالله تعالى حَبَّبَ الطفل في نفس امرأة فرعون، فطلبتْ عدم الفتك به، من خلال التطلّع للاستنفاع منه، وقت الحاجة، كالكبر مثلاً. بل ولشدّة عطفها على الطفل، اقترحت تبنّيه كولد تقرّ عينها به. وحصل هذا دون شعور من آل فرعون، بأن ذلك الطفل الذي أنشأوه في بيتهم، لتقرّ به عيونهم، هو نفسه الذي اختاره الله تعالى، لكي يجابههم، ويُحيل سعادتهم القائمة على ظلم بني إسرائيل الى همٍّ وغمٍّ، جزاءً لما قدّمتهُ أيديهم. هذا، وبصدد طلب امرأة فرعون من زوجها الإبقاء على حياة موسى، فقد جاء قوله العزيز:

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص].

يؤكد السياق القرآني هنا، أنّ العلم الغيبي كلّه عند الله عزّ وجل، المحرّك لجميع الأمور، الذي لا يُعجزه شيء في السماء والأرض. ظنّ فرعون كطاغية، أنه تَحكَّمَ بالنتيجة بالأمور لصالحه، وهو يدّعي الألوهية في نفسه إفكاً، ولكنّ الله تعالى، يُبيِّن أنّ ما ظنّه تحكُّماً، فهو وَهْمٌ وسراب، يُكشف له، وللناس بزمانه، وبكل زمان ومكان، بالتخطيط الإلهي. وهو يتمثّل بقلب الأمور ضده تدريجاً، ابتداء من نقطة لم تكن لتخطر قط على باله، وهي تربيته لموسى في قصره، بحيث يُفسح في المجال لموسى للتعرف جيّداً عليه من قرب. هذا مع العلم، بأن التعرفَ هذا، يُزوِّد موسى بمواجهته في الإطار الصحيح في ظل الرعاية الإلهية. فالمواجهة، بحدود العلم الدقيق والمعرفة بالشخص المواجَه، أحكم من المواجهة في الأحوال العادية. ومن هنا، كانت الحكمة الإلهيّة العظيمة في محبّة امرأة فرعون للطفل، وطلبها تربيته كولدٍ لها في بيتها. ولكن تلك هي مجريات الأحداث على

ساحة فرعون بصدد موضوع صندوق موسى، وتربيته، بَيْدَ أنّه بالنسبة لما يختصّ بأمّ موسى، فماذا جرى؟ هذا ما تُظهره الآيات التالية في الجزء الآتي من الفصل.

٤ ـ الوقائع الجارية بعد التوصل لقرار تربية موسى في قصر فرعون

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص].

أما أمّ موسى فقد استحوذتْ عليها تماماً مسألة رمي ابنها في النهر، وملأت وجدانها[٢]، وتجدر الاشارة هنا الى أنه، بامتلاء الوجدان في مسألة مثل تلك التي سيطرت على قلب أم موسى، فمن الطبيعي ان تُصبحَ الشغل الشاغل للعقل. ومتى يحصل ذلك، يصبح الشخص المعنيّ بالأمر في خطر من التفوّه بالسر، نتيجةً لاستعصاء الكلمات من شدة التعلق بما حدث. وقد كادَ ذلك أن يحصل لأم موسى، لولا التثبيت السماويّ لها في قلبها، لتُصدّق بوعد الله، عزّ وجلّ، بإرجاع موسى لها، بعد بلاء وصبر. والتثبيت الوجداني، كقاعدة، ينير العقل. والانارة العقلية تفتح السبل امام الشخص المعني بالأمر، للتصرف في الاطار الفعال الذي

---

(٢) بخصوص الآية ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا﴾ [القصص/ ١٠] التي شرحناها اجتهاداً منا، فقد فسَّرَها الماوردي بما يأتي: «فارغاً من كلّ شيء إلا مَن ذِكرِ موسى.. فارغاً من وَحْينا بنسيانه.. فارغاً من الحزن لعلمها أنه لم يغرق...». ابوالحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، **النكت والعيون: تفسير الماوردي**، جزء ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢)، ص ٢٣٨. أمّا القاسمي فيقول تفسيراً للآية الكريمة: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا﴾ [القصص/ ١٠] أي خالياً من العقل لما دهمها من فرط الجزع، وأطار عقلها من الدهشة، لما بلغها وقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ (إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) [القصص] أي بأمر قصته... لولا أنْ ألهمناها الصبر... قال الزمخشري: ويجوز إذ أصبح فؤادها فارغاً من الهمّ، حين سمعت بأن فرعون عطف عليه، وثناه. وان كانت لتبدي بأنه ولدها، لأنّها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت، لولا أنّا طمنّا قلبها.. لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله». محمد جمال الدين القاسمي، **مجالس التأويل**، جزء ٨ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨)، ص ٩٨.

يحقّق الأمر المتطلّع إليه. وهذا ما تمَّ لأُمّ موسى، التي سعت لاسترداد ابنها، من طريق إرضاعه. قالت لأخته: «اتبعي أثره حتى تعلمي خبره.. فأبصرته على بُعد وهم لا يشعرون انها أخته، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصَلَ الصندوق الى بيت فرعون، وهي ترقبه مستخفية عنهم»[٣]. هذا، وبما أن وجودها تزامَنَ، بتدبير سماوي، مع المنع الإلهيّ لموسى لقبول الرضاعة من أيٍّ من المرضعات اللاّتي أُحضرنَ له، فقد واتتها (أي أخت موسى) الفرصة للتقدّم بالآتي كما ورد في التنزيل: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص] وتعني هنا أم موسى، القادرة على رعايته، في أحسن وجه ممكن، لكونه ابنها ـ الذي أوحى الله تعالى لها ـ بالإفاضة المستقبلية عليه بشأنٍ ومنزلة عظيمة[٤]. وقد وافق آل فرعون على طلب أخت فرعون، فرُدَّ الطفل الى والدته. وذلك حتى تشعر بالاطمئنان عليه، وهي تُرضِعه وترعاه كما تريد. فتذهبَ مخاوِفُ بُعْدهِ عنها. ثم تتأكّد من مصداقية الوعد الإلهيّ لها، بإرجاع ابنها لها، وحمايته من أيّ شرّ قد ينبثق من فرعون تجاهه لسبب أو لآخر.

وبوصولنا الى تلك النقطة، يجدر بنا القول إنّه في خضمّ التقديم القرآني لقصة الايحاء الإلهي لأم موسى بوضعه في الصندوق وقذفه إلى النهر، وطمأنتها وجدانياً، حتّى تحقّق إرجاع طفلها لها بوعده، عزّ وجل، الأكيد؛ فالسياق القرآني يحملُ في طياته المبادئ الأزلية الآتية:

أ) في أحوال استحواذ الحزن الشديد على الانسان، يحتاجُ للتعبير عن حزنه إلى ذكر السبب أو التلميح عنه. ولكن حين لا يقع ذلك، فلا مجال للكتمان إلاّ بالربط الإلهي على فؤاد الانسان المعنيّ بالأمر. والربط يعني تزويده بقوة معنوية هائلة

---

(٣) الصابوني، المصدر السابق، ص ٤٢٦.

(٤) وتجدر الاشارة هنا الى ان الايحاء لأم موسى يتبع جانب الإلهام، وبالنظرية الاسلامية، فالإلهام هو ثاني نوع في المعرفة، يسبقه الوحي، ثم يأتي العقل بعد الإلهام. وفيما يختصّ بالعقل، يعتبره الإمام أبو حامد الغزالي كأساس في العلم. راجع ابو حامد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، جزء ١ (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، لا.ت.)، ص ١١٥. هذا ولمعلومات عن شرف العلم والعقل، راجع الغزالي أيضاً، **ميزان العمل** (القاهرة: دار المعارف، لا.ت.)، ص ٣٣١ ـ ٣٤١.

للصبر، علماً أن الصبر هو أساس الانضباط، لإبقاء ما يجب إبقاؤه في حيّز الكتمان، وهذا مَبعثٌ للشّكر، وللإيمان الصادق بالقدرة الإلهية على تفريج همّ المكروب، وإعادة حقوقه له، بعد صمود وصبر.

ب) ان الثبات الوجداني يُشكّل عربة للتفكير القويم، الذي يؤتي بالثمار الصحيحة في ظل الرعاية الإلهية.

جـ) التحكّم الإلهيّ بكل أمر، صغير أو كبير، عن علم لا محدود؛ وتهيئة الأسباب الكفيلة بإخراج المظلومين من محنهم، في وقت عدم شعور الظالمين بما يحصل، علماً أن ذلك يجرّ الظالمين للخسران تدريجاً.

د) إعطاء أهمية خاصة للأمّ المُحبّة لطفلها، لما تكابده من آلام، ولما تُعانيه، من خوف وقلق على ابنها.

هـ) التأكيد أن سنن الحياة قائمة على الحق والعدل، وأن الله تعالى يُبطل الباطل بإرادته، في الوقت الذي يقضيه، بحكمة بالغة.

و) إنّ إدراك تلك الحقيقة يؤدّي الى طمأنة النفوس المظلومة، وتثبيتها بالصبر، لإخراجها من غُلبها، بعد عملٍ دؤوب، في ظلّ الرعاية الإلهيّة. وبالنسبة لموسى، فقد أفاض الله تعالى عليه بالحماية اللازمة له، حتى بلغ أَشُدَّهُ، فماذا حصلَ بعد ذلك؟ هذا ما سوف نشرحه في الفصل الثاني من هذه الدراسة، بعنوان: «خروج موسى للمجتمع والكيْد له».

الفصل الثاني

خروج موسى للمجتمع والكيْد له

بوصول موسى إلى سنّ الرشد، سنّ «نهاية القوة، وتمام العقلِ والاعتدال [وهبه الله تعالى] الفهمَ والعلم والتفقه في الدين...»[1] وذلك يقع في سياق التكريم الإلهي للمحسنين، كما وَرَدَ في قوله العزيز:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص].

وهكذا باتَ موسى مستقلاً بنفسه، إذْ إنّ أدوات الاستقلال هي القوة في التفكير وفي العلم والمعرفة، والتبحُّر في الدين، والمعاني، في الحدود البشرية طبعاً. فقد خرج موسى إلى المجتمع الكبير، ليكونَ جزءاً منه، بمخالطته للناس، ومعرفته لهمومهم، وهو واحدٌ منهم، حتّى يتمكّن من مساعدتهم في حدود إمكاناته كبشر. ولكنّ البشر، كقاعدة، يخطئون ويصيبون بحكم طبيعتهم، لأن الكمالَ لله تعالى وحده، لا شريك له. والخطأ البشري قد ينشأ أحياناً عن انفعال نفسيّ، أو عن كبت، أو عن عدم تريّث في الحكم على مسألة أو أخرى.

١ ـ أوّل تجربة قاسية في حياة موسى

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص].

إن تلك الآية الكريمة تحمل في طياتها مشهداً متّسماً بنوع من السكون في بَدْئِهِ، فالحركة في وسطه بأحداث كبيرة، فالسكون في آخره، وما حدث غير

---

(١) الصابوني، **المصدر السابق**، ص ٤٢٧.

مقصود من جانب موسى: فقد دخل موسى المدينة «وقت الظهيرة والناس يخلدون للراحة عند القيلولة»[٢]. ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص/١٥]، على أنه وسط خلود الناس للراحة، علتْ أصوات منبعثة من رجلين، أحدهما قبطي، والآخر إسرائيلي. ووصل موسى، وإذْ بالإسرائيلي يستغيثُ به لنصرته على القبطي، فيقوم موسى بضربه بقوّة، فأدّتْ الضربة تلك الى قتل القبطي. وقالَ القرطبيّ في شرحٍ للموقف: «فعلَ موسى ذلك وهو لا يريد قتله، إنّما قصد دفعه فكانت فيه نفسه، وكانت القاضية»[٣].

هذا، وما ان انتبه موسى لما حَصَل حتّى أبدى ندماً بالقول، كما ورد في التنزيل: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص] «أيّ هذا من إغواء الشيطان فهو الذي هيجَ غَضبي حتى ضربتُ هذا ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص]، أي إن الشيطان عدوٌ لابن آدم، مُضلٌ له عن سبيل الرشاد، ظاهر العداوة. قال الصاوي: نسبه الى الشيطان من حيث أنه لم يؤمر بقتل القبطي، وظهر له أنّ قتله يؤدي إلى الفتن، والشيطان تفرحه الفتن ولذلك ندم على فعله»[٤]. وبناء على فعلة موسى تلك وندمه، استغاث بالله تعالى، طالباً الغفران:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص].

وشرح الآية، هو: «إني ظلمتُ نفسي بقتل النفس فاغْفُ عنّي ولا تؤاخذني بخطيئتي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص] أي إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد، الواسع الرحمة لهم ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص] أي بسبب انعامِكَ عليَّ بالقوة وبحقِّ ما أكرمتني به من الجاه والعزّ، فلن أكون عَوناً لأحدٍ من المجرمين... قال الرازي: وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة»[٥].

---

(٢) المصدر السابق، ص ٤٢٧.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٢٧.
(٤) المصدر السابق، ص ٤٢٧.
(٥) المصدر السابق، ص ٤٢٧.

هذا ما وَرَدَ بصدد شرح الآيات ١٥، ١٦، ١٧، من سورة القصص، ومن تعجُّل موسى في التصرّف، والدلالة أن موسى أدركَ ذلك بنفسه بقوله كما ورد في التنزيل: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص]. وتجدر الاشارة هنا إلى أنه فيما يحثّ الله تعالى أبناء البشر دوماً على التروّي من خلال دعوته إيّاهم للتأمل والتدبّر والتمحيص في أيّ نبأ، قبل أخذ أيّ إجراء، فالشيطان يحثّهم على التعجّل. فالتدبّر بالأمور، يُعطي لهم الفرصة للتحقّق منها. حتّى يبنى أي إجراء يتّخذونه على العدالة، في حين أن التعجّل بالحكم، يؤدّي عادةً إلى الخطأ، والخطأ الى الندم. وضمن هذا الاطار، يُفهمُ أنّ قتل القبطي ـ ولو جاء عن غير قصد ـ أتى عن انفعال نفسيّ شديد، استحوذ فجأة عليه، فدفعَ به نحو العجلة في وكْزِ القبطي بقوة، وحصول ما حصل. على أن إقرار موسى بأنّ ما حصل من عمل الشيطان، لدلالةٌ على اكتشافه، انه ارتكب خطأ بسبب إغواء الشيطان له، بإثارة غضبه على الرجل القبطي. فوكزه، حتّى من دون أن يَعرِفَ اذا ما كان الإسرائيليّ صادقاً في استغاثته، أو كان رجلاً عُدوانياً شرّيراً. صحيح، أنّ بني اسرائيل كانوا فئة مقهورة، في الإطار العام، زمن فرعون، ولكن حتى مع ذلك، فقد تبرزُ جماعة انتهازيّة، تسعى للفتن واثارة الشغب من أجل تحقيق أهدافها. وفي سبيل ذلك، قد تَفتعِلُ أحداثاً ظالمة، تضعُ كاهل ظلمها فيها على غيرها. فالظاهر أن الاسرائيلي الذي تخاصم مع القبطي، انتهزَ فرصة تفضيل فرعون للاقباط إجمالاً على بني اسرائيل، وبطشه بهم؛ ومِن ثَمَّ اتجه لمشاجرات مع الناس العاديين من الأقباط. هذا مع العلم، أنه يجب التفريق دوماً ما بين طغيان الحاكم وحكومته، والناس العاديين، الذين لا ذنب لهم، في ما يجري، بل على العكس، فقد يُظلمون كغيرهم، لو تحدّوا السلطة. وعليه، فيمكن أن يكون القبطي، رجلاً عادياً، افتعل له الاسرائيلي حادثة، لمصلحة له، واستنجدَ بموسى لتحقيق هدفه. أمرٌ أدركه موسى بعد أنْ حصل ما حصل، فندمَ واستغفرَ رَبَّهُ، لظلمهِ لنفسه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص]. وتجدر الاشارة هنا الى أن موقف موسى يُشعر بالتعهّد بضبط النفس من الانفعال لاحقاً، حتى لا يقوم بعمل يؤدّي الى ظلم أيّ إنسان. فالمهمّ هو تحقيق العدل، وإقرار كلمة الحق:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص].

وتجدر الإشارة هنا الى أن راحة الإنسان وسلامته، تكمنان في تَرَوِّيه، في حين أنّ الإنفعال الذي يؤدّي الى إزهاقٍ للروح، ولو عن غير قصد ـ كما جرى مع موسى في أوّل تجربة له ـ يُسبِّب خوفاً لِمنْ صدرَ العمل عنه، وبالتالي ترقُّباً لما قد يحدث له من ردود فعل من الجانب الآخر. وهذا هو ما حصل لموسى بعد قتلِهِ للقبطي.

٢ ـ ثاني تجربة مريرة في حياة موسى

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص].

في شرحِ لهاتين الآيتينِ الكريمتينِ من سورة القصص، جاء ما يلي: «أي فأصبحَ موسى في المدينة التي قَتَلَ فيها القبطيّ خائفاً على نفسه، يتوقّع وينتظر المكروه، ويخاف أن يُؤخذ بجريمته ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ [القصص/١٨]، أي فإذا صاحِبُه الإسرائيلي الذي خلّصه بالأمس يُقاتل قبطياً آخر، فلمّا رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثاً، لينصره من عدوه ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص]، أي قال موسى للإسرائيلي: إنك لبيّن الغواية والضّلال، فإنّي وقعتُ بالأمسِ فيما وقعتُ فيه من قتل رجلٍ بسببكَ، وتريد أن تُوْقِعني اليومَ في ورطة أخرى ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ [القصص/١٩]، أي فحين أراد موسى أن يبطش بذلك القبطيّ الذي هو عدوّ له وللإسرائيلي (قال يا موسى أتريدُ أن تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمس) أي قال القبطي: أتريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس؟ ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص/١٩]، أي ما تريد يا موسى إلا أن تكونَ من الجبابرة المفسدين في الأرض ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص]، أي وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس»[٦].

(٦) **المصدر السابق**، ص ٤٢٨.

هذا هو الشرح للآيتين ١٨، ١٩، من السورة المذكورة أعلاه. ومحوره تكرار لبعض ما حدث في المشهد الأول، المتمثّل في خروج موسى للمجتمع الكبير. خصامٌ جديد يتكرر، والشخصيتان فيه إسرائيليّ وقبطيّ، الإسرائيليّ هو الأوّل نفسه، ولكنّ المشادّة التي افتعلها كانت مع قبطيّ آخر، فالقبطي الأول قد قُتِل. مرة أخرى، بمرور موسى بمكان الخصام، كرّر الإسرائيلي ما فعله سابقاً من استغاثة له، من قبيل إثارة حميّته له، لكونه من شيعته، ممّا يؤكد، الآن، أن الاسرائيلي كان رجلاً عُدوانياً بكل معنىً للكلمة. وذاك أمرٌ أدركه موسى من منطلق التجربة. وتظهر معرفة موسى للإسرائيلي بقوله له كما ورد في التنزيل: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴿١٨﴾﴾ [القصص]، بمعنى أن موسى اتّهمه بالضلال الأكيد الظاهر، والانتهازيّة والتحايل والالتواء، التي أدّت الى وضعِ موسى في موقف حرجٍ للغاية روحياً، ومعنوياً، ونفسياً، في أول مرة استنجد به. ولكن موقف موسى في المرة الثانية اتسم بضبط الانفعالية الذاتيّة بعد أن كاد يعود فجأة إلى انفعاليته السابقة، فيندفع للبطش بالقبطيّ، ربما من منطلق تفشّي العداوة بين الأقباط وبني إسرائيل أيام فرعون، بسبب طغيان ذاك الحاكم على بني اسرائيل عموماً. بكلمة أخرى، فقد عادت الانفعالية الفجائية لتستحوذ عليه، وبها همّ للبطش بالقبطي الثاني. ولكنّ القبطيّ ـ وموسى على هذا الحال ـ يوجّه له اتهاماً بالقول، كما ذكر القرآن الكريم: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص/١٩]، أي هل تريد أن تفتِك الآن بقبطيّ آخر، كما فتكتَ بقبطيّ بالأمس مُناصرة للإسرائيلي؟ إن فعلتَ ذلك يا موسى، فسوف تنسبُ الظلم الى نفسكَ، فتكون من الجبابرة ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴿١٩﴾﴾ [القصص].

إن كلام القبطيّ ذاك، يحمل تجنّياً على موسى، لأن موسى لم يقتل القبطي الأول عن قصد، ولم يكن ليُريد البطش به حتى القتل؛ ولكن، ومع ذلك، فربما كان هذا الكلام يحمل في طياته نداء الى موسى للالتفات الى أمثاله، الذين ربّما لم يُنصِفْهم فرعون وجنده كما يجب، مع أنهم قبط: يجب ان لا ننسى أن فرعون قَسّم المجتمع المصري الى شيع، وهذا التقسيم سبَّب مظالم لغير الاسرائيليين. وإن كان فرعون قصد بني اسرائيل بالذات، ببطشه بالأطفال، واستحياء النساء؛

ومَن يعرف، فربما كان ذلك القبطيّ نفسه كفردٍ، قد عانى من مظلمة ما، من فرعون، بالرغم من علاقة القبط الوثيقة بفرعون. ولكن مهما يكن من أمر، فإن قتل موسى للقبطي الأول، وهمّه بالبطش بالثاني، قد أدّيا الى اثارة فرعون وآله عليه. فقد رأوا في موسى خطراً على سلطتهم.

ومن هنا، قرروا فعل شيء ضده. وقد اجتمع الملأ وتشاوروا في موضوع قتل موسى، كما ورد في قوله الكريم:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ [القصص].

بصدد شرح تلك الآية الكريمة، فقد جاء ما يلي: «وجاء رجل مؤمن من آل فرعونَ يكتم إيمانه من أبعد أطراف المدينة يشتدّ ويُسرع في مشيه؛ قال ابن عباس: هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون... قال... يا موسى: إن أشراف فرعون، ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلكَ... فاخرج قبل أن يدركوكَ فأنا ناصح لك من الناصحين»[7]. يظهر من ذلك، أن اجتماع الملأ قد كان في مكان بعيد عن مرأى فرعون وغيره، وذلك بقصد التشديد على إبقاء ما تمّ الاتفاق عليه، في حيّز السرية، خوفاً من علم موسى بالأمر، ومغادرته للمدينة، قبل الظفر به وتحقيق ما تشاوروا عليه. ولكن مهما اتخذت جماعَة ظالمة من إجراءات، لإخفاء ما تُدبّره ضد إنسان لا يعلمُ بما يجري من كيد خلفه، فإنّ الله تعالى يُهَيِّئُ الأسباب لإخراج الأسرار إلى العلن، بعلمٍ لا يُحدّه شيء. وبهذا الاطار، فقد هيّأ الله تعالى لموسى المعرفة بالمكيدة ضدّه. وذلك، من خلال شخصٍ مؤمن من آل فرعون، أخفى إيمانه عَنهم. وإيمان ذلك الانسان يعني أنّه لم يكن راضياً عن ظلم فرعون وآله، وأنه ربما رأى في وجود موسى إمكانية حدوث تغيير في الأوضاع. والإيمان يعني أيضاً رفضاً لفكرة تأليه فرعون لنفسهِ، لأن ذلك يتنافى مع عقيدة التوحيد. ولذلك ربما كان هذا الرجل يتطلع، إلى تصحيح الأمور روحيّاً. وانه لما كان يُدرك بأنّ

---

(٧) **المصدر السابق**، ص ٤٣٠.

موسى يمتلكُ القدرة على إنجاز المراد، بما آتاه الله تعالى من حُكم، وعلم، وتفقهٍ في الدين، فقد رأى ضرورة إنقاذه، من خلال إبلاغه بتشاور المَلأ علىَ قتله، والطلب منه الخروج كناصح، تهمّه حياة موسى. ومن الواضح أن موسى صدّقه، وخرج من المدينة كما سوف نشرح باختصار فيما بعد. بَيْدَ أنّه قبل إنجاز ذلك، يهمّنا أن نذكر، بناء على تجربتي موسى المريرتين في مجتمع المدينة ككل، بأن هاتين التجربتين تُبيّنان ضمنياً أن حياة موسى، سوف تكتنفها الصعاب، لا الصعاب الآتية من مكائد آل فرعون فحسب، بل الصعاب الآتية من أفراد من قوم موسى، بني اسرائيل. فموقف الإسرائيلي الذي استنجد مرّتين بموسى، موقف يتّسِم بالأنانية واللامسؤولية. وشخص بنفسية ذلك الإسرائيلي، لا يهمّه إلا مصلحته، ينضمّ الى جانب موسى إن رأى أن مصالحه تُحقّق بذلك الانضمام. ولكن مَن يعرف، فلو لم تَسِرِ الأمور على هواه، فقد يتخذ موقفاً عدائياً من موسى نفسه. وهذا ما حدا بعض المفسرين للقول، إن قوله الكريم في آية «١٩» من سورة القصص ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩﴾ إنما يتعلق بالإسرائيلي، لا بالقبطيّ. وحجتهم هنا، انه لمّا نعتَ موسى الإسرائيلي بالقول كما ذكر القرآن الكريم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [القصص]، ولمّا عدل عن قتله، بعد أن همّ بذلك في ظل انفعالية فجائية اجتاحته لمرة ثانية؛ غضب الإسرائيلي، فكشف عن حقيقته تماماً بالقول، كما ورد في التنزيل: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩﴾ [القصص].

اذاً، هنالك اجتهادان في علم التفسير القرآني بالنسبة لتلك الآية، هذا اجتهاد مقبول بِحُجَجِهِ، وذاك أيضاً، ولكن أيهما الأصحّ، فذاك، لا يعلمه إلاّ الله عزّ وجلّ، الذي أنزل كتابه الكريم على الرسول محمد (ﷺ). وعليه، مع اننا رجّحنا الاجتهاد الأول في هذه الدراسة، وهو نسبة القول المذكور أعلاه للقبطي، إلاّ أن باب الأخذ بالثاني يبقى مفتوحاً أيضاً. والله أعلم على أي حال. ولكن مهما يكن من أمر، فنعودُ للقول بصدد الإسرائيلي، بأنه من الانتهازيين الذين يميلون إلى التيار الذي يُحقق مصالحهم. وعليه، فهو أو أمثاله قد يتسبَّبُون في خلق مصاعب لموسى

في وقت ما. ولو أخذنا تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، بقيادة موسى، لرأينا الكثير من مظاهر عدم الولاء له، والتطاول عليه وعلى أخيه هارون، بمطالب مُجحِفة.

وبالوصول لتلك النقطة، فسوف نعود الآن الى مسألة خروج موسى من مصر، بعد النصيحة التي قدّمها له الرجل المؤمن من آل فرعون. فعلاً، توجّه موسى من مصر نحو مَدْيَنَ بهُدى الرعاية والعلم الإلهي. والظاهر أنّه اختار مَدْيَنَ بالذات لبعدها عن سيطرة فرعون. ووصل سالماً إليها بعد معاناة سفر استمر بضعة أيام، وهو يعتمد في أكله على ما يجده من عشب. وبوصوله، اختار مكاناً للسقاية، ربّما لأمرين: أولهما، أخذ حاجته من ماء الشرب؛ وثانيهما التعرّف على وضع البلد من الموجودين هناك، والتطلّع لإيجاد مَن يمكن أن يُؤويه حتّى يبدأ بالعمل في ذلك البلد. وحَقّقَ هدفه بِتَعَرُّفِهِ الوضعَ الاجتماعيَّ من حيث العلاقات البشرية، عبْر ملاحظته، وحديثه مع امرأتين وقفتا مع غنمهما في زاوية، في وقت ازدحام الرجال حول البئر للسّقاية. فقد تبين كما يُظهر السياق، أن سيطرة الرجال على المجتمع، لكونهم أقوى من النساء أمر بارز؛ وأن الرجال يتولّون أموراً مثل سقاية الأغنام، وأن منظر المرأة التي تضطّر للسقاية منظر غريب اجمالاً. ولهذا، فوقوف المرأتين اللتين تحدّث موسى إليهما، كان مُنبعثاً من الحرج الذي شعرتا به. وقد طلبتا من موسى إعانتهما بالسّقاية، بعد أن شرحا له أن سبب وجودهما بالمكان هو عدم وجود رجل مُعين لهما، ولأن والدهما شيخ مُسِنّ ضعيف. فلبّى موسى الغرض، بلطف وتهذيب، واحترامهما كامرأتين. . أمرٌ غير معهود برجال مَدْيَنَ. ومن هنا، حملتا له كل تقدير، واحترام. ونقلتا ما حدث لوالدهما. فتشوّق لرؤيته لردّ جميله بجميلٍ مماثل، لاسيما وأن موسى كان بحاجة ماسّة لطُعام ومأوى. وعادت إحدى بناته لنقل رسالة والدها لموسى بخجل، وذهب موسى لمقابلة والدها ذاك. وفعلاً قابله، وقصّ عليه قصّة هروبه من مصر، لتشاور آل فرعون في قتله، وكان الخوف لا يزال بادياً على موسى، فطمأنهُ والد المرأتين، واسمه شُعيب، بأنه فعلاً في البلد المناسب، الخارج عن سلطان فرعون، كما اختاره؛ وأنه آمِنٌ بالرعاية الإلهية.

والقصة تبيّن أن الله تعالى اختار لموسى ذلك البيت بالذات، حتّى يتزوّج من

احدى بنات الرجل الشيخ، بطلب من ذلك الرجل، وبشروط وافق عليها موسى. وتلك تَظْهَرُ في قوله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص].

هذا، وقد تمّ زواج موسى من ابنة الشيخ، وأتمَّ عشر سنين في رعاية غنم ذلك الشيخ، بعمل دؤوب متسم بالصدق، والإخلاص، والوفاء. وبعدها أتى الوقت المعلوم لمغادرة مدين، والعودة الى مصر بعد طول غيبة. في الواقع، ترك موسى مصر متوجهاً لمدين بالرعاية الإلهية، ممّا يبين أهمّية التوحيد، والآن يعود من مدين الى مصر في مظلّة الحماية الإلهية له، مما يُبرز مرة أخرى أهمّية التوحيد أيضاً. بمعنى أنّ مسار الأحداث جرى بقضاء إلهي. فالله تعالى هو الذي هيّأ الوسائل لإنقاذ موسى من بطش آل فرعون. فرعاه، وأمّنَ له العيش في مدين، ولما باتتْ الأوضاع في مصر تسمح برجوعه، هيّأ له عزّ وجلّ وسائل العودة[8]، وذلك ليقف، في مرحلة قادمة، بقوّة أمام ظلم فرعون، بتكليف إلهي له. وهذا، ما سوف يُشكّل موضوعاً للفصل القادم من هذه الدراسة.

---

(٨) وتجدر الاشارة هنا إلى ان الرعاية الإلهية لموسى تُشكّل هداية قصوى له نفسه، للإدراك التام بأنّ الانسان مخلوق ضعيف تابع لله تعالى، وأن مصير هذا الانسان في يده عزّ وجلّ. وربما يكون في الرعاية تلك تحضير لموسى لتقبّل المعجزات كشيء أكبر من العقل، وأقوى منه. فالله تعالى يؤازر الأنبياء والرسل بالمعجزات حتّى يُصدِّقوا من أقوامهم قدر الامكان، بمعنى ان التصديق يأتي عادة من أصحاب الأفئدة المستعدّة للإيمان. هذا، وبصدد مؤزارة الله تعالى لأنبيائه ورسله، يقول محمد حسين هيكل: «وفي قصص الأنبياء ظاهرة يقف عندها النظر، ويحسن بنا لبيانها أن نرجع الى عهد موسى وعيسى، وما كان بعدهما من رسالة محمد عليه السلام: هذه الظاهرة هي الانفصال أو ما يشبهه أوّل الأمر بين حكم العقل ومنطقه، والايمان الدائم بالمعجزات والخوارق. فقد آزر الله كلا من انبيائه بمعجزة لقومه حتى يصدقوه، ولم يصدقه مع ذلك منهم إلا قليل. ولم تكفهم عقولهم ومنطقها ليدركوا أنّ الله خلق كل شيء، وأنّه الملك الحقّ لا إله الا هو. ولمّا قضى الله أن يبعث موسى من مصر خرج منها قبل بعثه، خائفاً يترقّب حتى ورد ماء مدين، وتزوّج من أهلها؛ ولما أذن الله له أن يعود (عاد)...» راجع محمد حسين هيكل، **حياة محمد**، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨)، ص ص ٥١٩ ـ ٥٢٠.

الفصل الثالث

التقوية الروحية، والمعنوية لموسى، لمواجهة الظلم

١ ـ التكلم الإلهي لموسى، وأهميتهُ في تثبيت موسى لمجابهة قادمة مع فرعون

في طريق عودة موسى إلى مصر، في ليلة شديدة الظلام والبرودة، مع عائلته من مَدْيَنَ، إذْ به يرى ناراً عن بُعد. فقال لأهله، امكثوا مكانَكُمْ لَعَلّي أُحضِرُ لكم شُعْلةَ من تلك النار للاستدفاء بها، أو أجِدُ مَن يُرشدني إلى الطريق الصحيح. بَيْدَ أنه حينما «أتى النار وجدها ناراً بيضاء تتّقد في شجرة خضراء»[١]. وذاك يشير الى أنّ ما رآه كالنار لم يَكن ناراً كما ظن، بل نور الله عزّ وجلّ. وهنا، وهو في الوادي المقدّس طوى، حصل الآتي:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه].

في أجواء روحانية مهيبة، تخشع فيها الطبيعة مع الانسان لله تعالى، خالق

---

(١) الصابوني، **المصدر السابق**، ص ٢٣١.

الكون وكلّ ما فيه، وإذ بموسى يُكرَّمُ بالمناداة الإلهية له. وأولُ ما يسمعه ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴿١٢﴾﴾ [طه]. وذاك يحمل في طيّاته أن موسى بشر، يخضع لواجب الوجود (الله عزّ وجلّ). وفي هذا تفريق لموسى، ما بين الألوهية والبشرية. فالله واحد، وهو المهيمن على الوجود، السميع البصير. أمّا وهو تعالى المتفرّد بالألوهية، فالخضوع المطلق يكون له وحده، جلّ شأنه، وعلى الإنسان، طاعة الأوامر الإلهية تعبيراً عن خضوعه للسماء. وبهذا الاطار الروحي، أمر الله تعالى موسى بفعل الآتي ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴿١٢﴾﴾ [طه]، كان على موسى أن يسير حافياً في بقعة مباركة، طاهرة وذلك من أجل أن يكون «معظِّماً لها وخاضعاً عند سماع كلام ربّه»[2]. وعند تلك النقطة، أخبره الله تعالى باصطفائه للنبوّة، قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴿١٣﴾﴾ [طه] قال الرازي كما ورد في «صفوة التفاسير»: «فيه نهاية الهيبة والجلالة، فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهّب له، واجعل كلَّ عقلك وخاطرك مصروفاً إليه»[3]. وذاك يعني ان الله أمرَ موسى بالانتباه الكلّيّ إلى قوله عزّ وجلّ ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴿١٦﴾﴾ [طه]. إن أهم مبدأ روحي في تلك الآيات هو التوحيد، فما من إله غير الله تعالى، ربّ موسى، وإله العالمين. وذاك يؤكّد أنه لا يجوز قطّ تأليه بشر، وكأنّ في ذلك إرشاداً سماوياً لموسى لمجابهة أيّ فكرة تأليه لإنسان بقوة العلم والإيمان، خصوصاً أنه كان في طريق عودته لمصر، حيث ألّه فرعونُ نفسَه. هذا، وإن مصدر الإيمان، الذي يزوّد الإنسان بقوّة المجابهة، لأيّ متألّه ظالم ـ هو العبادة لله تعالى وحده لا شريك له. والعبادة هي التعظيم للّه عزّ وجلّ، من خلال فرائض ملزمة روحيّاً لأبناء البشرية، وقد جاء ذكر الصلاة بتكليم الله تعالى لموسى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴿١٤﴾﴾ [طه]، والصلاة كتعريف هي «الاتصال بالله إيماناً به والتماساً للعون منه. . . (والمؤمن) الصادق الإيمان هو مَن يتوجّه بقلبه الى الله ساعة

---

(٢) الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، جزء ٣٣، (بيروت: دار احياء التراث العربي، لا. ت)، ص ١٧.

(٣) الصابوني، **المصدر السابق**، ص ٢٣١.

الصلاة، يُشهده على تقواه ويستعينه على أداء واجب الحياة، ويستمدّ منه هدايته، ويستلهمه توفيقه لإدراك سر الكون وسننه ونظامه»[٤]. وبهذا المعنى، فالصلاة تزوّد موسى بالعلم الضروري، لمجابهة فرعون من جهة، والقوّة للصمود والصبر من جهة أخرى، طالما أنّه لا مفرّ من تلك المجابهة بعد وصوله لمصر، بخلفيته التي تمّ التحدث عنها. والمجابهة تلك، معنيّة بإبطال الظلم المتجسِّد في تأليه فرعون لنفسه، وما يتبع ذلك من بطش بالضعفاء، وهي تشكّل جزءاً من مسؤولية موسى في الدنيا، كما سوف يُظهِر السياق القرآني فيما بعد. والمسؤولية هي أمانة التكليف التي فرضها الله تعالى على الإنسان بشقّين: العبادة والعمل. العبادة من أجل الحصول على كل المقومات الأخلاقية والذهنية الضرورية للعمل، والعمل هو بناء المجتمعات وتنظيمها على أسس من العدل والحق. هذا، مع العلم أن حساب الإنسان يتبع أعماله. وذاك يعني، أن الحياة الدنيا هي ليست آخر المطاف للإنسان، إذْ إنّ خلوده في الآخرة. فالموت هو خاتمة كل إنسان على الأرض، والساعة آتيةٌ بالتأكيد ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ١٥﴾ [طه]. بهذا الصدد يقول عبد الكريم الخطيب في مؤلّفه «التفسير القرآني للقرآن»، العبارة تشير «إلى أن الساعة غيب من غيوب الله، وأنّها محجّبة وراء ستر الغيب، وأن الذي يؤمن بها إنّما يؤمن إيمان غيب، لا إيمان شهادة ومعاينة. ومع هذا، فإنّ هنالك من الإمارات والدلائل، ما يجدها العقل بين يديه، ليستدلّ منها على أنّ الحياة الدنيا ليست هي مبدأ الإنسان ونهايته، وأن لا بدّ أن يكون وراء هذه الحياة حياة أرحب وأوسع، لتجزي فيها كل نفس بما عملت في هذه الدنيا... وهذا هو السرّ في قوله تعالى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه/ ١٥]. فهذا التعبير القرآني يحمل في طيّاته إشارة مضيئة الى أن الانسان مطالب، بما أودع الله سبحانه وتعالى في كيانه من قوى عاقلة مدركة، بأن يتجنّب الشر، ويتجه الى الخير، وأن يتنكّب طرق الضلال، ويأخذ طريق الهدى، وبذلك يكون مهيّئاً تلقائيّاً للقاء الآخرة، وللفوز برضوان الله فيها. أمّا من زَهِدَ في عقله، وتنكّر لفطرته، فركب طريق الغواية والضلال، فإنّ ما

---

(٤) هيكل، **المصدر السابق**، ص ص ٥٢٥ _ ٥٢٦.

يلقاه في الآخرة من عذاب وبلاء، هو الجزاء العادل الذي يستحقه»[5]. وبناء على ذلك، يمكننا القول بأن عبارة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه/ ١٥] التي كلّم بها الله تعالى موسى، تهدف لإعطائه الأمر للعمل في سبيل تثبيت التوحيد، وإنقاذ المستضعفين من الظلم، مع التحسب لقيام الساعة، دون إفساح في المجال لأي شخص لصدّه عنها، كما ورد في قوله العزيز ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه]، «أي لا يَصْرِفَنَّكَ يا موسى عن التأهّب للسّاعة والتّصديق بها مَن لا يؤمن بها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [طه/ ١٦] أي مال مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته ﴿فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه]، أي فتهلك، فإنّ الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك[6].

من كلّ ما تقدّم ذكره، نرى أن الآيات (١١ ـ ١٦) من سورة طه، تُزوِّد موسى بالمقومات اللازمة لمجابهة فرعون، من خلال إطار روحي محكم تماماً، يتضمن الآتي:

أ) وجوب تنفيذ موسى، كبشر، للكلمة الإلّهية.

ب) التقدّم بالعبادة لله تعالى وحده، إلزامياً، مع تخصيصٍ للصلاةِ هنا لكبر شأنها.

جـ) التأكد من حقيقة أن دار الدنيا هي دار الفناء.. دار الأعمال التي يُحاسب الانسان بموجبها يوم القيامة، والأعمالُ تلك تقع في بوتقة مسؤولية التكليف، التي تجمع ما بين الجانبين الروحي، والدنيوي معاً.

هذا، وباتباع دقيق للأوامر الإلهية من جانب موسى، فسوف يحظى بالقوّة المتطلّبة لإداء مهمّته في مجابهة فرعون، كأوّل مسؤوليّة روحيّة أُلقيت على عاتقه. والقوّة هنا روحيّة. فالإنسان ضعيف بنفسه بموجب خلقه، وهو بحاجة ماسّة باستمرارٍ لتقويته، ولن يتمّ ذلك إلا باتّباع ما أُمِرَ به سماوياً. هذا، والقوّة الروحيّة

(٥) عبد الكريم الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، جزء ١٦ (بيروت: دار الفكر العربي، لا. ت)، ص ٧٨٦.

(٦) الصابوني، **المصدر السابق**، ص ٢٣٢.

بدورها تُشكّل العجلة لتقوية الإنسان خلقاً، وتفكيراً. فالمؤمن باللّهِ العليّ العظيم يسمو بنفسه الى أعلى المراتب، وعليه يؤدّي واجبه عن مبدأ، بتضحية وثبات، وصبر. أمّا من جانب التفكير، فالايمان هو الذي يقوّي العقل، وينمّيه، فيزيد من قدرته على رؤية الأشياء في إطارها الصحيح. على انه بتقوية الجانب الخُلقي والعقلي للشخص المعني بالأمر، تقوى بصيرته، فيرى جوهر الأمور. فكفّة النجاح من منظار الرؤيا لجوهر الأمور، هي دائماً أقوى بكثير من العمل من منطلق ظواهر الأشياء. وبهذا الإطار، نرى كيفيّة تدريب موسى، بالقضاء الإلهيّ الذي لا يُرَدُّ، على مجابهة فرعون. ولكن، لزيادة في التدريب ذاك، فقد شاء الله تعالى أن يُنعِم على موسى بمعجزتين، وهدف ذلك، كما نرى[٧]:

أ) الزيادة من تثبيت قلب موسى على المواجهة القادمة تلك. فتثبيتُ القلوب البشرية يأخذ أكثر من إطار واحد، ومهما تثبّت القلب، وعَلتْ بتثبيته ذاكَ شجاعةُ الشخص المعني بالأمر؛ فلن يتجرّد قلب بشرٍ من خوف؛ ولذا يبقى الانسان في حالة دعاء لله تعالى لتثبيت فؤاده على حال.

ب) ان الافاضة على موسى بالمعجزتين اللتين سوف نتطرّق إلى معالجتهما قريباً، هي الدليل على إثبات مصداقية نبوّة موسى، من كل مَن يمتلك فكراً ونظراً صائباً. هذا مع العلم أنّ الفكر الصائب لا يجتمع مع الاستكبار، لأن الاستكبار مرتبط بالغرور، والغرور بالسطحية. ومن هنا، فمن غير المتوقع لفرعون ومَن استكبر معه، تصديق موسى، ولكن، على الأقل، فالتصديق سوف يأتي من فئةٍ غيرهم، وذاك، بدوره، يُشكّل ضربات لفرعون، وسلطته، كما سوف نشرح فيما

---

(٧) بعد شرح كلمة «معجزة»، يقول فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الروحي: «والمعجزات هي جمع معجزة وهي أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة بحرية الله تعالى على يد... (النبي)... شاهداً على صدقه. والمعجزات ولا شك حجّة للرّسل لا ينكر حجّتها إلاّ مغالاة خاضع للهوى، أو الجهل. ولو لم تكن المعجزات حجّة توجب الإيمان بالرسل، لما عاتب الله المشركين وعنّفهم ووصَفَهم بأنهم لا يؤمنون بالآيات». راجع فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الردمي، **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير**، جزء ١، (بيروت: مؤسسة الرسالة، لا. ت)، ص ٥٤٥.

بعد. على أنّ، ما يهمنا الآن، هو الانتقال للكلام على المعجزتين، كما ورد ذلك في سورة طه، إكمالاً لتكليم الله عزّ وجلّ لموسى، في الوادي المقدس طوى.

٢ ـ الزيادة في تقوية موسى من خلال الإفاضة الإلهية عليه بمعجزتين

تبدأ المعجزة الأولى بسؤال إلهي لموسى. وإجابته عن ذلك السؤال:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه].

«أي وما هذه التي بيمينكَ يا موسى؟ أليست عصاً؟ والغرض من الاستفهام التقرير والإيقاظ والتنبّه إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حيَّة، لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة. قال ابن كثير: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أمّا هذه التي في عينيك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما تصنع بها الآن»[٨]. ان النقطة الهامة هنا هي تنبيه موسى لما يُميز ما بين العمل البشري والعمل الإلهي الذي سوف يتجلّى له بالمعجزة. فهو يحمل عصا مَصنوعة من الخشب، والخشب «جماد». ولا يحمل موسى العصا إلا لأهداف تهمّه. وتلك تظهر في جوابه عن السؤال الإلهي ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه] حيث ردّ بالقول ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]. ان ردّ موسى ذلك يضع منافع عصاه في ثلاثة أطر، إطارين في حيز التخصيص، وثالث في حيز التعميم. بالنسبة للأول، فقد ذكر أنه يستخدم عصاه للتوكؤ عليها. بمعنى انه ربّما كان يشعر بضعفِ جسدي ما، يتطلّب التوكؤ على عصاه. وفي هذا، إشارة لطيفة إلى أن الإنسان الذي خلقه جلَّ وعلا، في أحسن تقويم، هو مخلوقٌ ضعيف، معرَّض للمرض. «أما فيما يتعلق بالمنفعة الثانية لعصا موسى في الإطار التخصيصي، فقد كمُنتْ في استخدامها، كأداة للهشّ بها على غنمه ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه/١٨] «أي أهزّ بها الشجرة وأضربُ بها

---

(٨) الصابوني، **المصدر السابق**، ص ٢٣٢.

على الأغصان ليتساقطَ ورقها فترعاه غنمي»[٩] ولكن بالانتقال الآن لحيّز التعميم في استخدام موسى لعصاه، فقد ورد قوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]، أي «ولي فيها مصالح ومنافع أخرى غير ذلك، كحمل الزاد والسقي وطرد السباع عن الغنم. . .»[١٠]. هذا، وبعد إجابته تلك، قالَ الله عزّ وجلّ لموسى:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه].

أمر الله تعالى موسى بإلقاء عصاه، التي كانت بيده، لكي يرى من غرائب المعجزات الإلهية ما سوف يرى. وقد ألقى موسى عصاه. وعندما ألقاها «صارت في الحال حيّة عظيمة تنتقل وتتحرّكُ في غاية السرعة؛ قال ابن عبّاس: انقلبت ثعباناً ذكَراً يبتلع الصَّخر والشَّجر، فلمّا رآه يبتلع كلّ شيء خافه ونفر منه وولّى هارباً. قال المفسِّرون: لمّا رأى هذا الأمر العجيب الهائل، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف، ولا سيّما هذا الأمر الذي يذهب بالعقول، وإنّما أظهر (سبحانه) له هذه الآية وقت المناجاة تأنّياً له بهذه المعجزة الهائلة، حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون، لأنه يكون قد تدرّب وتعوّد»[١١].

إذاً، فأحد أهداف قلب العصا الى حيّة، هو تدريب موسى على أكبر قدْر من الشجاعة. فطالما أنّ الله تعالى قضى لموسى بإلقاء عصاه يوم المباراة القادمة مع السَّحَرَةِ، وَتَحَوُّلِها الى ثعبان عظيم يبتلع ما حوله، فلا يكون ما حصل في الوادي المقدس طُوىً، طمأنة وجدانية له فحسب، بل حثّاً له على الصبر، والصمود المؤدّي إلى فوزه على فرعون وآله، وجمعه، كلّهم، في المباراة تلك: إذْ يبدو لنا أن موسى الذي خرج من مصر لمدين خائفاً من آل فرعون، بسبب قتله غير المقصود للقبطيّ الأول، كان لا يزال فَزِعاً من أن يقتله آل فرعون. ولو بعد غيابه لسنين عن مصر. ومع كلّ التثبيت الروحيّ له، فيبدو أنّ حالة الخوف الأولى، لم تذهبْ من وجدانه بعد، وذاك ربما أبقى على نوع من التخوّف في نفسه من

---

(٩) **المصدر السابق**، ص ٢٣٢.

(١٠) أحمد مصطفى المراغي، **تفسير المراغي**، جزء ١٦ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، لا. ت)، ص ١٠٣.

(١١) الصابوني، **المصدر السابق**، ص ٢٣٢.

المواجهة القادمة له مع فرعون. فكما قلنا سابقاً، فالتثبيت الوجداني، بإطاره المطلوب لتحقيق هدف بعيد المدى، قد يحتاج لمراحل. ولكن، وبالعودة مرّة أخرى لموضوع عصا موسى التي تحوّلت الى حيّة تسعى، في وقت تخوّف موسى ممّا كان يراه في حيّز المعجزة الإلهية، فماذا حصل؟ هذا ما تبيّنه الآية الكريمة الآتية:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه].

«أي قال له ربّه: خذها يا موسى ولا تخف منها... سنعيدها الى حالتها الأولى كما كانت عصاً لا حيَّة فأمسكها، فعادت عصا»[١٢]. وتجدر الاشارة هنا، تعقيباً على المعجزة تلك، إلى أنه يمكننا التصوّر، أنه طالما أن الحيّة من الزواحف المؤذية جداً للإنسان (فقد تقتله أحياناً بسمومها) فيمكن تشبيه فرعون ببطشه، بها. فالحيّة تقتل الانسان الغافل بسمومها، وكذلك ففرعون دأبَ على قتل المستضعفين من الرافضين لفكرة تأليهه. وقتْلُ فرعون ذاك للمستضعفين خلَقَ نوعاً من الهلع في مجتمع مصر، وخصوصاً بين بني اسرائيل بالذات، لأنه تعمَّد تكراراً قتل أطفالهم من الذكور، واستحياء نسائهم. ويمكن تشبيهُهُ بالحيّة التي كانت تبتلعُ الصّخر والشّجر، وتُسَبِّب فزعاً وهلعاً لموسى وهو يراها. إذاً، هناك مشهد مخيف في دولة فرعون، أتى من منطلق تأليهه لنفسه، وبطشه بالرافضين لهذا التأليه، وهنا مشهد مخيف أيضاً متجسّد في بثّ سموم الحية من حولها، وتدميرها لما تراه بتلك السموم، ولكنّ الله تعالى أوقفها بتحويل العصا من تلك الحيّة الى جماد. بمعنى أنه بعلمه، عزّ وجلّ، قد أوقفَ شرّ الحيّة، وموسى متخوِّف منها. أليس الله تعالى، الذي فعل ذلك، بقادرٍ على تقوية موسى وتثبيت قلبه، حتى يتمكّن من مواجهة فرعون، دون خشية إلاّ منه عزّ وجلّ؟ بلى، من المؤكّد أنّ الله تعالى قادر على فعل ما يريد. هذا، وبمعجزة قلب العصا إلى حيّة، والحيّة إلى عصاً كما كانت، فقد تجلّت قدرة الله تعالى لموسى، بحيث عرف بأن القدرة الإلهية لا تُحدّ؛ وأن الإرادة الإنسانية المحدودة، تخضع للإرادة الإلهية اللامحدودة. وذلك

(١٢) **المصدر السابق**، ص ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

من شأنه أن يزيد من تثبيت قلب موسى في مواجهته القادمة مع فرعون. هذا، ولاستفاضة أكبر في تثبيت موسى للهدف ذاك، فقد أفاض الله تعالى عليه بمعجزة أخرى تتجلى في قوله الكريم:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣)﴾ [طه].

في شرح هذا القول الكريم، جاء في مؤلف «الميزان في تفسير القرآن» لمحمد حسين الطباطبائي ما يلي: «الضمّ الجمع، والجناح جناح الطائر واليد والعَضُد والإبط، ولعلّ المراد به المعنى الأخير ليؤول إلى قوله في موضوع آخر: «أدخل يدك في جيبك» والسوء كل رداءة وقبح، قيل: «كني به في الآية عن البَرَصِ؛ والمعنى اجمع يدك تحت إبطك أي أدخِلْها في جيبك تخرجْ بيضاء من غير برص أو حالة سيئة... أما قوله الكريم: ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢)﴾ [طه]... فهو حال من ضمير تخرج، وفيه إشارة إلى أنّ صيرورة العصا حيّة آية أولى؛ واليد البيضاء آية أخرى؛ وقال تعالى في ذلك ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص/٣٢][١٣]. والمعجزتان، هما من آيات الله، عزّ وجلّ، الكبرى، وقد حظي بهما موسى، لاكتساب الشجاعة اللازمة في مواجهة قريبة له مع فرعون، عند وصوله لمصر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المعجزة الثانية التي أفاض بها الله تعالى على موسى، قدْ تُشير إلى أنّ كفاح موسى المقبل مع فرعون كفاح سلمي. والكفاح السلمي يكون عادة من خلال الحوار المبني على قوة الإيمان. وفي حالة موسى، الحوار الذي تدعمه المعجزات أيضاً. والدليل على ذلك، أنه لمّا أمره الله تعالى للذهاب لفرعون بقوله الكريم:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤)﴾ [طه].

(أي إذهب الى فرعون، بكل حصيلتكَ في المعرفة الروحية، التي تلقّيتها في

---

(١٣) محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، جزء ١٤ (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لا. ت)، ص ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

الوادي المقدَّس طُوىً، لمجابهة ظلمه وطغيانه، في تأليهه نفسه)، طَلبَ موسى من ربه، إعانته في تحقيق الهدف، من خلال شرح صدره، وتيسير أمره، وحلّ عقدة من لسانه، حتى يُفهم كلامُه. وذاك يؤكدُ أنّ موسى كان سيتحاورُ مع فرعون، بعد وصوله لمصر. وبما أن للحوار «مقوّماتٍ» أراد تملّكها معنويّاً للظفر، فقد طلبَ من الله تعالى تقويته في الإطار المذكور آنفاً[١٤]. هذا، وسوف نتحدث عن ذلك الموضوع بالتفصيل في الفصل القادم من هذه الدراسة.

---

(١٤) الحوار هو النقاش ما بين اثنين أو ثلاثة أو مجموعة. والحوار كمبدأ يتطلب قوة معنوية هائلة، حتّى يتمكّن المُحاور من إظهار رأيه دون انفعال، مهما كان نوعه. فالانفعال عادة يحدُّ من فاعلية النقاش، الذي يتطلب بدوره هدوءاً تامّاً. ولكن طالما ان السيطرة على أي مظهر من مظاهر الانفعال تحتاج إلى إيمان خالص بالله تعالى، لرعاية الشخص المعنيّ بالأمر، لذا، نرى موسى قد توجه ليستغيث بالله تعالى، لِيُقَوِّيَهُ في مهمّته في مواجهة فرعون بالمنطق.

الفصل الرابع

المقوّمات اللازمة لمواجهة موسى لفرعون، ثم المواجهة ونتائجها

١ ـ العلاقة بين شرح الصدر وقوّة التفكير

بالالتفات الآن إلى مقوّماتِ الحوار الواردة في سورة طه، نلاحظ أنّها تقع في إطار زمن موسى، ثم الزمن الذي يشمل حياة البشرية. إذْ حينما يتحدث القرآن عن أمور تجمعُ ما بين أحداث روحية مصيريّة وتاريخيّة، فإن كلامه يتَّخذ بُعدين: أوّلهما، ما يختصّ بالحَدَث وأهميته في الأطر الإصلاحية، روحيّاً وأخلاقيّاً، في زمن موسى؛ ثم ما يمتدّ للزمن بطوله من جهة ثانية. ويتمثل ذلك في الآيتين الكريمتين التاليتين، الواردتين على لسان موسى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه].

في شرحٍ لتلك الآيات، يجدرُ بنا القول بأنّ شعور الإنسان بالإنقباض يضعه في بوتقة ضيقة، لأن الشعور ذاك سوف يهيمن على عقل الإنسان المعنيّ بالأمر، رغماً عنه. وإنّ حصول هذا، يجعل الحوار مستعصياً. فالحوار أولاً يحتاج الى معرفة واسعة. ولكنْ حين يستحوذُ الانقباض على صدر الإنسان، فإنه يفقِدُ قدرة التركيز لاستجماع تلك المعارف، لأن تركيزه سوف يكون مُسلَّطاً على زاوية واحدة، تزعجه بهيمنتها على عقله. ومن هذه الناحية، نرى الحكمة في طلب موسى من

ربّه شرح صدره تمهيداً لمجابهة فرعون، من طريق الحوار. فان كان قتله، غير المقصود، للقبطيّ، وخوفه من إنزال ضرر به، من قِبل فرعون وآله، مُهَيْمِنَيْنِ عليه، وجداناً وعقلاً، فَشْرحُ صدره بالإيمان كفيل بتحريره من ذلك الإنقباض أو من جزء كبير منه. على أنّ تحرّر صدره من الانقباض ينعكس على فكره. وبذلك الانعكاس، تزول هيمنة مشكلته مع القبطيّ، ومخاوفه منها؛ وهو رجل علم متفقّه بالدين منذ بلوغه سن الرشد.. وذاك بدوره يُسهّل له الأمور: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾﴾ [طه]. هذا، وفي شرح لآية ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾﴾ [طه] فقد جاء في «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: «سَهِّلْ عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة الى فرعون»[١]. إذن، فإن انشراح صدر الإنسان بالإيمان، يُشكّل الطريق السّوي لتحرير الصدر من مشكلة ذاتية، بانطلاقةِ للعقل. وتلك الانطلاقة تُنمي المواهب الفكرية فتتحرّر بدورها ممّا كان منعكساً عليها من ضيق الصدر. وبذلك التحرّر، تأتي القدرة على التركيز السليم، لقضية هامة، مثل قضية مجابهة موسى لفرعون. وذاك يثبت، تمازج الانشراح الصدري مع التفتّح والنماء الذهنيّ؛ لا لاستجماع المعارف فحسب، بل للتمكن من إخراجها من اللسان بالقالب العميق الفعّال.

٢ ـ العلاقة بين قوة التفكير والقدرة الكلامية

من جملة ما تقدّم، فالآيات تُبيّن اتصالاً وثيقاً ما بين الوجدان والعقل واللسان. تبدأ الأمور بالوجدان كما هي متجسّدة بشرح الصدر بالإيمان، فتنتقلُ الى العقل، فاللسان. العقل كأداة يُحلّل ما خُزِّن من معارف في الذاكرة، باتصاله مع الوجدان. والتحليل يعني تناولَ تلك المعارف بعمق، وتنظيمها، من خلال الموازنات والدلائل والبراهين، حتى إذ ما وصلت الى النطق التي يقِفُ اللسان كأداة لها؛ فإنها تصلُ في حيّزٍ منطقي، وتخرجُ كذلك. وهذا ـ كما نرى ـ هو معنى قوله الكريم: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ [طه]. فحلّ العقدة يُشير الى طلب موسى من

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، جزء ١١ (بيروت: مؤسسة مناهل العرفان، لا. ت.)، ص ١٩٢.

ربّه، الإفاضة عليه بطلاقة اللسان. وتلك الطلاقة لا تأتي إلاّ، مع انشراح الصدر، وقوّة التفكير، كما هي متمثلة في التركيز، وتنظيم المعرفة، وتحليلها باستخدام أدوات المنطق، وهي الدلائل والبراهين. هذا، وحينما يخرج ما في العقل، بإطار منطقيّ سليم، فمن الطبيعيّ أن يُفهم جيداً من الطرف الآخر المحاوِر؛ إلاّ في حالة سيطرة الغطرسة والغرور. ولكن، حتى وإن حصل ذلك، فعلى الأقلّ، سوف يؤخذ بالحسبان، ما يمتلك هذا الشخص المحاور من قدرة على الحوار؛ ولكن مع محاولة لتغطيتها بالسخرية تارة، أو باتّهامه بالجنون تارة أخرى، أو بتهديده من جهة ثالثة. وهو ما حَصَل بالفعل، لمّا جابه موسى فرعون وآلَهُ بعد وصوله إلى مصر، كما سوف نشرحُ لاحقاً في هذا الفصل.

٣ ـ حاجة موسى لأخيه هارون كمُعين له في مواجهة فرعون

وتجدر الاشارة إلى أنّ موسى كان يتوقع صدور أي شيء عن فرعون لاحقاً، وقت استغاثته بالله تعالى لشرحِ صدره، وتيسير أمره، وحلّ عقدة من لسانه. وأنه رأى أيضاً وجوب وجود مُعِين لَه، فاستغاث بالله تعالى لضمّ هارون أخيه إليه، كما ورَدَ في قوله العزيز ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾ [طه]. إن طلب موسى إشراك هارون معه في مهمّة مواجهة فرعون، بعد تكليفه بالنبوة، وتبليغ الرسالة، يشير إلى الأمور التالية:

أ) انّ ما كُلِّف به موسى كان عظيم الشأن، بحيث أنه مهما فعلَ، كرجل يحظى بدعم إلهي، فإنه يظل محتاجاً الى شريك، للحدّ من النكسات أو لمنعها.

ب) إنّ ذلك لا يعني أنّه لن يقوم بمهمته كاملة كما ينبغي له، بل إن موسى سوف يقومُ بالتكليف على أحسن وجه ممكن في حدود بشريّته. ولكنّ وجود هارون، سوف يُشكِّل عاملاً فعّالاً في توجيه الأمور نحو المراد.

جـ) إنّ الأخوّة، إن اتَّخذت منهج الإيمان سبيلاً لها في الحياة، تصبح تعاضداً خيِّراً في كل أمر، حتّى في التسبيح الكثير لله تعالى، في الذِّكر الكثير له؛ فالإخْوة يعلمون أن الله تعالى عالم بأحوالهم وبكل أفعالهم. مثال ذلك، ما ورد في القرآن الكريم، على لسان موسى حين طلب من ربّه إشراك أخيه هارون في أمره: ﴿كَیْ

﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه]. . إنّ موسى يؤكد هنا، انه سوف يلجأ مع أخيه هارون الى التسبيح الكثير لله تعالى. وطبعاً، فالتسبيحُ المستفيض يعني التعظيم والإجلال لله تعالى، والتطلّع إليه مُعيناً وحيداً للإنسان في تصرفاته، وأداء أعماله. هذا، والحظوة بالمعونة الإلهية، أمر مهم، لأن فيها هداية للانسان نحو السير في الطريق الصحيح. ومن هنا، نفهم معنى الآية: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [طه]. أما الآية: ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه] فهي تتضمّن مضمونَ مَلْءِ قلبِ موسى وهارون بذكْرِ الله باستفاضة. وكقاعدة، فذلك يؤدي إلى اتّصال دائم بالله عزّ وجلّ. وهذا الاتصالُ رحمة لهما، لأن الله تعالى، العالِم بكل صغيرة وكبيرة في الكون، يفيض عليهما (من خلال ذكرهما الكثير له) بالعلم الكشفيّ لهدايتهما في مجابهتهما لفرعون. أو بكلمة أخرى، يزودهما بالعلم اللازم لمواجهة فرعون، في كل مرحلة زمنيّة. فهُما، من حيث أنهما ينتميان الى الجنس البشريّ، لا يعرفان ماذا يكيد لهما فرعون مع آله، خفية، وباستمرار، ومن تلك الزاوية، فالعلم الكشفي يُعينُهما على تتبّعِ تلك المكائد الخفيّة، وتخطيها، درءاً للنكسات التي قد تؤثّر على حياتهما وعلى عملهما. والله الذي تَسَعُ رحمته كل شيء، بصير بهما ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه].

من كل ما تقدّم، يبدو جلياً أن موسى كان يرى وجوب تحصين نفسه في مجابهتِهِ مع فرعون من طريقين: أولهما، التقوية الوجدانية الفكرية له، حتّى يتكلّم بمنطق يُقنع فرعون. وثانيهما التقوية المعنوية والعملية له، من خلال شدِّ أزْرِهِ بأخيه هارون، في التكليف بالنبوّة وتبليغ الرسالة. ولكن، سواء بالدرب الأول أو بالثاني، فالاعتماد كلّه على الله عزّ وجلّ، طالما ان موسى استغاثَ بربه في الجانبين. هذا، وقد خرجتْ تلك الاستغاثة بالله عن قلب موسى الصادق، ووجدانه المخلص، ومحبّته الشديدة لله تعالى. . محبّة متوجة بشعورٍ منه، بضعفِ كمخلوق. . فاستجاب الله تعالى لموسى، بالقول: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه]. وذلك يُبيّن، بدوره، الهيمنة الإلهية على الكون وكل ما فيه. فالقوة كلها بيد الله عزّ وجلّ، وهو وحده القادر، على محق طغيان فرعون، الذي نَسَبَ التأليه لنفسه، من طريق تهيئة الأسباب.

وبعد ذلك، يهمنا أن نذكر باختصار أن موسى قد وصل الى مصر سالماً مع عائلته. وأنه تنفيذاً لعهده مع الله عزّ وجلّ، فقد ذهب مع أخيه هارون، لمواجهة فرعون، كما سوف نرى في ما ورَدَ في «سورة الشعراء». وبصدد تلك المواجهة، وجّه موسى كلامه نحو إحضار المفاهيم الروحية المدعّمة بالأدلّة والبراهين، لدحضِ فكرة تأليه فرعون لنفسه خلال المواجهة. واستطاع، من خلال أسلوبه المتسم بقوة الإقناع، كشف ضحالة فرعون، فكريّاً، ومعنويّاً، ونفسيّاً. وهذا بحدّ ذاته تأكيد لفرعون أنه بشرٌ بحكم تكوينه، وهو ليس من الصنفِ القوي فكراً وخُلُقاً، بل من الصنفِ الضعيفِ حقّاً. ولإظهار تلك النقاط، سوف نركز على ذلك الحوار، الذي يحمل في كنهه مبادىء أزلية هامّة للغاية، بصدد موضوع التوحيد، والبعث، والحساب، والتدبير الإلهيّ للكون، والتنظيم لشؤونه، بعلمٍ لا يحدّه شيء، وحكمة فائقة، إضافة لأمورٍ أخرى.

٤ ـ حوار موسى مع فرعون ونتائجه

وبدخولنا الآن الى موضوع الحوار بين موسى وفرعون، فيجب ان نبيّن أولاً أنه يؤكد الوجود الإلهي الدائم. فالله تعالى المتّصف بالكمال المطلق، هو السميع البصير. يسمع كلّ ما يجري في الكون، وعليه، فالحوار سوف يجري بسمعه عزّ وجلّ. كما ورَدَ في قوله العزيز:

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ (١٥) فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٦) أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٧)﴾ [الشعراء].

«أيّ اذهب أنت (يا موسى) وهارون بالبراهين والمعجزات الباهرة ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ (١٥)﴾ [الشعراء] أي: فأنا معكما بالعون والنصرة أسمعُ ما تقولان وما يجيبكما به، وصيغة الجمع «معكم» أريد به التثنية، فكأنّهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع تشريفاً لهما وتعظيماً ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء] أي فأتيا فرعون الطاغية وقولا له: إنّا مُرسلان من عند ربّ العالمين إليك لندعوكَ إلى الهدى ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٧)﴾ [الشعراء]،

أي أطلق بني إسرائيل من إسارِكَ واستعبادِكَ وخلّ سبيلهم...»[٢]. بالتأمّل في ذلك، نرى أن الله تعالى أرسل موسى وهارون بأمر الى فرعون، وهو اطلاق بني اسرائيل في وقت استعبادهم وإذلالهم. وكما نعرفُ، ففرعون، الذي ألّه نفسه، كان يُصدرُ الأوامر كما يريد، دون مراجعة أحد، وهو يظن أنّه الآمر الناهي بغطرسته وغروره. ولكن الآن، ففرعون بذاته هو الذي يتلقّى الأمر من الله عزّ وجلّ المتفرّد وحده بالألوهية. وذلك يعني تحدّياً له، بالتأكيد له أنه بشر، يتلقى الأوامر الصحيحة مثل كل أبناء البشرية، من الله تعالى، ويخضع لحكم الله الحقّ، تماماً مثل الآخرين. وعليه، فتأليهه لنفسه تطاول على الدين، ولا وزن البتَّة لأوامِره (أي فرعون). وفي ذلك، أول مظهر من مظاهر وضع فرعون عند حدّه من قبل رسولَيْ ربّ العالمين بموجب تكليف إلهي لهما. والرسولان هما موسى الذي نشأ وترعرع في قصر فرعون، وأخوه هارون، الذي ذهب ليشدّ من عَضُدِ أخيه أمام فرعون. وتجدر الاشارة هنا إلى أن شخصاً متغطرساً مثل فرعون، سوف يرفض التحدّي، لأن في ذلك التحدّي زعزعة لسلطته. ولكن رفضه ذاك، سوف يمر بمراحل يأملُ فيها إيقاف تحدّي موسى وهارون. فمثلاً، سوفَ يسعى لإحراج موسى، من زاوية المنِّ عليه بتربيته، ثم التطرقِ لموضوع قتل موسى للقبطيّ، وهو يعلم وقْع ذلك عند موسى. قال تعالى، حكايةً على لسان فرعون:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء].

---

(٢) الصابوني، **المصدر السابق**، ص ٣٧٦.
وتجدر الإشارة هنا إلى ان الله تعالى وجّه أمراً إلى موسى وأخيه هارون للجدال بالتي هي أحسن مع فرعون، على أساس أن فرعون رجل متغطرس، مُمعن في الكفر. راجع محمد محمود حجازي، **التفسير الواضح**، جزء ٢ (مصر: مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٩٦٨)، ص ٥٠. وطبعاً، كما ذكر سابقاً، من مظاهر غطرسته وطغيانه، قتله لأطفال بني اسرائيل من الذكور. والسبب ان الإسرائيليين رفضوا فكرة تأليهه جوهرياً. ولكن عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السُلمي الدمشقي، يُرجِع طيش فرعون ذاك، في جذوره، الى رؤيا رآها، وهي كالتالي:
«إن (فرعون رأى)... في نومه ناراً اقبلت من القِبلة، واشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني اسرائيل فسأل عن تأويلها، فقيل يخرج من هذا البلد رجل يكون على يده هلاك مصر. فأمر بذبح أبنائهم وأسرع الموت في شيوخ بني اسرائيل». عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي، تفسير القرآن، جزء ٢ (الرياض: دار ابن حزم، ١٩٩٦)، ص ٤٩٧.

أي «ألم نربِّكَ في منازلنا صبيّاً صغيراً؟ قَصَدَ فرعون بهذا الكلام المنَّ على موسى والاحتقار له كأنّه يقول: ألستَ أنتَ الذي ربّيناكَ صغيراً وأحسنّا إليكَ، فمتى كان هذا الأمر الذي تدعيه؟ ﴿وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾ [الشعراء]، أي ومكثتَ بين ظهرانينا سنين عديدة نُحسِن إليكَ ونرعاكَ... ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء/١٩]، أي فجازيتنا على أنْ ربّيناكَ أن كفرتَ نعمتنا وقتلت منّا نفساً؟ والتعبير بالفَعلة لتهويل الواقعة وتعظيم الأمر، ومراده قتل القبطيّ ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ [الشعراء]، أي وأنتَ من الجاحدين لإنعامنا، الكافرين بإحساننا. قال ابن عباس: من الكافرين لنعمتي إذ لم يكن فرعون يعلم ما الكفر... وقال الحسن: يريد إنك من الكافرين بألوهيّتي، ورجّحَ الطبري قول ابن عباس وهو الأظهر»(٣). فبماذا أجاب موسى على كلام فرعون، كما ورد في التنزيل؟:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾ [الشعراء].

أي: «فعلتُ تلكَ الفعلة وأنا من المخطئين؛ لأنني لم أتعمّدْ قتله، ولكن أردتُ تأديبه. ولم يقصد عليه السلام الضلال عن الهدى... وقال ابن عباس: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾ [الشعراء] أي الجاهلين ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء/٢١] أيّ فهربتُ إلى أرضِ مدين حين خفت على نفسي أن تقتلوني وتؤاخذوني بما لا استحقه ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ [الشعراء/ ٢١]، أي فأعطاني الله النبوة والحكمة ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾ [الشعراء] أي: واختارني رسولاً إليكَ. فإن آمنتَ سلِمتَ، وإن جحدتَ هلكتَ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾ [الشعراء] أي كيف تمنُّ عليَّ بإحسانك إليَّ وقد استعْبَدْتَ قومي؟ فما تعدّه نعمة ما هو إلا نقمة. قال ابن كثير: المعنى ما أحسنتَ إليَّ وربيتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً، أَفَيفِي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ قال الطبري: أيّ أتمنُّ عليّ أنِ اتّخذتَ بني إسرائيل عبيداً؟»(٤). إن ردّ موسى ذاك يُبيّن أنه اعترف بخطئه بقتله للقبطيّ، ولكن مع إظهار أن القتل لم يكن متعمّداً، لأنه

---

(٣) **المصدر السابق**، ص ٣٧٦.

(٤) **المصدر السابق**، ص ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

أراد تأديب القبطيّ، ولم يُرد قتله. على أنه لما عُرِفَ بأنّ فرعون وآله، سوف يتّخذون ذلك ذريعة لقتله، وهو لا يستحق هذا؛ فقد اضطر للهروب لأرض مدين، حيث أعطاه الله تعالى النبوّة في أرضه. لقد أراد أن يُظهر لفرعون بذلك الردّ، أنه إن قتل شخصاً قُبْطِيّاً، فهو يعترفُ بذلك، بل ويعترف بخطئه في ارتكاب القتل غير المقصود في إطار الندم. ولكن إن اعترفَ هو بقتل شخص واحد بغير عمد، وندِم، ففرعون استعبدَ فئة، وأذلّها، وقتل منها مَن قتل، وهو يظن أنّ ما يفعله مشروع. والمبدأ الأزليُّ هنا، هو أن الشخص المتألّه، يبطش ويقتل حتى الأطفال، ولكن ومع كل ذلك، فلا يرى إجرامه، بل يظنّه مشروعاً، ثم إن سَمِعَ بِشخصٍ مُسالم (مثل موسى)، وأدّت وكزة منه بلحظة انفعال وتعجّل (والتعجل غير محمود) لقتلٍ غيرِ مقصود، يُسارع لإشعال النيران ضدّه والإيحاء بقتله دون محاكمة. صحيحٌ أن موسى أخطأ بتسرّعه في قتل القبطيّ وما نجم عن ذلك من كارثة؛ ولكنّه أخذ ذلك كعِبرةٍ ودرس له، لكي لا يكون ظهيراً للمجرمين، بعد أن ندِم واستغفر ربّه ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص]. . . ولما أراد أن يبطش بالقبطيّ الآخر عن تسرّع، مرة أخرى، تراجع كلّ التراجع. أمّا فرعون، فقد استمر ببطشه بالضعفاء دون أي وازع ضمير، متحدّياً كل مَن يقف لمجابهته. وهكذا مضى فرعون في تحدّيه لموسى كرسول، بعد أن سَمِع من موسى ما سمع. ويتمثّل ذلك التحدّي في السؤال الآتي الموجّه منه لموسى، كما ورد في التنزيل:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء].

«أي قال فرعون متعالياً متكبِّراً: مَن هو هذا الذي تزعم أنّه ربّ العالمين؟ هل هناك إله غيري؟ لأنه كان يجحد الصانع ويقول لقومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص/٣٨][٥] بمعنى ان فرعون طرح السؤال، وهو يظن بغطرسته وجهله أنه المتفرّد بالألوهية؛ وهنا وقعت على موسى مسؤولية إظهار معنى التفرّد بالألوهيّة لفرعون، كي يدرك محدوديّته البشريّة، فقال كما ذكر القرآن الكريم:

(٥) المصدر السابق، ص ٣٧٧.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء].

«أي قال موسى: هو خالق السماوات والأرض، والمتصرّف فيهما بالإحياء والإعدام، وهو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونباتٍ وثمار، وغير ذلك من المخلوقات البديعة ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء]، أي إن كانت لكم قلوبٌ مؤمنةٌ، وأبصارٌ نافذة. فهذا أمر جلي»[٦] في ردّ موسى على سؤال فرعون ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء]، فهو يُظهر له بأن التفرّد بالألوهية مرتبط بخلق الكون، وكل ما فيه. وذاك أمر لا يُنسب إلا للإله الواحد الأحد، الذي خلق السماوات والأرض، وكل ما فيهما. والذي ينظم شؤون العباد كلها، ويدبر أمورهم بعلم غير محدود، وحكمة بالغة. وبهذا أراد أن يُظهر لفرعون، انه بدوره كبشرٍ محدود، يخضع لله عزّ وجلّ، الحاكم المطلق للكون، وخالقه.

ويُبين له، في الوقت نفسه، أنّ الله تعالى عالم بكل أفعال فرعون وأحواله، وأن تأليهه لنفسه باطل حقاً، وأنّه غير مدرك لتلك الحقائق، من منطلق جهله بالأشياء. فلو لم يكن كذلك، وكان مُبصراً، مُتدبّراً بها، لرآها في منظارها الصحيح؛ ولَعلِمَ عندها أنه بشر، لا إله؛ وأن الألوهية لربّ السماوات والأرض وما بينهما. هذا، وكان فرعون يستمع لردّ موسى بحضور من مَلَئِهِ، فبماذا أجاب؟

﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴿٢٥﴾﴾ [الشعراء].

«أيّ قال فرعون لمن حوله من أشراف قومه على سبيل التهكّم والاستهزاء: ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته»[٧]. من الواضح أنّ فرعون كان يشعر بالحنق إزاء ردّ موسى عليه، الذي يكشف به عن جهل ذلك الحاكم، بأسلوب متّسم بالمنطق، مدعَّم بالدليل والبرهان. ولذا أراد ان يحوّل الموقف ضدّه، بحيث يحاولُ إظهار موسى كالجاهل بهذه الأمور؛ وكأنه يعمل على شنّ هجوم شخصي عليه (أي على موسى). وهو أمر متوقع من فرعون. ففرعون المتغطرس، الذي لا يمتلك مقوّمات الحوار (لأن التغطرس وليد

---

(٦) **المصدر السابق**، ص ٣٧٧.
(٧) **المصدر السابق**، ص ٣٧٧.

الجهل، والحوار يحتاج الى خزينة فكرية صحيحة)، رأى أن لا سبيل أمامه، بأحواله المتردّية تلك، الا أن يضع عبء الجهل الذي يتسمّ به، على كاهل موسى، وموسى يفوق أي انسان آخر ـ في زمانه ـ بعلمه، كرسول؛ لذلك لم يهتمَّ لسخرية فرعون منه؛ وربما رأى فيها محاولة لإيقافه عن الحوار. فواصَلَ حواره:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء].

«أي: هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم، عَدَلَ عن التعريف العام الى التعريف الخاص لأنّ دليل الأَنْفُسِ أقربُ من دليل الآفاقِ، وأوضح عند التأمل ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات/ ٢١]»[٨]. إن جواب موسى هذا، زاد في استثارة فرعون ضدّه. وازاء ذلك، تهيّأ له، أنّ هجوماً شخصيّاً أكبر عليه، قد يَحُولُ دون مواصلته (أي موسى) للحوار، الذي يبيّن لفرعون فيه، بالدليل والبرهان، أنه بشر، مخلوق من ربِّ العالمين. وبهذا الاطار، اتَّهَم فرعونُ موسى بالجنون، كما كان يفعل مستكبرو الأقوام المُهْلَكَةِ سابقاً، في اتّهامهم الانبياءَ، بالجنون. على ان اتّهام فرعون لموسى، ورد ذكره في الآية الكريمة التالية:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء].

«سمّاه رسولاً استهزاء... أي إنّ هذا الرسول... لا عقل له، أسألُهُ عن شيء فيجيبني عن شيء، فلم يحفل موسى بسخرية فرعون وعاد الى تأكيد الحجّة، بتعريف ثالث أوضح من الثاني»[٩] فقال كما ورد في التنزيل:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء].

في هذا القول، يُبيّن موسى لفرعون، بأنّ الله تعالى هو المسيِّر لحركتي الشروق والغروب، اللتين تأخذان مكاناً كل أربع وعشرين ساعة. وذاك أمر مرئي له، ولملئه، وللنّاس أجمعين. فهل يستطيع هو بذاته تسيير حركتي الشروق

---

(٨) **المصدر السابق**، ص ٣٧٧.

(٩) **المصدر السابق**، ص ٣٧٧.

والغروب؟ طبعاً، ذاك أمر مستحيل. إذاً، فهذا دليل آخر على بشريّته. فأمْرُ الشروق والغروب لا يَقدِرُ عليه إلا الله، ربّ السماوات والأرض، ربّ الناس. ولكن إدراك ذلك، لا يجتمع مع جهل فرعون وغطرسته. ففرعون لا يعي أنّه بشر محدود، يخضعُ لنظام حركتي الشروق والغروب، المُسيّرتين من قبل الله الواحد الأحد، خالقه. ولا يعي أن المُسيِّر، لهاتين الحركتين بنظام واتّساق تام، عالِمٌ بكلّ تحركاته، كحاكم ألّه نفسه بتطاول على الدين، واستكبر في الأرض بغير حقّ. وبهذا، جمع موسى ما بين كل الدلائل والبراهين الدامغة، التي تدحض تأليه فرعون لنفسه دحضاً. وتبيّن أنّه، من غير الممكن لموسى، تحت أي ظرف، أن يخضع لفرعون. وأنّ، خضوعه التام، هو لله عزّ وجلّ، ربّ الكون، والناس، وربّ المشرق والمغرب. وبموقف موسى ذاك، فقد طار صواب فرعون، وانتقل الآن من مرحلة السخرية منه، فاتهامه بالجنون، الى مرحلة تهديده:

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

«أيّ لئِن اتخذتَ ربّاً غيري لأُلقِينَّكَ في غياهب السجن. قال المفسرون: وكان سجنه شديداً يَحبِسُ الشّخص في مكانٍ تحت الأرض وَحْدَهُ لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً، حتى يموت؛ ولهذا لم يقل «لأسجننك» وإنما قال لأجعلنك من المسجونين لأنّ سجنه كان أشدّ من القتل»[١٠].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه من المتوقع من طاغية كفرعون أن يهدّد موسى بالسجن، للحفاظ على كرسيّه. وإظهار فرعون عجزاً عن النقاش مع موسى، حجّةٌ عليه. فرعون يدّعي العقلانية ويسعى إلى اتّهام موسى بالجهل، وموسى يحاوره؛ ومدار الحوار يثبت أنّ الجهل صفة فرعون. لذا، رأى موسى، أنّه لا بُدَّ من الإمعان في إحراج هذا المتغطرس:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء].

سوف يَفي بالغرض، ففرعون الذي يحاول الظهور أمام ملئه كشخص عقلاني، لن يقول «لا»، لموسى باستفساره «أتسجنني ولو جئتك بأمر ظاهر، وبرهان قاطع

---

(١٠) **المصدر السابق**، ص. ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

تعرف به صدقي»[11]. لانه لو قال «لا»، فسوف تظهر حقيقته كشخص غير منطقي أمام الملأ. إذ يبدو انهم لم يفهموا نقاش موسى الموجَّه له بالشكل الصحيح. ولذا، وربما لإبقائهم على عماهم، حتى يمضوا في معاضدتهم وولائهم له، فقد وافق على طلب موسى:

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء].

وهنا أتى موسى بما يقول بفعل الآتي:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء].

ولكن بالرغم من رؤية فرعون لتلك المعجزتين، إلا أنه لم يُبْدِ تصديقاً لهما، بل وجّه اتهاماً لموسى بالسِّحْر. وتجدر الاشارة هنا الى أن مبعث ذلك جهل، وعناد، وحبّ للمنفعة، وتخوّف من كشف أمره؛ ما سيؤدّي إلى خسرانه للسلطة وللسيطرة على حاشيته. وعند تلك النقطة، ربط فرعون اتهامه لموسى بالسحر، بتهمة ملفّقة أخرى، محورها تخويف اشراف قومه من سحره الرامي، بموجب ادّعائه، إلى إخراجهم من مصر، والحلول مكانهم. وممّا لا ريب فيه أن فرعون كان يتطلّع لأكبر مدى من معاضدة الأشراف له، في معركته مع موسى. ومع ذلك التطلّع، غيّر سريعاً بعض سياساته بالتعامل مع الملأ. فبعد أن كان يتعامل معهم، بلغة اصدار القوانين، والأمر بتنفيذها، وقد ألّه نفسه، نراه مرة واحدة، قد توجّه الى لغة التشاور معهم، بصدد موسى، كما يظهر بالآتي:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء].

وتجدر الاشارة هنا، الى أنّ اشراف قومه تجاوبوا معه. وربما نبعَ ذلك التجاوب من تصديقهم إيّاه. وقد أوهمهم بعظم شأنه، لما ادّعى الالوهيّة؛ أو ربّما تَشَكَّكُوا في كلامه، على أساس أنهم رأوا، وإياه، المعجزتين. ولكن، وعلى الرغم من تشكيكهم بكلام فرعون، فقد اشاروا عليه، صوناً لمصالحهم، بالآتي:

---

(١١) **المصدر السابق**، ص ٣٧٨.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧﴾ [الشعراء].

وإشارتهم تلك، تحمل في طيّاتها كَيْداً لموسى وهارون، لما للسِّحر أحياناً من تأثير نفسي. وربما تراءى لهم، أنَّهم بجمع السَّحرة من كل مكان من دولة فرعون، ليرموا حبالاً، وعصيّاً مصمَّمة خصيصاً لإيهام موسى، فقد يُؤخذ بالمنظر، فيظن أنه لن يقدر على فرعون بالنتيجة. فينسحب من الميدان، ويتوقّف عن طلبه بإخراج بني اسرائيل معه من مصر. وبذلك تحلّ مشاكلهم، وتزول مخاوفهم، وتبقى الأحوال على ما هي في مصر، باعتقادهم. وبهذا الاطار، تُظهرُ القصة القرآنية، توجُّهَ فرعون لإرسال من يُرسل، لشتّى بقاع دولته، لجمع كل ساحر معروف بالمهارة، لمباراة قادمة مع موسى. على أنّ تلك المباراة ونتائجها، تشكّل موضوعاً للبحث في الفصل القادم من هذه الدراسة.

الفصل الخامس

اهتزاز سلطة فرعون كنتيجة للمباراة بين موسى وهارون والسحرة

١ ـ جهاز الحكم الفرعوني وأهميّة دور السحرة فيه

قبل الكلام على الأحداث المتعلّقة بجمع السَّحَرَةِ في دولة فرعون، لمجابهة موسى، كما وردتْ قرآنياً، يجب أن نضيف، لِما ذكرناه سابقاً، عن نظام الحكم الفرعوني في مصر أيام موسى، الآتي: يقفُ على رأس الدولة، فرعون. وفرعون لقب.. وهو يجمعُ السلطات التشريعية والتنفيذية في يديه. ولا يَبني قراراً على المشاورة إلاّ في الملمّات التي قد تؤثر عليه شخصياً، إن لم يحصل بظنّه على مساندة قوية من مَلَئِهِ. وبعده، تأتي طبقة الأشراف، وهي المتوليّة للشؤون الحكومية في الدولة، والمنفِّذة لها بناء على الأوامر الفرعونية. ويساند فرعون وحكومته جيش موالٍ تماماً للسلطة، يترأسه قائد، يُدعّم فكرة فرعون في تأليه نفسهِ كلّ التّدعيم، يعاونه أشراف الدولة، في ذلك الجانب. إذاً، نحن أمام بناءٍ هرميّ يقف فرعون على رأسه كَمُدَّعٍ للألوهيّة، فالأشراف، فالجيش بقائده. وذاك يعني أن الكفر هو المهيمن على جهاز الحكم كلّه. وكقاعدة، في أحوال كهذه، لا بدّ أن يؤدّي السَّحرة دوراً. فيشكّلون طبقة من الكهنة هدفها إعطاء شرعية لادّعاء فرعون تأليه نفسه، عِلْماً أنّ بسطاء الناس فكراً، يميليون الى تصديق السحرة عادة. ومن هنا، يمكننا القول بأنّ فرعون مع مَلَئِه، تطلّعوا للمباراة بين موسى والسّحرة، وربما رأوها كالنافذة التي تخرجهم من مخاوفهم تجاه موسى. وبناء على ذلك، فمن الواضح ان فرعون زاد في توثيق روابطه بالسّحرة، وهو يتطلّع لمعونتهم القصوى له، في المباراة القادمة لهم مع موسى. ومن الجليّ أيضاً، أنّهم أحسّوا بثقلهم

ووزنهم كعاملٍ أساسي في دولة فرعون، خصوصاً مبالغة السلطة في إظهار أهميتهم، بحيث تتعدّى السائد المعروف. ومن الواضح أيضاً أن السّحرة أحسّوا بأهميتهم تلك. فنحوا نحو استغلال الموقف بهدف زيادة الكسب المادي، كما يتمثل في الآتي:

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢)﴾ [الشعراء].

«أي قيل للناس، بادروا الى الاجتماع لكي نتّبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١)﴾ [الشعراء] أي إن غلبنا بسحرنا موسى فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل. «قال لهم فرعون: نعم أعطيكم ما تريدون، وأجعلكم من المقرّبين عندي ومن خاصة جلسائي»[١]. إذاً، ها نحن أمام طرفين يرتبطان بمنافع شخصية: فرعون وجهاز حكومته يسلّطون كل أبواق دعايتهم لتوجيه أنظار الجمهور نحو السَّحرة، بشكلٍ مُبالغ فيه يتخطّى العادي بالنسبة لسياساتهم السابقة؛ وبالمقابل، ها هم السحرة، يتطلّعون لفعل كلّ ما بوسعهم لتحقيق الغلبة على موسى وهارون. وهم يتطلّعون لمكاسب دنيوية. وفعلاً، جهّزوا أنفسهم، بوضع كافة إمكاناتهم في تلك المباراة. ولكن ما موقف موسى ازاء تلك التحرّكات كلّها. أكان موقف صمت؟ أم موقف تحرّكٍ من جانبه، خصوصاً أنّه على يقين تامّ بالعَوْنِ الإلهي له؟ طبعاً كان موقفه موقف تحرّك، ولكنه ليس تحرّك الباطل الذي سيطر على معسكر فرعون وسلطته وسحرته، بل تحرّك الحقّ، الذي يحمل في طيّاته قوة روحيّة معنويّة. فها هو مع أخيه، أمام كل تعبئة فرعون ودولته، يعلو صوته بتوجيه نصيحة وانذار للسحرة بسوء العاقبة، إن لم يرتدعوا، ويكفّوا عن تدجيلهم، المنافي للحق:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١)﴾ [طه].

---

(١) الصابوني، **المصدر السابق**، ص ٣٧٩.

«أي قال موسى للسحرة لمّا جاء بهم فرعون: ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴿٦١﴾﴾ [طه]، أي خسر وهلك من كذّبَ على الله.. قدّم لهم النصح والإنذار لعلّهم يثوبون الى الهدى. ولمّا سمع السّحرة منه هذه المقالة هالهم ذلك ووقعتْ في نفوسهم مهابته، ولذلك تنازعوا في أمره»[٢]. ان كلام موسى للسحرة، المقدم في اطار النصح الممتزج بإنذارٍ، يهدف الى وضع الحقائق أمام السحرة قبل المباراة، وهي أنّهم محتالون، يخدعون الناس. ولكن، لو انطلى تدجيلهم على عقول بسطاء الناس، فهو مكشوف لله عزّ وجلّ، المحيط علمه بكل شيء. كذلك فإنّ موسى يبيّن لهم أنّ النّصر لن يكون حليفهم أبداً، مهما أنجزوا من حيل قائمة على الكذب؛ وأنهم لن ينالوا إلا سوء العاقبة، وهي الهلاك. فبما أنّ سنن الحياة قائمة على الحقّ، فالله تعالى يُبطل الباطل، مهما بلغ عدد أصحابه، ومهما بلغوا في قوّتهم المادّية. وازاء ذلك، رأى السحرة وجوب عقد اجتماع فيما بينهم، للتّشاور في أمر التدابير الممكنة لمجابهة موسى، للحصول على الظفر الذي تطلّعوا إليه. وفي الاجتماع ذاك، اختلفوا في أمر موسى:

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴿٦٤﴾﴾ [طه].

في اختلاف السحرة بشأن موسى، قال فريق منهم: «ما هذا بقول ساحر وأخفوا ذلك عن النّاس»[٣]. وهذا يعني ان ذلك الفريق أدرك الحقيقة. ولكن إدراك الحقيقة شيء، والعزوف عن العمل بها شيء آخر. وقد اختار هؤلاء العزوف عنها، بالإصرار على المباراة، وهم يتطلّعون الى المكاسب الدنيوية المنتظرة لهم، من قبل فرعون، انْ فازوا. وهكذا نرى كيف أنّ الاثرة أو الأنانية تجرّ أصحابها، نحو الزيادة في التكذيب، وإخفاء الحقيقة في صدورهم؛ فتعمى أعينهم عن إدراك سوء العاقبة. فبعد مشاورة بين السّحرة في اجتماعهم، اتفقوا على الاعلان الآتي، المبني

---

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٨.

على باطل من جانبهم: «ما هذان (أي موسى وهارون) إلاّ ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بهذا السحر ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه] أي غرضهما إفساد دينكم الذي أنتم عليه والذي هو أفضل المذاهب والأديان قال الزمخشري. . . فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويده خوفاً من غلبة موسى وهارون لهما، وتثبيطاً للناس من اتباعهما ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه] أي احكموا أمركم واعزموا عليه ولا تتنازعوا وارموا عن قوس واحدة، ثم ائتوا الى الميدان مصطفّين ليكون أهيب في صدور الناظرين. . . فاز اليوم مَن علا وغلب قال المفسّرون: أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة مع التقريب والتكريم. . .»[٤]. إذاً، انضمّ السّحرة الى السلطة في حركة اعلانية موجّهة نحو استمالة أكبر قدر من الناس قبل المباراة. وذلك بايهامهم بأنّ موسى وهارون ساحران، يريدان اخراج القوم من بلادهم، من خلال قلب الأوضاع والأحوال فيها، والتي ادّعوا أنها، الأمثل بالنسبة للنّاس. فكأنهم يحرّضون النّاس مُقدّماً على تكذيب فرعون وأخيه في المباراة، واتهامهما بالسحر المدمّر لأمن الدولة. وذلك حتى يبيت فرعون وأشراف دولته وجيشه مع الناس كلّهم في جانب، وموسى وهارون في جانب آخر. هذا، ولإيهام أكبر، وتأثيرٍ نفسيّ أوسع على الناس، خدمة لهذا الغرض، تمّ الاتّفاق على إتيان السحرة بنظام للميدان في بوتقة الاصطفاف. والاصطفاف يوهم عادة بكثرة العدد، علماً بأن كثرة العدد بدورها، تحمل تأثيراً على بسطاء الناس. . . وقد ظنّ السَّحَرة أنّ مثل تلك الأساليب تُحقق لهم الفوز والغلبة على موسى وهارون، ويحقّقون ما يصبون إليه من المكاسب المادية. إذاً، فالمشهد كلّه، كالآتي:

٢ ـ مشهد المباراة

هناك فريقان: فريق الدولة، وهو مُشكَّل من أكثر السحرة علماً بفنّهم، يقفُ بنظامٍ في صفٍ واحد؛ ثم الفريق المعارض لفرعون بفكرة التأليه، والمكوَّن من موسى وهارون. وكلاهما على استعداد للمباراة، إضافة الى وجود مشاهِدِين هم

(٤) المصدر السابق، ص ٢٣٩.

فرعون وأعيان دولته، وحَشْد من الناس. ويوم المباراة، يوم عيد، باختيار موسى. فموسى يتطلّع لإظهار الحقّ أمام الجمهور بمعجزتيه، في حين ان فرعون يتطلع لفوز السحرة في ما دبّروه من مكْر معه، أمام الناس. وهكذا، باتت السّاحة، كأنها تنتظر لحظات التفريق ما بين الحق والباطل. الحقّ بعلمِ موسى المؤيّد بالمعجزات الإلهيّة، والباطل بغطرسة فرعونَ وجنده وسحرته. وفيما بين هذا وذاك، تلوح في الأجواء كوامن مفاجآت، مدبّرة من السماء، لتسيير الأحداث من خلال توجيه ضربات قوية لفرعون وآله، كإنذار لهم، بأن المسيرة التاريخية، لا تخضع لكلماتهم وتدابيرهم مهما أُحكِمتْ، بل تخضعُ لله عزّ وجلّ، لإثباتِ كلمته هو، تعالى، ومَحْق كلمة المستكبرين. ذلك هو المشهد العام. فماذا جرى من أحداث يوم المباراة، والفريقان المتباريان ينتظران ما ينتظرانه؟ هنا، فتح السحرة المباراة كما ورد في التنزيل:

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه].

أي «إما أن تبدأ أنتَ بالإلقاء أو نبدأ نحن؟ خيَّروه ثقةً منهم بالغلبة لموسى لأنهم كانوا يعتقدون أنّ أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان»[٥]. ولو انهم أقدموا على كلامهم هذا عن استكبار واستعلاء، وثقة نابعة من ذلك الاستكبار بالفوز، الا ان قولهم ذاك، كان هو المراد بعينه من موسى. فالمعجزة التي أيدّ الله تعالى بها موسى، أيْ معجزة رمي عصاه، وتحوّلها الى ثعبان كبير، لالتهام كلّ ما في طريقه من خشب، تتطلب أن يُقْدِمَ السَّحرة أوّلاً، على رمي ما حضّروه من حبال وعصي من جانبهم. وذلك لتحقيق الهدف من إظهار المعجزة الإلهية، والتفريق بينها وبين السحر، أمام الناس. ويتمثّل ذلك بقوله تعالى:

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه].

٣ ـ نتائج المباراة

طلب موسى من السحرة البدء في إلقاء حبالهم وعصيّهم. فحاولوا تقليده في

(٥) **المصدر السابق**، ص ٢٣٩.

مسألة العصا التي تحوّلت الى ثعبان، دون إدراك منهم بأن ما أفاضه الله تعالى عليه يقع في حيز معجزة تحويل الجماد إلى كائن حيّ، فالحيّ إلى جماد كما كان، لإظهارِ أنّ الله تعالى هو الخالق والمميت للأشياء، ضمن أمور أخرى شرحناها سابقاً. ويُروى في كتب التفسير أنّ السحرة جعلوا للعصي رؤوساً، تشبه رؤوس الحيّات باتقان. والهدف من ذلك، هو انه لمّا يُلقوا عصيّهم مع حبال، فيتراءى للناظر بخدع السحر، ان رؤوس الحيات المحفورة في الخشب، هي حيّات حقيقية. فعندئذ يخاف موسى ويضطرب. وفعلاً، بموجب طبيعة موسى البشرية، فقد اعتراه الخوف. ولكن الله تعالى، أزال ذلك الخوف من قلبه، حيث ثبّتَ إيمانه، وأكدّ له ان النصر حليفه، آمراً إيّاه بالإسراع في إنجاز ما علّمه إياه، برعايته السماوية. وذلك كله يظهر في قوله العزيز:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه].

«أي ألْقِ عصاكَ التي بيمينكَ تبتلعْ بفمها ما صنعوه من السحر... إن الذي اخترعوه وافتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر... [ولا] يسعد الساحر حيث كان ولا يفوز بمطلوبه لأنه كاذب مضلل»[٦]. وبذلك ألقى موسى عصاه، فتحوّلت ثعباناً كبيراً «ذا قوائم وعُنق ورأس، وأضراس، فجعلتْ تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تُبقِ شيئاً الا ابتلعته. والناس ينظرون الى ذلك عِياناً نَهاراً، فلما عايَنَ السّحرة ذلك وشاهدوه، علموا علم اليقين أنّ هذا ليس من قبيل السحر والحِيَل، وأنّه حتى لا مِرْيَةَ فيه، فعند ذلك وقَعُوا سُجَّداً لله، فقامت المعجزة واتّضح البرهان، ووقع الحقّ وبطل السِّحر، قال ابن عباس: «كانوا أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء بَرَرَة»[٧]. وهكذا اخزى الله فرعون وجنده أمام الناس، وأظهر لهم أنّ رفعتهم ورفعة دولتهم تكمنان في الدّين، لا في السّحر. فالسحر تدجيل وخداع دحضتهُ المعجزة دحضاً. والسحرة، لا يمكنهم ان يقفوا ضدّ الدين، من أجل تدعيم سلطة

---

(٦) **المصدر السابق**، ص ٢٣٩.

(٧) **المصدر السابق**، ص ٢٤٠.

مطلقة لحكم قائم على التأليه. وحتى السحرة هؤلاء، الذين اعتمد عليهم فرعون، وظن انهم سوفَ يجلبون له الغلبة، أُخِذوا بهول المعجزة، وفاضت أفئدتهم بالخشوع لله عزّ وجلّ، فسجدوا بإيمان لربّ هارون وموسى. وهكذا انسلخوا عن فرعون، عن عقيدة وإيمان، فلم تنتهِ المباراة التي بذل فيها فرعون ما بذل من دعاية، الا لغير صالحه، مع جهاز حكمه. وقويَ بالمقابل، موسى وهارون بتلك الفئة المنسلخة عن فرعون، بالرعاية الإلهية.

طبعاً، حادثة كتلك، هزّت فرعون وسلطته. فانسلاخ تلك الفئة، بالرغم من تكريم السلطة لها (لأنّ أفرادها يُشكلون جزءاً منها) قد يفسح في المجال لآخرين للخروج على فرعون وآله. وذلك يعني ازدياد مخاوف فرعون من القوة الناشئة ضده بزعامة موسى وهارون، بسبب إمكانية تشكيل خطر على وجوده لاحقاً، خصوصاً إن وصل موسى الى التمكّن من اخراج بني إسرائيل من مصر، رغماً عن إرادة فرعون في إبقائهم أذلاّء تحت حكمه. ومع تفاقم مخاوف فرعون نظراً للظروف الجديدة المتجسدة في انسلاخ السحرة عنه، كان من المنتظر قيامه بمحاولة ما، للإبقاء على مهابته أمام الناس. وطبعاً، إنّ شخصاً بنفسية فرعون لا يمكن أن يكون تحرّكه سلمياً، بل سوف يكون موجهاً، نحو الوعيد والتهديد للسَّحرة، محاولاً إدخال الخوف في أفئدتهم، وهذا هو ما حصل بالضبط، ويظهر ذلك، من قوله تعالى:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه].

«أي قال فرعون للسَّحرة: آمنتم بموسى وصدّقتموه بما جاء به قبل أن أسمح لكم بذلك وقبل أن تستأذنوني... إنه رئيسكم الذي علّمكم السحر فاتّفقتم معه لتذهبوا بملكي. قال القرطبي، إنما أراد فرعون بقوله هذا أن يُلْبِسَ على الناس حتى لا يتّبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم، ثم توعّدهم وهدّدهم بالقتل والتعذيب فقال... أي فوالله لأقطّعن الأيدي والأرجل منكم مختلفات، بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو بالعكس... [ثم] لأعلّقنكم على جذوع النّخل وأقتلنكم شرّ قتلة...

ولتعلمُنّ أيّها السّحرة من هو أشدّ منّا عذاباً وأدْوَم، أأنا أم ربّ موسى الذي صدّقتم به وآمنتم»[8].

من الواضح أنّ فرعون يهدّد السّحرة بأنه سيبدأ ببتر اليد اليمنى مع الرجل اليسرى للواحد منهم، حتى يعجز عن التحرك كلية. ولكن لن يكتفي بذلك التعذيب لهم، بل سوف يمضي في تعليق الواحد منهم على جذوع النخل وقتله بقسوة مع الآخرين.. هدّدهم فرعون بذلك، لإظهار أنّ عذابه لهم، أشدّ من عذاب ربّ موسى وهارون، الذي سجدوا له. بغطرسةِ فرعون المبنيّة على جهل بحقائق الأشياء، ربّما تراءى له، ان الدنيا تسير على هواه بالنتيجة، وأنه قادر، بما يمتلكه من قوّة مادّيّة للتصرّف بمصير السحرة كما يشاء. وهو غير مدرك أن مصيره ومصير السحرة والناس أجمعين بيد الله عزّ وجلّ... وغير مدرك أن العذاب الإلهيّ للمُسْتَحِقّين من الناس، لا يأتي عن ظلم أبداً، بل هو عقاب لسعيهم. فحساب الله للناس قائم على العدل المطلق، وموجّه نحو إرساء قواعد الحقّ والعدل. ومن الجليّ أن السحرة كانوا متفهّمين لتلك الحقائق الروحية، ومن هنا، لم يُظهروا أيَّ تخوّف من تهديد فرعون، بل أبرزوا إصراراً على الخضوع التام لربّ موسى وهارون، كما يتمثل في قوله عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه].

«أي قال السحرة: لن نختاركَ ونفضّلك على الهدى والايمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه/ ٧٢] قسم بالله، أي مقسمين بالله الذي خلقنا... فاصنع ما أنت صانع... إنّما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا وهي فانية زائلة ورغبتنا في النعيم الخالد... آمنا بالله ليغفر لنا

(٨) المصدر السابق، ص ٢٤٠.

الذنوب التي اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصي... ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور الله... والله خير منك ثواباً وأبقى عذاباً، وهذا جواب قوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه] ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾ [طه/ ٧٤] هذا من تتمة كلام السحرة عظة لفرعون أي مَن يلقى ربّه يوم القيامة وهو مجرم باقترافه المعاصي وموته على الكفر، فإنّ له نار جهنم... لا يموت في جهنّم فينقضي عذابه، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة... ومَن يلقى ربّه مؤمناً موحّداً وقد عمِل الطاعات وترك المنهيّات... فأولئكَ المؤمنون العاملون الصالحات لهم المنازل الرفيعة عند الله ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [طه/ ٧٦] بيان للدرجات العُلى، أي جنّات إقامة ذات الدّرجات العاليات.. تجري من تحت غرفها وسورها أنهار الجنة... ماكثين في الجنّة دَوْماً لا يخرجون منها أبداً... وذلك ثواب مَن تطهّر من دنس الكفر والمعاصي...»[٩].

إذاً، فالآيات (٧٢ ـ ٧٣) من سورة طه، تعطي صورة حيّة عن الفرق بين حقل الكفر، وميدان الإيمان، كما أتتْ من أشخاص تحوّلوا سريعاً نحو طريق الحقّ، لـمّا رأوا معجزة موسى. ثم تبيّن أثر الإيمان في تزويد الإنسان بقّوة روحيّة معنويّة هائلة، وجرأة في قول الحقّ، دون اكتراث لوعيدٍ أو تهديد بشريّ. فحتى العذاب الدنيوي الذي قد يطبّقه الطاغية فرعون، فَقدَ وقعه في أعين السحرة. فذاك لم يكن الشغل الشاغل لهم. فالشغل الشاغل تجسّد في ندم السحرة على ما فات ممّا أوقعوا به أنفسهم من تدجيل، لمنع التيّار الروحيّ من أخذ مكانه، وإبقاء الانحلال الروحي والاجتماعي والأخلاقي على ما هو في دولة فرعون. علماً أن الإصلاح كان مُتَطَلَّباً، خصوصاً مع تأليه فرعون نفسه، وهو بشر محدود كغيره فَانٍ يخضع

---

(٩) **المصدر السابق**، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.
ومن الجدير ذِكره، عند تلك النقطة، ان الدين هو أساس الرُّقي في المجتمع. وقد اهتم بهذا الموضوع، مفكرون كثر، منهم على سبيل المثال، المفكر مصطفى صادق الرافعي، فقال: «والدين هو حقيقة الخلق الاجتماعي في الأمّة، وهو الذي يجعل القلوب كلّها واحدة على اختلاف المظاهر الاجتماعية عالية ونازلة، وما بينهما، فهو بذلك الضمير القانوني للشعب». مصطفى صادق الرافعي، من وحي العلم، جزء ٣ (بيروت: دار الكتاب العربي، لا. ت)، ص ٣٨. ومن هنا نرى مدى حكمة السحرة بالخضوع لله عزّ وجلّ اضافة لما تقدّم ذكره أعلاه.

للموت، فالبعث، فالحساب، مثل باقي أبناء البشرية. وعند هذه النقطة، تُبرِز الآيات أهمية الإيمان في الرؤية الزمنية في المسيرة الدنيوية، وأثرها في إدراك الحقّ والسعي من أجله. فقد تمكّن السحرة، لـمّا تحوّلوا للإيمان، من العلم التام بأن الوقت الذي يقضيه الانسان في الأرض، قصير؛ وأنّ الخلود هو في الآخرة. ومن هنا، فالدنيا هي دار الأعمال التي يخضع حساب الانسان لأعماله فيها، إنْ خيراً فخير وإنْ شرّاً فشر. وهنا، نجد في وضع السحرة أمام فرعون، وصفاً حيّاً لجهنّم والجنّة. جهنّم لا يموت فيها المجرم ولا يحيا، في حين أن الجنة، مكانٌ للسعادة الدائمة للمؤمنين. وبذلك، بيّنوا لفرعون أهمية التوحيد، وسوء عاقبة تأليهه لنفسه، مع تأكيد له بأن تقديم طاعتهم لفرعون، خوفاً منه، بعد ان رأوا ما رأوا، أمرٌ مرفوض تماماً، كما ذُكِر سابقاً.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن المباراة كلّها تبين، في الإطار الأزلي، أن وجود شخصيات بنفسيةِ وتوجهاتِ فرعون أمرٌ حاصل. إن الواحد من هؤلاء يخرج عن الحدود التي تقيّده كبشر، انطلاقاً من طبيعته الانسانية. فيستكبر، والشيطان يُغذّي استكباره ذاك، ويُزيّن له وجوبَ فرض نفسه فرضاً على التاريخ، وكبت أو قمع كل انسان مؤمن، عالم مُبصر بحقائق الأشياء، يسعى لتحويل المجرى التاريخي نحو الأفضل. وفي سبيل ذلك، يستخدمُ الطاغية أساليب شتى، تبدأ من السخرية من الشخص الذي يسعى لإحقاق الحق بعلمه الروحي، ومنطقه، وتمتدّ حتّى اتّهامه بالجنون، فالتهديد والوعيد. ويلتوي الطاغية، وينحرف، ويرفع فئاتٍ بمصالح ومنافع مشتركة على حساب فئات مظلومة أخرى. ويُسلِّط كل أبواق دعايته نحو تأكيد كلمتهِ في الباطل. وذلك لِبَهْرِ الناس، وكسب تأييد البسطاء. وكقاعدة عامة، فإن أصحاب العلم الحقّ والإيمان، هم الذين يدركون تماماً أنّ موازين الفوز والنجاح تخضع للمبادئ، لا للأعداد البشرية، مبادئ التوحيد، والعدل، والمساواة. وبما أن تلك، هي جوهر الرسالات السماوية كلها، فالمُعين لأصحاب الإيمان، في سعيهم لإرساء قواعد الروح والأخلاق، والمعرفة الحقّة، هو الله عزّ وجلّ. والله هو الغالب على أمره. هو عزّ وجلّ يُهيّيء وسائل للمخلصين له في إيمانهم، وسائل منطقية خارجة كثيراً عن علم المستكبرين. وبها يستطيعون، ولو

أنهم قِلّة، التصدّي للكثرة، بأساليبها المحدودة، ابتداء من السخرية حتى التهديد والوعيد (مثلما صدر عن فرعون لسحرته)، بل وإبطال تلك الأساليب بالمعرفة الروحية المصطحبة بقوة في النقاش والإقناع. فمع تلك القوة، تذوب سخرية، الفريق المعتزّ بقوة الدنيا وتهديده ووعيده، فيبدأ بالتقهقر بغير شعور منه. وكلما تقهقر، يضعُف، ويعجز عن تنفيذ تهديداته. وبالمقابل، يزداد الفريق المؤمن قوة، تزيد في اضطراب الطاغية مع جنده. وبالنسبة لفرعون والمباراة التي أعدّها لقهر موسى وهارون، فإنها لم تنقلب ضدّه على المدى القريب فحسب، بل شملت المدى البعيد. فالمباراة هزّت فرعون وسلطته بقوة، ولكنّها لم تكن القاضية لحكمةٍ الهية. فقد أنزلت بعدها كوارث بيئية على دولة فرعون، أظهرتْ قدرة الله تعالى اللامحدودة في فعل ما يشاء، مقابل عجز كبير من جانب فرعون وسلطته، لمجابهة تلك الكوارث.

بعد هذا، سنعود الى فرعون ومجريات الأحداث في دولته بعد المباراة، فذلك ما يشكّل موضوعاً للبحث في باقي هذا الفصل. بالرغم من الهزّة الكبيرة التي أحاطت بفرعون وسلطته، وبالرغم من التقهقر المطّرد المصطحب بالكشف عن عجزه المطّرد أيضاً، فالظاهر أنّه أخطأ مع سلطته في رؤية ذلك التقهقر، أو أن تمسكهم الشديد بالسلطة، المصطحب بعناد الجهل، حَجَبَ عنهم رؤية جوهر الأشياء، فمشوا في طريق التيه والعبث، في وقت كان يعاجلهم الله عزّ وجلّ بضرباتٍ عقوبةً لغطرستهم من جهة، وإفساحاً في المجال لهم للاتّعاظ، قبل أن يأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر؛ ولكن دون فائدة منهم.

٤ ـ العقوبة السماوية الدنيوية لفرعون وآله

تتمثل تلك العقوبة في بدايتها بالآتي:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف].

«لقد ابتلينا واختبرنا فرعون واتباعه بالجدب والقحط... وابتليناهم بإذهاب الثمار من كثرة الآفات... لعلهم يتّعظون... ثم بيّن تعالى انهم، مع تلك المحن والشّدائد، لم يزدادوا إلاّ تمرّداً وكفراً... [فإذا] جاءهم الخصب والرخاء قالوا هذه لنا وسعدنا، ونحن مستحقون لذلك... واذا جاءهم الجدب والشدة تشاءموا بموسى ومن معه... إن ما يصيبهم من خير أو شرّ بتقدير الله... ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف] ان ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بسبب معاصيهم لا من عند موسى... [وقال] قوم فرعون لموسى: أي شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات لتصرفنا عمّا نحن عليه فلن نؤمن لك...»[١٠].

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنّ أوّل ضربة إلهيّة لفرعون وسلطته أصابت الانتاج الزراعي. وطبعاً مع أهمية ذلك الحقل لاقتصاد دولة فرعون، فالضربة ربما شكّلت انحداراً في اقتصاد تلك الدولة، علماً أن أحد مظاهر كيان أي دولة هو اتّسامها باقتصاد قوي. ولكن ومع كل ذلك، فلم تستوعب السلطة الموقف، ولم تتّعظ بالإدراك أنّ ما يصيبهم آتٍ من السماء عقاباً لطغيانهم وتيههم. وبعدم استيعابهم لذلك، فالآيات القرآنية تظهرهم بإطار حي، وهم يتذبذبون بنفوسهم. فإن حظوا بالخصب بعد شدة وقحط، نسوا ما فات، متوهّمين أن الشدة ذهبت عنهم عن استحقاق لهم. وباللغة السياسية، يرون بالخصب تدعيماً لسلطتهم. ولكن إن أعادَ الله تعالى الجدب والقحط عليهم، يضعوا ذلك الأمر، على عاتقِ موسى ومَن آمن معه، دون إدراك البتّة أن ما يحصل هو اختبار سماوي لهم. وفي حالة الإفاضة الإلهية عليهم بالخصب، يعودون لغطرستهم القديمة، ليبيّنوا للناس أنه لولاهم لما تحسّنَ الاقتصاد، فوجدوا ما يريدون من حوائج معيشية. وفي حالة إصابتهم بالقحط، يُثيرون الناس ضدّ موسى ومن معه، ليبيّنوا للناس هؤلاء، أنهم فيما يجلبون المراد للشعب، فموسى ومَن معه، يريدون حرمانهم من متطلباتهم المعيشية. وذلك، بغية تنفير الجمهور منهم، والنظر اليهم بعين التشاؤم. يفعلُ فرعون وآلُهُ كل ذلك بعناد وإصرار على اتخاذ منهج الكفر سبيلاً لهم في الحياة.

(١٠) **المصدر السابق**، مجلد ١، ص. ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

وإزاء ذلك، يُرسِل الله تعالى لفرعون وآله كوارث أخرى، متجسّدة في قوله العزيز:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف].

«أي أرسلنا عليهم المطر الشديد حتى عاموا فيه، وكادوا يهلكون، قال ابن عبّاس: الطّوفان كثرة الأمطار المُغرِقة المتلِفة للزوع والثّمار... وأرسلنا عليهم كذلك الجراد فأكَلَ زروعهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ [الأعراف/١٣٣]... هو القمل المشهور كان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصّه ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ [الأعراف/١٣٣]... حتى ملأتْ بيوتهم وطعامهم... ﴿وَالدَّمَ﴾ [الأعراف/١٣٣] أي صارت مياههم دماً فما يُستقون من بئر ولا نهر الا وجدوه دماً ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف/١٣٣] أي علامات ظاهرات فيها عبر وعظات؛ ومع ذلك استكبروا عن الإيمان... وحين نزل بهم العذاب المذكور ﴿قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف/١٣٤]... يكشف عنا البلاء بحقّ ما أكرمك به من النبوّة... والله لئن رفعتَ عنا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لَنُصَدِقَنّ بما جئتَ ولنطلقنّ سراح بني إسرائيل...»[(١١)].

وتجدر الاشارة هنا إلى أنّ الآيتين (١٣٣ و١٣٤) من سورة الأعراف تؤكّدان الهيمنة الإلهية على الكون، وتضعان فرعون ورجال دولته عند حدودهم. فالسياق يؤكد أن مفاتيح الطبيعة مع الله تعالى وحده، لا شريك له، لا مع فرعون المؤلّه لنفسه كفراً. وبمفاتيح الطبيعة تلك، فكما قضى الله تعالى بحبس المطر عن دولة فرعون، وبمعاناتهم القحط والجدب، مع كل انعكاسات ذلك على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، فكذلك قضى بالطوفان الذي يُهلك الزرع والثمر. وبالإجمال، فالسياق يُبرزُ عقاباً إلهياً للسلطة بأشكال شتّى حتى ترتدع. فالطوفان، بمنأىً عن آثاره في تدمير الزرع والثمر، فقد يجرف بعض الناس في مياهه، وقد

---

(١١) المصدر السابق، ص ٤٦٧.

يخرّب داراً هنا أو منزلاً هناك، وذاك كلّه ينعكس على السلطة. فإن لم تستطع التغلب على مشاكل تعويض الناس، وايجاد الأكل الكافي لهم، فعندها قد تُصاب باحباط. لأن الناس قد يرون بالنتيجة بأن ما يجري في دولتهم من كوارث، ناجم عن غضبٍ إلهي على السلطة المؤلّهة لفرعون. وعندها، يتطلّعون الى التغيير، وذلك ما كان فرعون يحاربه مع جنده بوسائله. وعدا الطوفان، بكل نتائجه، فقد أرسل الله على المجتمع الجراد، ووجود الجراد كارثة، لأنه لو نشأ أمل بعد الطوفان، بالتغلب على الكوارث الزراعية، فها هو الجراد يأتي لقطفِ ثمار مزارعهم نباتاً وفاكهة، في وقت احتياجهم الشديد للقوت. وطبعاً، ذلك يزيد من أزمة فرعون وحكومته. ولكن ممّا يؤججها باطار آخر، هو ارسال «القمل» بما يحمله لهم من أوبئة. وذاك يعني انهياراً في موارد الدولة الزراعية والاقتصادية، اضافة الى تفشي الأمراض في المجتمع. وهذا كله يحمل في طيّاته تعاسةً للناس. وقد ازدادت تلك التعاسة مع الإرسال الإلهي للضفادع حتى تملأ البيوت، بما تجلبه معها أيضاً من آفات وأمراض، خصوصاً حين تجوبُ فوق الأطعمة القليلة، التي تعود قلتها لكوارث الطوفان والجراد.

ولم تَقِفِ الأحوال عند هذا الحدّ، بل أرسل الله الدم على مياههم. مما يعني حدوث تلوّث في مياه الشرب؛ على أن ذاك كله يُبيّن تدهوراً معيشيّاً، وصحياً، واجتماعياً، وجمعه ينعكس على السياسة. هذا، ومن الجلّي ان رجال السلطة شعروا أخيراً، بأن تقهقر الأحوال من تلك النواحي كلّها، يؤثّر سلباً عليهم. ولذا رأوا ضرورة الخروج من المأزق، في وقت انعدامٍ لكل السبل الدنيويّة أمامهم. ولذا اضطرّوا اضطراراً للجوء إلى موسى لكي يدعو الله تعالى، لوقف الكوارث البيئيّة التي أنزلها على دولتهم للارتداع. وهنا اعترفوا له بالنبوة بعد صَلَفٍ وغرور، وكفر، ووعدوه بتلبية طلبه بإرسال بني إسرائيل معه، إنْ لبّى نداءهم بدوره. ومن الجليّ أنّ موسى استجاب لطلبهم، ودعا الله تعالى الذي كشف عنهم الضر:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف].

٥ ـ غرق فرعون وجنده في اليمّ

ولكن بعد كشف الضرّ عنهم، عادوا (أي فرعون وآله) إلى استكبارهم السابق، ونسوا ضعفهم، وعجزهم، فنكثوا بعهودهم لموسى. ولكنّ الله تعالى، العالِم بكل صغيرة وكبيرة، ترصّدهم وعاقبهم على جحودهم بالنعم، واستكبارهم، ونكثهم بالعهود، كماورد في قوله العزيز:

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ (١٣٦)﴾ [الأعراف].

لقد انتقم الله تعالى من فرعون وآله بإغراقهم في اليمّ. جاء الغرق بعد انذارات متتالية لهم، لم يدركوا أو لم يستوعبوا معانيها بوقتها، لهذا، وقد أدرك فرعون سوء عمله في لحظات الاغراق فقط، فندم وقت لا ينفع ندم فيه، وأعلنَ إيمانه، كما ورد في قوله العزيز:

﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩٠)﴾ [يونس].

(ولكن الجواب الالهي لفرعون كان الآتي:

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٩١) فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (٩٢)﴾ [يونس].

«أي والآن تؤمن حين يئستَ من الحياة، وقد عصيتَ الله قبل نزول نقمته بك، وكنت من المغالين في الضلال والإضلال والصدّ عن دين الله... فاليوم نُخرجكَ من البحر بجسدك الذي لا روح فيه... لتكون عبرة لمن بعدك من الناس، ومن الجبابرة والفراعنة، حتى لا يطغوا مثل طغيانك...»[١٢].

---

(١٢) **المصدر السابق**، ص ٥٩٦.

بالنسبة لموضوع التوبة في الإسلام، فالله تعالى يتوب على مَن ندم وأصلح واستغفر ربه. أما بالنسبة لفرعون، فقد أصرّ على كفره حتى آخر حياته، ولم يتقدم بالتوبة إلاّ بعد أن رأى الموت، =

وهكذا أُسدِلَ الستار على قصة موسى مع فرعون بالدروس والعبر، الموضوعة أمام كلّ جبّار عنيد. وأهمّها أن على كل حاكم طاغيةٍ متألّهٍ، ان يتذكّر أنّ مصير المستضعفين من الناس ليس بيده أبداً. وان قهره لهم، وان حصل لفترة، فسوف يزول بالقوّة الإلهية، التي لا يمكنه أبداً أن يقف في وجهها. هذا، وبما ان الكون يسير بقوانين من الحقّ والعدل، فالذي يُجْحِفُ بحقّ المقهورين ويبطش بهم، يُحاسَب، ويأخذ عقابه في الدنيا والآخرة. وذاك يُبرِزُ العدل الإلهي المطلق. فلا يقنط مظلوم من رحمةِ الله عزّ وجلّ، ولا يظن ظالم، مهما بلغت قوته، أنه بمأمن من العقاب. لقد أُغرِقَ فرعون وجنده، ونجّى الله تعالى بني إسرائيل جزاء لهم على صبرهم على مظالم فرعون. وبغرق فرعون، انتهت دورة تاريخية في مصر، وبدأت دورة جديدة بالمشيئة الإلهية. وبالوصول لتلك النقطة، فسوف نُعطي ملخصاً تحليلياً للأفكار الرئيسة الواردة بالقصة القرآنية، وأهمّيّتها الأزليّة، كما يُستَقى من الفصول الخمسة المعنية بالقصة.

= وهو يحيط به من كل جانب. ومهما يكن، فبصدد موضوع العفو الإلهي لمن تاب وأصلح في الوقت الصحيح، فقد أورد هيكل الآتي: «فاذا التبس الأمر.. على بعض الناس فارتكبوا المعصية فجزتهم الجماعة عن معصيتهم، احتفاظاً بكيانها أن تجني هذه المعصية عليه، لم يكن ذلك سداً بينهم وبين التوبة والأوبة إلى الحق. فمن ارتكب الخطيئة أو الإثم بجهالة ثم حاسب السابق، وغيّر ما بها وعاد الى الله طائعاً مُنيباً، غفر الله ما تقدّم من ذنبه وتاب عليه. ومن ثَمّ كان للخاطىء والآثم ان يستفيد من عبر الأيام وأن يطهّر قلبه، وأن يرجع الى طريق الحق تائباً، فيقبل الله منه إنه هو التواب الرحيم»، هيكل، **المصدر السابق**، ص ٥٦٦.

الباب الثاني

مُقارنة بين القصتين القرآنية والتوراتية عن موسى وفرعون

الفصل الأول

مُختصر عن الخطوط العريضة للمفهوم القرآني عن القصة والمشهد التوراتي الأوّل

١ ـ خلاصة المفهوم القرآني بناء على ما وَرَدَ في الفصول السابقة

في الفصول الخمسةِ السابقة، قُمنا بجهدٍ لإبرازِ المفهوم القرآني عن موسى وفرعون، بحيث تناولنا حياة موسى منذ مولده، حتى اصطفائه بالنبوّة، وتكليفه بمجابهة فرعون لإخراجِ بني إسرائيل من مصر[١]. وقد جاءَ التكليفُ ذاكَ من أجلِ هدْمِ قواعدِ الظلمِ التي نشأت ضدّ بني إسرائيل بفعلٍ من فرعون وسلطته. وإذْ كان وجودُ الظلم منذَ فجر التاريخ بأشكاله، أمراً واقعاً، كما تُظهِرُ قصص الأنبياء، إلاّ أنه أخذ شكلاً آخر في عصر فرعون. كان الظلمُ، في عصور الأقوام السابقة، محدوداً في نطاقِ القبائل، سواء أكانت متفرّدة أم مهيمنة على مَن حولها؛ فَخَرج الى حيّز الدولة الدكتاتورية، التي تمتلكُ وسائلَ البطشِ المُنظَّم[٢]. وطبيعي أنْ

---

(١) للاستفاضة في معلومات عن حياة موسى ـ إضافة لما سبق ذكره ـ راجع علي فكري، **أحسن القصص** (القاهرة: عيسى البابي الجلبي وشركاه، ١٩٤٩)، ص ص. ٥٠ ـ ٩٤. راجع أيضاً ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، جزء ١ (القاهرة: دار المعارف، لا. ت)، ص ص ٣٨٨ ـ ٤١٨.

(٢) دولة فرعون زمن موسى (ع)، كانت قائمة على العبودية. فهناك فرعون مع ملئه يحظون بكل الامتيازات كطبقة خاصة، يديرها حاكم متألّه، في حين ينظر للآخرين بعين **الاسترقاق**، ولكن بدرجات، على انه للاستفاضة بموضوع العبودية وعلاقته بالسياسة، راجع **جان توشار، تاريخ الفكر السياسي**، ت. علي مقلد (بيروت: الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، **١٩٨٧**)، ص ص١٢ ـ ١٣. هذا، وبصدد دور الدولة واتجاهاتها في المجتمع، كأمر عام، يقول قسطنطين زريق: =

يؤدّي ذلكَ إلى إلحاق مظالمَ بحقِّ المناهضين للسلطة. وذلك لأنه في الحكم الدكتاتوري، مثل نظام فرعون، يقومُ بعض الرؤساء بفرضِ التقديس لهم. فيبنونَ سياسة تتلخّص بالآتي: إمّا الولاء المطلق لهم، ونبذ التوحيد بسبب تأليههم؛ أو مقاومة مَن يقف ضدّ تأليههم بحجج الاخلال بالنظام، والإهدار لمصالح الدولة، ومخالفة القانون. وبذلك يُزجُّ البعض بالسجون، ويُحرَمُ البعض من حقوقهم وكرامة عيشهم، ويُعنَّف البعض الآخر. وكما ذُكِرَ سابقاً، ففرعون أصدر أوامره بقتلِ الذكور من أطفال بني اسرائيل، واستحياء نسائهم، لوقوفِ تلك الجماعة ضدّ فكرة تأليهِ ذلك الحاكم لنفسه.

وقد أرسل الله تعالى موسى للوقوفِ الى جانب هؤلاء المظلومين من قومه، والطلبِ إلى فرعون تحريرهم في إطار البيّنة، عقلياً أوّلاً، ثم في حيّز المعجزة ثانياً. هذا، وقد عُرضت القصة القرآنية عن موسى وفرعون في الإطار الأزليّ، بحكم أزليّة القرآن، وعليه، فقد زَوَّدتْ الإنسانية بمبادىء أزلية هامة في الحقول الآتية: السياسية والاجتماعية والنفسية، والروحية الأخلاقية.

ففي الحقل السياسي، زوّدت القصة القارئ بمظاهر الحكم الدكتاتوري، القائم على التأليه، مُبيّنة خطورته، من حيث التطاول على الدين من جهة، والتطاول على العدل والحق من جهة أخرى، مع تأكيد وقوف ذلك النظام كعائق لحركة التطوّر والتقدّم. على أنّ مجابهة مثل ذلك النظام القائم على التأليه للحاكم، هي كالآتي:

أ) التمسّك التام بالتوحيد.

ب) العلوّ بالحياة الروحيّة في إطار يُخرِجُ النفس من الخضوع لإغراء المادّة، نحو حيّز القيم والمبادئ في الاخلاص للدين.

= «إن دور الدولة في المجتمع يختلف باختلاف أهدافها والغايات التي يسعى اليها أربابها، وأحطّ هذه الغايات والأهداف إرضاء شهوة الحكم، والاستغلال الماديّ، والتسلّط والتزعّم وخدمة الأغراض الفرديّة... وإذا ارتفعنا عن هذا الدرك، وجدنا الدولة التي همّها حسن الادارة، ورعاية شؤون المواطنين، وكفالة العدل والطمأنينة...» قسطنطين زريق، **الأعمال الفكرية العامة: معنى النكبة مجدداً**، جزء ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤)، ص ٢٦. ونرى أن دولة فرعون التي يرأسها هو، كحاكم متأله، تقع في إطار المفهوم الأول إجمالاً.

جـ) عدم الشعور بالحرج أو بالخوف من تهديد الحاكم المتألّه، سواء كان تهديده بالتعذيب أو الموت، للمناهضين لفكرة التأليه تلك، انطلاقاً من الإدراك بحتميّة زوال الدنيا بكل زخرفها؛ ويقينيّة الحساب في اليوم الآخر.

د) المقاومة من غير عنف، باتّخاذ الحوار كمنهج للاقناع بالتغيير، مع التجاءٍ كلّي لله عزّ وجلّ، الذي يمتلك مفاتيح التحوُّلات التاريخية في حياة الأمم.

هذا بالنسبة للحقل السياسي، أما بالنسبة للحقل الاجتماعي، المؤدّي الى الانحدار الحضاري، فيتجسد ذلك في:

أ) تخطّي الكرامة الانسانية للفئة المناهضة لفكرة التأليه.

ب) استغلال الضعفاء لفائدة الأقوياء.

جـ) التنافس على المنافع الدنيوية من مالٍ ومراكز.

د) التفريق بين طائفة وأخرى في المجتمع.

هـ) الالتواء والاعوجاج المُصْطَحَبُ بالحِقد من جانب الطبقة الحاكمة تجاه المستضعفين.

و) الإخلال بالتوازن القائم بين الحقوق والواجبات من قبل الأقوياء، ثم، حرمان الضعفاء من حقوقهم المشروعة في الحياة.

باختصار، فالقصة تُبيّن ان غياب العدل من المجتمع، يشكّل العامل الجوهري في تصدّعه وانحداره، في ظل الحكم الدكتاتوري، القائم على التأليه دون حق، ومِن ثم تدعو للتفكير والإيمان الصادق، الذي يُمهد السبل للكفاح البعيد عن العنف؛ مع التيقّن بأن النصر هو للحق بالنتيجة؛ والنصر من عند الله تعالى، القادر على تبديل قومٍ بقوم. ولكن لو انتقلنا الآن الى الجانب النفسي من قصة فرعون مع موسى القرآنيةٍ، فهذه القصّة تزوِّد القارىء بصورة نابضة بالحركة، عن نفسية الحاكم المتألّه (والتأليه كفر) مع جنده أو آله. فهو يتصّف بالاستكبار، علماً أن الاستكبار البشري يتبع الجانب السفلي من الحياة. أي جانب الشيطان. أمّا والأمر كذلك، فصاحبُه يتّسم بالصفات المذمومة كلّها من أَثَرةٍ، وأنانية، وحبٌّ للذات، وضغينة،

وحقد، وهذه الصفات مجتمعة تدفعه نحو العنف، والعنف أحد مظاهر التيه، والظلم، والطغيان. أما أفراد سلطته، فهم يتسمون مثله بالأَثَرَة، وحبّ المنافع الدنيوية، ولا يتورَّعون، والمادية تطغى على عقولهم ونفوسهم، عن تنفيذ أيّ قانون صادر عن الحاكم قوامه العنف، من أجل تثبيت مراكزهم. وهذا ما حصل بالضبط مع جند فرعون الذين حقّقوا رغباته بإثبات إرادته، دون إدراكِ أنّ الارادة الانسانية، تخضع للارادة الالهية خضوعاً كُلّياً. ولذا تُوجِّهُ قصة موسى القرآنية مع فرعون، نحو ضرورة تهذيب النفس من الشوائب، لِتملُّك القوة المعنوية اللازمة لمجابهة الظلم وأهله. بَيْدَ أنه لو انتقلنا للجانب الروحي الأخلاقي في القصة القرآنية المختصّة بموسى وفرعون، لرأينا أنّه الجانب الأهمّ حقّاً، بل والجانب الذي يقع المدارُ السياسي، والاجتماعي، والنفسي في كنفه. وهو الجانب الذي يُحدّد للإنسان أسبابَ وجوده، ومظاهرَ تحقيقِ كيانه، ومصيره. وذلك حتى يكتسب الوعي اللازم لأداء مسؤوليتهِ الروحيّة والدنيويّة على أكمل وجه ممكن. هذا، ومن مناحي مسؤوليّته تلك، الوقوف ضدّ أي فكرة تأليهية لبشر، لأن التأليه تَطاوُلٌ على الدّين، وخروجٌ عن الحدود البشريّة بغير حق. وآثاره التيه، والظلم، والطغيان، والبطش، وهذه سماتُ فرعون.

والقرآن يوجّه نحو وجوب إبطال التأليه، من طريق المعارف الروحيّة، والمبادئ الأخلاقية، والأدوات العقلية التي تُنمّى بدورها بالإيمان. وباختصار، فالقصّة القرآنيّة ككل، تبين بأن نظام الحكم السليم يقوم على توازن بين الدين والدنيا، لأن العدل لا يُقرُّ إلا بالمحافظة على ذلك التوازن، الذي إن يزل، يَسُدِ الظلم، ويطْغَ الظلام، وتتدهور الأحوال الحضارية في البلد المعنيّ بالأمر، وتصبحِ الحاجة للإصلاح أمراً مُلِحّاً. والقصة القرآنيّة لموسى مع فرعون، تُظهرُ جهود موسى في الإصلاح من طريق العقل والدين في ظل التأييد الإلهي له بالمعجزات، مؤكدة نجاحه، من نقطة انسلاخ السحرة عن فرعون، وتصميمهم على مجابهة استبداد فرعون المطلق، الذي ترافق مع صنوف من المفاسد المتجسّدة في ظلمه الروحي والسياسي والاجتماعي. على أن نجاح موسى ذاك، أدّى الى حدوث تناقضات في المواقف بصدد معسكر فرعون، في ردّ فعله. فتارة كانوا يمضونَ في منهج فظيع

من الصَّلَف، والصدود عن الدينِ، وتارة أخرى يسيرون في بوتقة من المرونة، ولكن لا المرونة النابعة من حبٌ في الاصلاح، بل مرونة منبعثة عن حبٍ لمنافعهم في المال والسلطة. ولذا كانت تزول مع زوال مُسبّباتها، وتحقيق أهدافهم، تماماً كما حصل، حينما طلب فرعون مع جنده، من موسى، الدعوة لله تعالى لكشف الضرّ عنهم، لمّا أرسل عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.. إذْ لما لُبّيَ ذلك الطلب، وأنعمَ الله تعالى على موسى بالاستجابة لرفع الرِّجْزِ عن الدولة، نكثوا بعهدهم. ولكن ذلك هو ما أدّى، مع أفعال سابقة ظالمة لفرعون وآله، لتدميرهم بإغراقهم في اليمِّ مقابل إنقاذ بني إسرائيل. والنقطة البارزة هنا، هي أنه لا يمكن لفئة طاغية الفرار من القضاء الإلهي الذي لا يُردّ. فالله تعالى الذي خلقَ الكون بسننٍ ثابتةٍ على الحقّ والعدل، يتحدّى الظالمين بعقابهم بعد فترة إمهالٍ لهم، ويُعطي للمظلومين حقوقهم. بمعنى أن الله تعالى يَنصُر المظلومين المؤمنين المكافحين من أجل تثبيت التوحيد، في وجه أيّ ادعاءات بالتأليه خلال التاريخ البشري. ومن هنا، يحصل هؤلاء المظلومون على درجة روحية عالية، تبقى بعد تحريرهم من الظلم بأمر السماء في حيزها العلوي، ان ظل هؤلاء على إيمانهم الصادق، وسعيهم المبرور. ولكن إن بَهَرتْهم الحياة الدنيا بزخرفها الباطل بعد تحريرهم، ونسوا فضل الله تعالى عليهم بإنقاذهم من الطغيان، وتوجّهوا هم أنفسهم، لتطبيقِ ما حاقَ بهم من ظلم سابق على الآخرين، فعندها يفقدونَ منازلهم الروحية السامية، فينحدرون تماماً كالظالمين لهم سابقاً، إلا إن عادوا لهدى السبيل. وبهذا الاطار، نفهم لِمَ جاء التفضيل القرآني لبني إسرائيل على غيرهم من أهل زمانهم، أيام فرعون، ولِمَ باءوا بغضبٍ من الله تعالى في مابعد. التفضيل لهم هنا مبني على أسس رفضهم لتأليه فرعون، وصبرهم على مظالمه، وصمودهم في وجهه عن علم ومبدأ. ولكن الغضب الإلهي عليهم الآتي لاحقاً، انبعثَ من جرّاء اتخاذ بني إسرائيل طريقاً تخالف الطريق السابقة، طريقاً محورها التطاول على الدين، والعبث بتعاليمه، والصدود عنه، والجحود بالنعم الإلهيّة، والاستكبار، وقتل الأنبياء بغير حقّ، وتمرّدهم على الشرائع والأحكام السّماويّة. وبهذا الإطار، فالقصّة القرآنية عن موسى وفرعون، تُعطي لبني إسرائيل الأفضليّة بزمانهم، ولكن لا الأفضليّة القائمة على كونهم أعلى من باقي أبناء البشر

كجنسٍ خاصٍّ، بل الأفضلية القائمة من منطلق الحقّ والعدل، والتي فقدوها لاحقاً لاعتبارات روحية أخلاقية، مع ترك المنافذ لهم مفتوحة للمنزلة الحسنة إن كفّوا عن عصيانهم، وتمرّدهم على الأحكام الروحية، وتركوا الطغيان، وعادوا الى حظيرة الحق، شأنهم كشأن كل عباد الرحمن في تلك القاعدة. فاللّه تعالى يساوي بين كل خلقه من حيث الطبيعة البشرية، ولكن الأفضلية تُبنى على التقوى والإيمان. وبهذا، فالقصّة القرآنية، تُظهر بني اسرائيل كنموذج لفئة مضطهدة، نصرها الله تعالى لإيمانها، ولكن لما بَغَتْ وطغَتْ، بعد الخروج من مصر، أخذت عقابها، مع ترك المنافذ مفتوحة للعفو إن أحسنت كما ذُكِر آنفاً.

ومن هنا، نرى كيف أن القصة، خرجتْ عن النطاق التاريخي، المحصور بوقت، الى الإطار الأزليّ بِعِبَرِها. وهنا نرى فارقاً جوهرياً بينها وبين القصة التوراتية عن موسى وهارون. فالقصة التوراتية ورَدَتْ في بوتقة الزمن المحدود، من خلال كشفٍ عن أحداث تاريخية، جرتْ لشعب مقهورٍ، وكأنه هو وحده الذي جابه ظلماً كبيراً في المسار التاريخي. ومن هنا، هيمن العطف الكبير على بني اسرائيل في القصة التوراتية، كما سوف نشرح لاحقاً. ولكن، ومع ذلك، يجب القول الآن بأن الظلم لأيّ فرد أو مجموعة أو شعب يبعثُ على العطف، ولكن تعظيم العطف هذا، في ظلّ ادّعاء بني اسرائيل الأفضلية في ذواتهم وشخصياتهم، بمعزل ـ إلى حدٍّ ما ـ عن قواعد الأفضلية الروحيّة «القرآنيّة» في القصة ـ يُعطي صبغة قومية للقصة التوراتية. وتلك، لا تتلاءم مع الصبغة الانسانية الشمولية التي قدّمها القرآن عن بني إسرائيل لمّا استُضعِفوا، وعن غيرهم من قبلهم ومن بعدهم. فالعطف على المظلومين كلِّهم خلال التاريخ، واردٌ في القرآن الكريم، من قبيل الطمأنة لهم، بإعادة حقوقهم، برحمة من السماء؛ كي يُدرِك أبناء البشرية أن مصير الظالمين هو الهلاك، دون تفضيل أُمَّةٍ على أُمّة، أو شعب على شعب، أو مجموعة على مجموعة. فالقرآن يتحدّث بإطار المبادئ، ويبني النتائج عليها بالدلائل والبراهين الدامغة، التي تُبرزُ العدل الإلهي المطلق في تدبير شؤون الكون، وتنظيم أموره. إذاً، هنا نجد فارقاً أساسياً بين القصة القرآنية عن موسى وفرعون، والقصّة التوراتيّة: الأولى تضع ظلم فرعون لبني إسرائيل وتدميره من الله عزّ وجلّ، كحلقة

من سلسلة ظلم للمستضعَفين بدأت من عصر نوح عليه السلام، ومضتْ حتى عصر موسى عليه السلام، وهو تدمير إلهي للظلم في كل دورات تلك السلسلة، كما شرحنا في مقدّمة هذه الدراسة. فالظلم واحد في جوهره، مع التعدد في أساليبه، وحجمه، وآثاره المقترنة بذلك الحجم. أما الثانية، أي القصة التوراتية، فلا تقع في هذا الإطار الشمولي.

ومن هنا، فجانب العِبر محدود بها للغاية، وتجدر الاشارة هنا، الى أن الفارق المذكور أعلاه بين القصتين القرآنية والتوراتية، بصدد موسى وفرعون، يقع في الحيّز العام، مع أنه جوهري. ولكن هناك فوارق أخرى أساسية تتناول الجانب العقائدي، والذي سوف نعالجه، بعد عرض لقصة موسى مع فرعون كما وردت في التوراة. ويجب ان نبيّن للقارىء هنا، أنه سوف يُلاحظُ بنفسه نقاط تشابه، ونقاط اختلاف بين القصتين، القرآنية والتوراتية. على أن ما يعنينا في هذا السياق، هو ما يخصّ الجانب العقائدي جوهرياً. وذلك للتفريق بين المفهومين القرآني والتوراتي بصدد قضايا مصيرية، مثل التوحيد والصفات الإلهية والكمال الربّاني. هذا، إضافة الى قضايا مثل النبوّة والخير والشرّ والقضاء والقدر، وغير ذلك. فالمقارنة القرآنية التوراتية في ما يتعلّق بتلك المسائل البالغة الأهمّيّة، تزوّد القارىء ـ إضافة لما ذُكِرَ في السابق ـ بمعلومات عن بواعث ضخامة حجم الدروس والعبر في القصة القرآنية عن موسى وفرعون؛ مقابل المحدودية، بهذا الشأن، في القصة التوراتية عن الموضوع نفسه.

بتقرير تلك الحقائق، سوف نتجه الآن لعرض قصة موسى وفرعون كما وردت في التوراة، مع الاستشهاد بنصوص توراتية. وسنقسّم القصة الى مشاهد، ما ان نُتِمّ تقديم كل مشهد في فصول قادمة، حتى نشرعَ بأخذِ نقاطه الجوهرية، ومقارنتها مع النقاط، الموازية لها في القصة القرآنية بتركيز جوهري على الجانب العقائدي كما ذكرنا أعلاه. ولكن قبل الشروع في ذلك، يهمنا أن نذكّر بأن القرآن الكريم يعظّم موسى عليه السلام. ويُعظِّم التوراة والإنجيل أيضاً. كما ورَدَ في قوله العزيز:

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [آل عمران/ ٥٠].

إن الكلام في هذه الآية هو حكاية عن عيسى بن مريم عليه السلام. ومعنى الآية: «وجئتكم مُصدّقاً لرسالة موسى، مؤيداً لما جاء به في التوراة»[٣] ومن جانب آخر، يظهَرُ تعظيم التوراة في القرآن الكريم. في قوله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة].

«أيّ أنزلنا التوراة على موسى فيها بيان واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام.. يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة/ ٤٤]، أي يحكمون بالتوراة لليهود لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة/ ٤٤] أي العلماء منهم والفقهاء... بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة/ ٤٤]، أي رقباء لئلا يُبدّل ويغيّر... [فلا] تخافوا يا علماء اليهود الناس في اظهار ما عندكم من نعت محمد (ﷺ) والرجم، بل خافوا منيّ في كتمان ذلك... ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني.. مَن لم يحكم بشرع الله كائناً مَن كان فقد كفر..»[٤]. وتجدر الاشارة هنا، إلى انه مع التعظيم القرآني للتوراة، والذين حافظوا عليها من التبديل والتحريف: إلاّ أن الآية القرآنية تحذّر علماء اليهود زمن الرسول (ﷺ) من مخالفة شرائعها. فقد وُجد منهم وقتئذٍ مَن كانوا «ذوي جرأة على الحق وافتتانٍ على الباطل يعلمونَ أن المسلمين لا يقرأون التوراة في لغتها العبرانية فيحرفونها كما يشاؤون وكما تشاء أهواؤهم لا يحفلون بما في ذلك من نكر ولا يأبهون لما له من عواقب»[٥]. هذا، والقرآن الكريم يؤكد وجودَ فريق من اليهود من قبل، وكانوا يسمعون كلام الله، ثم يُحرِّفونه من بعد فهم معانيه، وهم يعلمون جيداً انهم بدلوا أو أوّلوا في بعض النصوص التوراتية. يقول الله عزّ وجلّ:

---

(٣) الصابوني، **المصدر السابق**، مجلد ١، ص ٢٠٣.

(٤) **المصدر السابق**، ص ٢٤٥.

(٥) طه حسين، **إسلاميات، مرآة الإسلام** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤)، ص ٤٤.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة].

وبصدد موضوع التحريف للتوراة، وَرَدَ أيضاً ما يلي:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة/ ٤١].

﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء/ ٤٦].

إذاً، فالقرآن الكريم يُبيّن حدوث «تحريف» في التوراة، يخضع في مواقعه، لأهواءِ مَن قاموا بذلك التحريف من اليهود، سواء في عهد الرسول محمد (ﷺ)، أو قبل ذلك. وبهذا، ففيما يعظّم القرآن التوراة، ويبيّن بأن الوحي لم يأتِ من أجلِ نسخ التوراة، ولا الإنجيل، وإنّما أتى مصدّقاً لهما، مضيفاً إليهما، ولكنه يحذِّر من تحريفاتٍ في التوراة والإنجيل. وبهذا الخصوص، ورد ما يلي في «مرآة الإسلام» لطه حسين بصدد الرسول (ﷺ): «وهو مع ذلك يجادل اليهود في التوراة ويجادل النصارى في الإنجيل، ويصفهم بأنهم يكذبون على موسى ويقولون على المسيح غير الحقّ، ويحرِّفون ما عندهم من التوراة والإنجيل. كل ذلك وهو لا يقرأ التوراة ولا الإنجيل وانما ينبئه الله نبأ الحق بما في كليهما وهو لم يأتِ لنسخ التوراة ولا لنسخ الإنجيل، وإنما جاء مصدِّقاً لما بين يديه منهما ومضيفاً إليهما ما أمره الله أن يضيف من العلم والدين»(٦). يقول تعالى:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر].

«أي والذي أوحينا إليك يا محمد من الكتاب المنزّل ـ القرآن العظيم ـ هو الحقّ الذي لا شك فيه، ولا ريب في صدقه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر/ ٣١]، أي حال كونه مصدّقاً لما سبقه من الكتب الإلهية المنزلة كالتوراة والإنجيل والزَّبور. قال أبو حيّان: وفي الآية، إشارة إلى كونه وحياً، لأنه عليه السلام لم يكن قارئاً

---

(٦) **المصدر السابق**، ص ٨٢.

ولا كاتباً، وأتى ببيان ما في كتب الله، ولا يكون ذلك إلا من الله...»[7]. بابقاء تلك المعلومات في ذهننا، والعودة الآن لموضوع المقارنة القرآنية التوراتية عن قصة موسى وفرعون، فسوف نخوض بها بأمانة تامة، مع التعظيم لكل من القرآن والتوراة معاً. ولكن، بما أن القرآن يؤكّد وجود تحريفٍ في التوراة، فسوف نُظهِرُ مَواطِنَ التحريف، بدورنا، مع شرحٍ للأسباب التي تعطي دليلاً على التحريف بتفصيل، وبإيجابية تامة. وبالوصول لهذا الحدّ، فسوف ننتقل لعرض القصة التوراتية عن موسى وفرعون في مشاهد ثلاثة، مُصطَحَبة بالمقارنة تِلو هذا العرض.

٢ ـ القصة التوراتية بصدد موسى وفرعون

ـ المشهد الأول

في المشهد الأول، حيث يُوَجّه التركيز على موسى، تبدأ القصة التوراتية أوّلاً، بإظهار أن موسى ابنٌ لوالدين من عائلة «لاوي» دون ذكر اسمه. ولمّا وُلِدَ، أخفتْهُ أُمه لمدة ثلاثة أشهر. ولكن عندما أتى وقت استحال فيه تخبئته لزمن أطول، فَعَلَتْ الآتي:

«أخذت له سَفَطاً من البرديّ وطلتْهُ بالحُمَر والزّفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافّة النهر. ووقفت أخته من بعيد لِتَعرِفَ ماذا يفعل به» (٤٠٣ خروج، الاصحاح الثاني).

هذا، وفيما كانت أخته تُراقب الأحداث، وإذْ بابنةِ فرعون تنزل للاغتسال بالنهر، في وقت مشْي جواريها على جانبه. فأبصرتْ السَّفَط[8] بمكانهِ، وبعثت أَختَها، فتناولته. وبفتحهِ، وجَدتْ صبيّاً يبكي، فرقَّ قلبها له، وقد عرفتْ أنه من أبناء العبرانيين. هنا، دخلتْ أخت موسى في سياق الصورة، فسألتْ ابنة فرعون إنْ كانت بحاجة لمرضعةٍ من العبرانيين لإرضاع موسى، فوافقتْ، فأُحضِرتْ أمّ موسى بناء على ذلك، فقالتْ ابنة فرعون لها:

---

(٧) الصابوني، **المصدر السابق**، مجلد ٢، ص ٥٧٥.

(٨) السَّفَط: وعاء يوضع فيه الطيب، ونحوه من أدوات النساء.

«إذهبي بهذا الولد وأرضعيه وأنا أُعطي أجرتكِ. فأخذتِ المرأة الولد وأرضعتهُ. ولما كبُرَ الولد جاءت به الى ابنة فرعون فصارَ لها ابناً. ودعتْ اسمه موسى وقالت اني انتشلته من الماء» (٩، ١٠ خروج، الاصحاح الثاني).

ومن تلك النقطة، تنتقل القصة التوراتية لإظهار موسى كشاب:

«خَرجَ إلى إخوته لينظر في أثقالهم» (١١ خروج، الاصحاح الثاني).

وبخروجه ذاك، رأى موسى رجلاً من أبناء مصر، يضرب شخصاً عبرانياً، فالتفتَ من حوله، ولكن لمّا لم يرَ أحداً، قتل الرجل المصري، وطمره في الرمل. وتستأنف القصة التوراتية القول إنّ موسى خرج في اليوم التالي، وإذْ به يرى رجلين عبرانيين يتقاتلان:

«فقال للمذنب لماذا تضربُ صاحبكَ. فقال مَن جَعلكَ رئيساً وقاضياً علينا أمفتكِر أنتَ بقتلي كما قتلتَ المصريّ. فخافَ موسى وقال حقّاً قد عُرِفَ الأمر. فسَمِعَ فرعون هذا الأمر فطَلَبَ أن يقتُل موسى. فهَربَ موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلسَ عند البئر» (١٣، ١٤، ١٥ خروج، الاصحاح الثاني).

وعند تلك النقطة، تدخلُ القصة التوراتية في الحديث عن كاهن مدين. فتقول إنّه كان له سبع بنات. وقد جئنَ واستقين ثم عبّأنَ الأجران من أجل سقاية غنم والدِهِنّ. ولكن الرعاة أتوا وطردوا الفتيات، بَيْدَ أن موسى أنجدهنَّ وسقى الغنم لهن. وحينما عُذنَ لوالدهن رعوئيل، سألهنَّ عن أسباب عودتهنّ السريعة، في ذلك اليوم بالذات، فأخبرنه عن حكاية إنقاذ موسى لهن ومساعدتهنَّ في السقاية. فطلب الرجل من بناته دعوته للطعام، وحصل الآتي:

«فارتضى موسى أن يسكنَ مع الرجل، فأعطى موسى صفّورة ابنته. فولدتْ ابناً فدعا اسمه جرشوم. لأنه قال كنتُ نزيلاً في أرض غريبة» (٢١، ٢٢ خروج، الاصحاح الثاني).

ومن هنا، تنتقلُ الأحداث في القصة التوراتيّة عن موسى، بالإظهار أن ملك مصر قد مات، مبيّنة أَثَرَ ذلك على بني اسرائيل بالقول:

«وتنهّدَ بنو اسرائيل من العبودية وصرخوا. فَصعَد صُراخهم إلى الله من أجل العبودية. فَسمِعَ الله أنينهم فتذكّرَ الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب، ونظر الله بني إسرائيل وعلم الله» (٢٣، ٢٤، ٢٥ خروج، الاصحاح الثاني).

إنّ أوّل ما يلاحظه المتمعّن بأحداث هذا المشهد التوراتي، هو الفارق الشاسع ما بين القرآن والتوراة، بصدد مسألة تأكيد الوجود الإلهيّ، فيما يتعلّق بقصة موسى مع فرعون: فبينما تجري الأحداث في القصة القرآنية بعلم من الله عزّ وجلّ، فالأحداث التوراتية تأخذ مكاناً ،وكأنها تقع بمعظمها كأحداثٍ دنيوية، جارية في تيّار الحياة. مثلاً، في القرآن، بولادة موسى في ظروف عسيرة، تأتي الرعاية الإلهية لأمّ موسى لإنقاذ ابنها بالقول القرآني، الذي أشرنا إليه سابقاً ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص]. إن الله تعالى العالم بأحوالِ أمّ موسى، وتخوفها على إبنها من القتل، يُزوّدها بالعلم الإلهامي الضروري لإزالة الخوفِ عن صدرها، لتتأكد من حتمية العناية الإلهية بها وبإبنها. ولكن القصة التوراتية تُبرِزُ أنّه بعد ولادة موسى، خبّأته أمه لثلاثة أشهر، ولمّا رأتْ أن الظروف غير مناسبة، «أخذت له سَفَطاً من البردي. . . ووضعتهُ بين الحَلْفاء[٩] على حافة النهر. . .» بمعنى ان ما فعلته يتبع جانب الاجتهاد العقلي لديها، لا العلم الإلهامي المذكور في القرآن، بصددها.

وفيما عدا ذلك، فالقصة القرآنية تبيّن ان التقاطَ آل فرعون للصندوق المُلقى باليمّ، وفيه موسى، أتى بتدبير إلهي، للعبرة الآتية وهي: ان الله عزّ وجلّ لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض. ولذلك فإن مجموعةً طاغيةً مثل فرعون وآله، تبطش بالأطفال، فأفعالها مكشوفة لدى الله تعالى، وبما أن مبدأ الحياة قائم على الثواب أو العقاب لأبناء البشرية، تبعاً لنوعية ديناً وآخرة، للمتبصّر بالأشياء، فالظّالمون لن ينجوا من عقاب الله، عزّ شأنه. ومن هنا، فالتقاطُ آل فرعون لموسى، بتدبير سماوي، مَعنيّ بتعذيبهم. فهم سوف يُنشئون موسى بتعلقٍ به بقصد

---

(٩) الحَلْفاء: نوع من النبات.

الانتفاع منه. ولكن موسى لن يقف إلى جانبهم، لنفعهم الذاتي، **لأن نفعهم معناه المعاضدة للظلم**، بل سيقفُ ضدهم، بتكليف سماوي له، لإنقاذ المظلومين (وهم بنو إسرائيل) من نير بطش وطغيان فرعون وآله، كما ورد بقوله العزيز الذي أشرنا إليه سابقاً: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴿٨﴾﴾ [القصص]. بالنسبة للتوراة، فإنّ التقاط موسى، وإرضاعه من أمه، أتى كأنه أمر، حاصلٌ بالمصادفة، إضافة لزعمهم أن أمّه تولّتْ أمرَهُ حتى كبُرَ، كما ورَدَ بالنص التوراتي المذكور في السابق: «**ولمّا كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون فصار لها ابناً ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء**».

هذا، ولمّا أتتْ نقطة خروج موسى إلى المجتمع، وقتله للقبطي، ففيما يبيّن القرآن أن ذلك القتل لم يكن متعمَّداً أبداً، بل أتى في لحظة انفعال شديد من جانب موسى، أجّجهُ الشيطان، إثر وكزة للقبطي منه، فالقصة التوراتية تُظهر أنّ قتل القبطي كان متعمّداً. «فالتفتَ الى هنا وهناك رأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل». وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحدَث كما أورده القرآن ـ وهو الوكز الذي أدّى إلى قتلٍ غير متعمّدٍ للقبطي من جانب موسى ـ يرمي لتقرير المبادىء الروحية الآتية:

أ) انّ الكمال للهِ عزّ وجلّ وَحْدَهُ لا شريكَ له. أما الانسان، فمهما علا في منزلته، فهو مُعرَّض للسهو.

ب) انّ الإنسان المؤمن إيمان نظر، والعالم بجوهر الأشياء، والمدرك تماماً لمبدأ الغفران والرحمة الإلهية، يندم على خطئه ويستغفر الله تعالى من أجل الصفح عنه، مع التعهّد بعدم تكرار ما حصل، والارتداد عن انفعاله، لو حصل للحظة دون شعور منه.

جـ) ان وجوب التمهّل والتريث، ضروري قبل الإقدام على أي عمل باعث على الندم.

هذا بصدد الجزء الأول من موضوع خروج موسى للمجتمع. أما بخصوص

الجزء الثاني، فيتضمن فارقاً آخر ما بين القرآن والتوراة. إذْ فيما يذكر القرآن أنّ موسى همّ بقتل رجل قبطي تنازع مع نفس الإسرائيلي الذي سانده من قبل، فالقصة التوراتية تبيّن أن الخصام الذي صادفه موسى في اليوم التالي أخذ مكاناً بين شخصين عبرانيين؛ وأن موسى لم يكن مقبولاً كحَكَم، من العبراني المذنب؛ بل وان ذلك العبراني كان يعيب عليه مسألة قتله للمصري، مما دفع موسى للخوف. أو بكلمة أخرى، فالقصة التوراتية أبرزتْ موسى كقاتلٍ للمصري أولاً، وكشخصٍ غير مقبولٍ للرئاسة من العبراني ثانياً. وقد أتى ذلك في إطار التقرير الذي يختلف بمضمونه كثيراً عن الإطار القرآني. وتجدر الاشارة هنا إلى أن السياق التوراتي بهذا الصدد قد يتبع جانب التحريف بكثير منه.

وفيما عدا ذلك، فيوجد فارق آخر بين القرآن والتوراة بصدد موضوع هروب موسى من مصر الى مدين، بسبب خوفه من القتل. إذ فيما تقول التوراة بأن الأمر ذاك تمّ بسماع فرعون، فالقرآن يُبيّن عقد ملأ فرعون اجتماعاً لبحث الأمر، ومن ثمّ، التشاور في مسألة قتله. ولكن بسبب وجود شخصٍ مؤمنٍ من آل فرعون، كان قد كتم إيمانه؛ وجد في قرار القتل إجحافاً بحق موسى، نجا موسى بعد أن نصحه ذلك الرجل المؤمن بالهروب من مصر. وبهذا الإطار، فالتوراة تظهِرُ أن مسألة قتل موسى للقبطي أتت لسمع فرعون من طريق ما، مع طلب منه لقتل موسى. في حين ان القرآن يبين أن التشاور في قتله أتى من طريق عقد اجتماع لأشرافِ دولة فرعون، وذاك من شأنه أن يُعطي معلوماتٍ عن تعاضد السلطة مع فرعون اجمالاً، والعمل بموجب رغباته، ولكن، ومع كل ذلك، فقد وُجد رجل مؤمن من آل فرعون، نصح موسى بالهرب، لكي ينجُوَ بنفسه. هذا، وبهروب موسى من مصر، فالقصة القرآنية تُشدِّد على الرعاية الإلهية لموسى، استجابةً لدعائه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢١)﴾ [القصص]. ووصل سالماً الى مدين. وحتى بعد وصوله بالسلامة لمدين، فالقصة القرآنية تبيّن موسى، وهو يستغيث بربِّه لكي يرزقه ويؤويه في مدين، من خلال الوسائل التي يفيض عليه بها. وتؤكد أن الله تعالى استجاب له، حين هداه لتعرّف المرأتين والسقاية لهما ولغنمهما، ومقابلة معروفهِ بمعروفٍ من والدهما. ثم تزويجه واحدة منهما، بحيث كان ذلك الزواج

هو السبيل السويّ لإيجاد عملٍ لموسى، لمدة ثماني أو عشر سنوات، أنهى العشرة منها، وهو ينعم بحياة عائليّة مُستقرَّة، ولو مؤقتة، في مَدْيَنَ.

بالنسبة للقصة التوراتية، فهي تبيّن أيضاً زواج موسى من احدى بنات الكاهن، مع وضع رقم مختلف لعددهن عن العدد القرآني. وتتفق مع القصة القرآنية بصدد معروف موسى لبنات الكاهن بالسقاية، وردّ الجميل من الأب ذاك له، ولكن لا تتكلم على العقد بين موسى ووالد زوجته، بصدد رعاية موسى لغنمه، مع أنها تذكر لاحقاً بأن موسى كان يرعى غنم والد زوجته «يثرون». وتجدر الاشارة هنا، إلى أنّ أمرَ العقد المذكور في القصة القرآنية، يهدف لإظهار أن مبدأ الحياة قائم على العمل المنظم، وأنه طالما أن العمل أتى في حيّز العقد، فيجب قبوله، لتحصيل متطلبات العيش الكريم. موسى نَعِمَ بحياة مُرفَّهة في مصر إجمالاً، قبلَ مشكلته مع القبطي، ولكن، ومع ذلك رضي بعَقْد والد زوجته له، برحابة صدر وسعادة، وعهد على أداء واجبه كالمراد ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص]. . . على أنّ قول موسى كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص]، يؤكّد أنّ موسى صمّم على انجاز عمله المُلزِم، بالتوكّل على الله تعالى. فالله شاهدٌ على ما تعاهد عليه، وتواثق به، مع والد زوجته. وبذلك، فالقصة القرآنية تبيّن أن موسى اكتسب خبرةً في الغربة، قائمةً على الالتزام الروحي والأخلاقي. وخبرة كتلك، تزيده صلابةً ومعرفةً بالحياة. وذاك أمرٌ ضروري لحمله التزامات كبيرة في المستقبل، في ظل التأييد الإلهي له. وبذلك كلّه، نرى، إذاً، دلائل مسألة الفارق الشاسع، بصدد تأكيد الوجود الإلهي ما بين القرآن والتوراة، فيما يختصّ بقصة موسى وفرعون، في أوّل مشهد منها.

هذا، وأوّل ما ذُكِرَ اسم الله تعالى في التوراة في المشهد ذاك، كان عندما أتى بنو اسرائيل في الصورة بالقول: «وحدث في تلك الأيام الكثيرة ان ملك مصر مات. وتنهّد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا فصعِدَ صُراخهم إلى الله من أجل العبودية. فسمِعَ اللهُ أنينهم فتذكّر الله ميثاقه مع ابراهيم واسحق ويعقوب. ونظر الله بني اسرائيل وعلمَ الله». بالنسبة للقرآن الكريم، فهو يؤكّد أن الله تعالى

مُتَّصف بالكمال المطلق، ومُنزّهٌ بشكلٍ كلّيّ عن الشرّ. ومن مظاهر الكمال الإلهي المطلق، هيمنة الله تعالى على الكون، وكل ما فيه، لأنّه الخالق الأوحد، الذي لا يُعبد سواه. بالهيمنة الإلهيّة تلك، فتنظيم شؤون العباد وتدبير أمورهم كلها، آتيان من عند الله عزّ وجلّ، آتيان عن علمٍ لا يحدّه شيء. على انه بتلك الهيمنة الإلهية والعلم الإلهي اللامحدود، فالله تعالى لا يخفى عنه شيء، في السماوات والأرض، وفي كل مكان وزمان. ويؤكّد القرآن الكريم أن الله تعالى لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم. بمعنى أنه لا يَسهو ولا يغفل عن أمر. والذي يمتلك بجلاله وكماله تلك الصفات، لا يحتاج للتذكّر، لأن التذكُّر يتبع العقل المحدود الذي وهبه الله تعالى للانسان المخلوق. فمحدودية التفكير البشري بحكم التكوين الانساني، تؤدي للغفلة، والنسيان بنسب متفاوتة طبعاً. وحين يستجمع الانسان تفكيره (إن لم يفقد الذاكرة مع الشيخوخة) يتذكر ما يجب تذكّره منه. ولكن حتى وإن تذكرّ، فالاستجماع يحتاج لطلب المعونة من الله عزّ وجلّ: فلو أبقينا تلك المعلومات في ذهننا، وعدنا الى العبارة التوراتية «فتذكّر الله ميثاقه مع ابراهيم واسحاق ويعقوب»، لرأينا فارقاً جوهرياً في مضمونها العقائدي، عن القرآن في الاطار المبيّن آنفاً؛ والمعاني التوراتية بهذا الصدد، تتبع جانب التحريف. وبالوصول لتلك النقطة، فسوف نتجه مرة أخرى نحو المضيّ في تقديم المشهد الثاني عن الأحداث المتعلقة بقصة موسى وفرعون، كما وردت في التوراة، في الفصل التالي من هذه الدراسة.

الفصل الثاني

المشهد الثاني من القصة التوراتية
عرض وتحليل ومقارنة

يبدأ هذا المشهد بإظهار أنّه فيما كان موسى يقومُ برعي غنم حميّه، يثرون، وفي يوم ما، تقدّم بقطيعهِ وراء البريّة، حتى وصوله إلى جبل اللّه تعالى: «حوريب».. في ذلك المكان، ظهرَ له ملاكُ الله، من الجزء الوسطي في عليقة، بلهيب نار، ونظر موسى، فوجد أنّ العلّيقة لم تحترق، مع توقُّدِها بالنار. فقال:

«أميلُ الآن لأنظرَ هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العلّيقة. فلمّا رأى الربّ أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى. فقال هأنذا. فقال لا تقترب الى ههنا. إخلعْ حذاءك من رجليك. لأنّ الموضع الذي أنتَ واقف عليه أرض مقدّسة. ثم قال أنا إله أبيكَ إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب...» (٣، ٤، ٥، ٦ خروج، الاصحاح الثالث).

فماذا فعل موسى؟ غطّى وجهه، إذْ إنه خاف من النظر الى الله. ولكن الربّ قال لموسى، بأنه قد رأى المذلة المُنزلة في شعبه الموجود في مصر، وسمع صراخهم النابع عن استعبادهم، وعلم بالآلام، ولذا نزل لإنقاذهم، بإخراجهم من أرض مصر:

«إلى أرض جيدة وواسعة. إلى أرض تفيض لبناً وعَسَلاً. إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيّين والحويّين واليبوسيّين». (٨ خروج، الاصحاح الثالث).

وعند هذه النقطة، تُظهِر القصة بأن الله تعالى واصلَ الكلام لموسى بالقول:

«والآن هُو ذا صُراخ بني اسرائيل قد أتى إليّ ورأيتُ أيضاً الضيقة التي يُضايقهم بها المصريون. فالآن هلمّ فأرسلكَ الى فرعون وتُخرج شعبي بني اسرائيل من مصر» (٩، ١٠ خروج، الاصحاح الثالث).

وتمضي القصة لتبيّن أن موسى، فوجىء بالأمر الإلهيّ الموجّه له، ويَظهر من اجابته التالية للربّ:

«مَن أنا حتى أذهبَ إلى فرعون وحتى أخرجَ بني اسرائيل من مصر» (١١ خروج، الاصحاح الثالث).

بعدئذٍ تُظهرُ القصة الحوار الآتي بين الله تعالى، وموسى:

«فقال إني أكونُ معكَ وهذه تكون لكَ العلامة أني أرسلتكَ. حينما تُخرج الشعبَ من مصر تعبدون الله على هذا الجبل. فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني اليكم فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى أُهْيَهِ الذي أهيهْ.. وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني اسرائيل يهوه إله آبائكم إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب أرسلني اليكم. هذا اسمي الى الأبد...» (١٢، ١٣، ١٤، ١٥ خروج، الاصحاح الثالث).

وبعد ذلك، تُبيِّن القصة التوراتية بأن الله أمر موسى بالذهاب وجمع شيوخ بني إسرائيل، لإخبارهم بأن الربّ ظهر له، مواساةً لهم لكثرة ما جابهوه من مظالم وإذلال بمصر من جهة، واخراجهم منها لأرض أخرى، من جهة ثانية. وعند تلك النقطة واصل الربّ القول لموسى:

«فاذا سمعوا لقولكَ تدخلُ أنتَ وشيوخُ بني اسرائيل الى مَلك مصر وتقولونَ له الربّ إله العبرانيين التقانا. فالآن نمضي سَفَر ثلاثة أيام في البريّة ونذبح للربّ إلهنا» (١٨ خروج، الاصحاح الثالث).

ثم تبيّن القصة التوراتية ان الله تعالى، سوف يُرغِم فرعون على إطلاق بني إسرائيل بعجائبه، والعجائب نِعمٌ عليهم، ولكن يُعطي بني اسرائيل أكثر من ذلك، كما ورد في النصوص التوراتية الآتية:

«وأُعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين. فيكون حينما تمضونَ أنكم لا تمضون فارغين. بل تطلبُ كلّ امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعةَ ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم. فتسلبونَ المصريين» (٢١، ٢٢ خروج، الاصحاح الثالث).

ولكن موسى أبدى تخوفاً من عدم تصديق الآخرين له بظهور الربّ. فأيَّده الله بمعجزة تحويل العصا الى حيّة، والحيّة الى عصا. ثم أيدّه بالمعجزة الثانية التي جاءت بها النصوص الآتية:

«ثم قال له الربّ أيضاً ادخل يدكَ في عبّكَ. فأدخلَ يده في عُبّه. ثمّ أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج. ثم قال له ردّ يدك الى عبك، فردّ يده الى عُبّه. ثم أخرجها من عبّه وإذا هي قد عادتْ مثل جسده» (٦، ٧ خروج، الاصحاح الرابع).

وتمضي القصة التوراتية للقول بأنه إن لم يُصدّق موسى ومعه هاتان المعجزتان، فتوجد آية أخيرة، وهي أخذه ماء من النهر، وسكبه على اليابسة، فيتحول الماء دماً. ولكن تبيّن أيضاً أن موسى أخبرَ الرب، عند تلك النقطة، بوجود ثقل في فمه ولسانه، فتلقى الردّ الآتي:

«فقال له الرب مَن صنعَ للإنسان فماً أو مَن يصنع أخرس أو أصمّ أو بصيراً أو أعمى. أما هو أنا الربّ: فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلّمك ما تتكلّم به» (١٠، ١١، ١٢ خروج، الاصحاح الرابع).

ثم اختار الرب هارون، أخا موسى، لإعانته، بالقول لموسى:

«وهو يُكلّمُ الشعبَ عنكَ، وهو يكونُ لكَ فماً وأنتَ تكون له إلهاً. وتأخذ في يدكَ هذه العصا التي تصنعُ بها الآيات» (١٦، ١٧ خروج، الاصحاح الرابع).

وبالوصول الى هذا الحدّ، ينتهي التكليم الإلهي لموسى، بجبل حوريب، بموجب القصة التوراتية. فيعود موسى الى حميّه، يثرون، ويستأذنه بالعودة الى مصر، فيتمنّى له السلامة. وهنا تبيّن القصة التوراتية بأن الله تعالى طمأن موسى بإخباره بأن كلّ الذين سَعَوْا لقتله قد ماتوا، فعاد موسى مع عائلته، وفي يده عصا الله، ولكن تُظهر القصة أنّ الرب أخبرَ موسى بالآتي أيضاً:

«وقال الربّ لموسى عندما تذهب لترجع الى مصر انظر جميع العجائب التي جعلتها في يدكَ واصْنَعْها قدّام فرعون. ولكنّي أشدّد قلبه حتى لا يُطلِقَ الشعب. فتقول لفرعون هكذا يقول الربّ. إسرائيل ابني البكر. فقلتُ لكَ أطلقْ ابني ليعبدني. . .» (٢١، ٢٢ خروج، الاصحاح الرابع).

ومن هنا، تنتقِلُ القصة التوراتية الى هارون، أخي موسى، لتبيّنَ أن الرب أمره بالذهاب للبرّية من أجل استقبال موسى. فذهب والتقى بموسى في جبل الله، حيث سمع منه كلّ ما كلمّه الرب الذي أرسله. كما حدّثه عن كلّ المعجزات التي أوصاه الرب بها، ففعل هارون الآتي في الاجتماع الذي أعدّه مع أخيه موسى، للقائه شيوخ بني إسرائيل:

«فتكلمَ هارون بجميع الكلام الذي كلّمَ الربُّ موسى به وصنَعَ الآيات أمام عيون الشعب فآمنَ الشعب. ولمّا سمعوا أن الربّ افتقَد بني إسرائيل وأنه نظر مذَلّتهم خرّوا وسجدوا» (٢٩، ٣٠، ٣١ خروج، الاصحاح الرابع).

هذا ما وَرَدَ في التوراة في المشهد الثاني من قصة موسى مع فرعون، وأبرزُ نقطة هنا، انه على عكس مضامين المشهد الأول، فالوجود الإلهي مكثّف هنا. ولكن ليس في الإطار الشمولي الكونيّ الوارد في القرآن الكريم، بل في الاطار المحدود ببني إسرائيل، بمضامين تتّسم بفوارق شاسعة. فمثلاً لو أخذنا مسألة التكليم الإلهي لموسى في القرآن، فالنقطة الجوهرية فيها، التوحيد ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه]. ثم قيام الساعة والحساب بموجب سعي كل فرد، والعمل الحثيث لنيل الثواب في الآخرة.

هذا، وبكل تأكيد، فقد أتى ذكر الله تعالى هنا، بالإطار الشمولي، الذي يُبيّن انّه ربّ السموات والأرض، ربّ الناس أجمعين، ربّ كل ما في الكون، وربّ موسى؛ وموسى هو مخلوق، عبدٌ لله عزّ وجل، مُلزَمْ بالعبادات، وإقامة الصلاة، وتطبيق الشريعة الالهيّة المُلزمة بدورها للعباد كلّهم، مع تفاوت درجاتهم الروحيّة. ولكنّ في التوراة، فبالتكليم الإلهي لموسى قالَ «أنا إله أبيكَ إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب». فالله، بموجب التوراة، هو إله ابراهيم، وإسحق، ويعقوب، آباء

بني اسرائيل، لا إله العالمين وإله كل الأنبياء والرسل، إله الناس، كما يؤكد القرآن الكريم. والقرآن يؤكد عدل الله المطلق، كإلهٍ للعالمين. ومن ثمّ يركز أكبر تركيز على مساوىء الظلم كمبدأ، وحثٌّ للتوجّهِ نحو العدل والحقّ، وإبراز المصير السَّيِّئ للظالمين الذين يتكرّر وجودهم في حلقات سلسلة التاريخ البشري برمته. بمعنى أنّ القرآن تناول الظلم كآفةٍ مرتبطة بالشرّ، مصيرها الهلاك في دورات متعاقبة بدورات؛ ولكن من غير أن تقتصر على فئة دون أخرى، وذلك من منطلق أفعال المستكبِرين الموجودين دوماً في الساحة الأرضية. يقول تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية].

﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت].

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الشورى/ ٢٢].

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنّ الظلم يحمل في طيّاته إذلالاً لكلّ المظلومين، لأنّ المستكبرين يفقدون كلّ رحمة في النظر اليهم أو في معاملتهم، فكأنّهم لا يعتبرونهم بشراً لهم حقوق البشر. ومن تلك الزاوية، فإنّ القرآن الكريم يحضّ على التعاطف معهم، دون اعتبار للقوم الذي ينتمون إليه، سواء أكانوا قوم نوح، أم بني إسرائيل، أم المستضعفين من مكة لمّا أذلّهم أكابر قريش لدخولهم في الاسلام. كل هؤلاء وأمثالهم المستضعفون من عباد الله تعالى، ينصفهم سبحانه، من الظالمين، بعدله المطلق ويجازي الظالمين، بالعقاب بسعيهم. يقول تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال].

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق].

بتلك الشمولية التي يتحدّث بها القرآن في إنصاف الله عزّ وجلّ المظلومين، وعقاب الظالمين، فلا ينسِبُ شعباً له (تعالى الله عن ذلك) ظُلِمَ في وقتٍ ما من المستكبرين، على أساس الأفضلية الخلقية. ومن هنا فالقارىء للعبارة التوراتية الآتية، يجد فارقاً جوهرياً بين القرآن والتوراة. ففيها ورد. «**إني قد رأيتُ مذلة شعبي الذي في مصر...**» (٧ خروج، الاصحاح الثالث) أي مذلّة بني اسرائيل: أما القرآن، فيخاطب بني اسرائيل كالآتي:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة/ ٤٠].

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة/ ٨٣].

وتكراراً، فالله هو ربّ العالمين الذي أُمِرَ بنو إسرائيل بعبادته، مثل كل المخلوقات، أنصفهم الله تعالى لمّا أذلهم فرعون وآله، ثمّ عاقبهم لمّا بَغَوْا وطَغَوْا في الأرض، مع ترك باب المغفرة لهم مفتوحاً، إن عادوا لحظيرة الحقّ والعدل، تماماً ككل من ظلم وعاد ـ بعد تفكير ـ لتلك البوتقة، بوتقة الحق. وهذا هو العدل الإلهي المطلق، الذي يُشدّد القرآن على تأكيده. وتجدر الاشارة هنا، إلى أنّ الكلمة التوراتية «شعبي» المذكورة سابقاً، تخالف المفهوم القرآني في العدل الإلهي المطلق، وتفسح في المجال للأفضلية في بوتقة القومية. وهذا، إسلامياً، يُخالف السنن الثابتة في الحياة، والتي لا تحويل لها ولا تبديل. ويدخل في جانب «التحريف».

هذا، وطالما يُبيّن القرآن أنّ سنَنَ الكون ثابتة، فمعناه أن الحياة تسير في بوتقة التنظيم التام المبني على الحقّ. ويؤيد التشريع القرآني ذلك في عدّة مجالات. منها الدعوة الى الأمانة التامة في التصرّف وعدم سلب الناس حقوقهم، تحت أيّ ظرف، بل وفرض عقوبة قانونية شرعية على السرقة، منعاً للظلم. ولكن، كما ذُكِرَ سابقاً، فقد ورَدتْ النصوص التوراتية الآتية: «**وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين، فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين. بل تطلبُ كلّ امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضةٍ وأمتعة ذهبٍ وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم. فتسلبون المصريين**». إذاً، هنا نرى فارقاً عقائدياً آخر بين القرآن الكريم والتوراة.. فالله تعالى يُحذّر في القرآن من السرقة ويفرض عقوبة شرعية عليها دنيويّاً، إضافة للعقاب الأخرويّ، في حالة عدم الإرتداع، في حين أن النصوص التوراتية تُحلّل لنساء بني إسرائيل سلب الذهب والفضّة من نساء مصر، ووضعها على أبنائهن وبناتهنّ، للرفع من شأنهم أمام الآخرين. وبالتأكيد، فذاك الموقف التوراتيّ يتبع جانب التحريف أيضاً. وسوف نستفيض ببحث الفرعنة في «الخاتمة». بيد أنّه لو انتقلنا الآن الى فارق آخر جوهريّ بين القرآن والتوراة، بصدد قصّة موسى مع فرعون، فذاك يتجسّد في مسألة العُقدة في لسان موسى، والاستغاثة بالله

تعالى لحلِّها له. لمّا كلّفَ الله تعالى موسى بمجابهة فرعون بطغيانه، استغاثَهُ موسى بالآتي بموجب القصة القرآنية ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه]. . وفي تلك الاستغاثة، يطلبُ موسى من ربّه أن يشرح صدره، للرابطة الوثيقة بين الوجدان والعقل. فشرح الصدر يؤدّي إلى تفتّح المدارك الذهنية في أحسن صورة ممكنة، بحيث يمتلك العقلُ القدرة السليمة على التحليل المدعم بالأدلّة والبراهين المقنعة. حتى إذا ما خرجت المعلومات الى حيّز النطق، فإنها تخرج في اطار التنظيم المدعّم بالحجج الواضحة، فتُفهم، وهي في صورتها المتألّقة تحت الرعاية الإلهية. وذاك كلّه يعني أنّ موسى كان يتطلع الى العون الإلهيّ له لزيادة علمه، وتنمية مداركه الفكرية وصولاً إلى الإقناع، الذي لو تجاهله الطرف الآخر (فرعون) فسوف يكشفُ عن عدوانيته تماماً، ويضعه في مأزق جوهريّ، يؤثّر عليه، وعلى مركزه تدريجاً، وهذا ما حصل لفرعون، بعد حوار موسى معه، بصحبة أخيه هارون أوّلاً؛ وبعد المباراة الكبرى التي أيدّت حواره بالمعجزات التي أفاضها اللّه تعالى عليه، ثانياً؛ إذ جابَهَ فرعون بضربةٍ جوهريّة، أثّرتْ على مسار حكمه، وقتئذٍ. ولكن لو انتقلنا للتوراة، فلن نجد الأسس المنطقية المُصاحِبة لطلب موسى في إعانته بالكلام، كما هو الحال في القرآن. وهذا ما يتجلّى في النصوص التوراتية الآتية: **«فقال موسى للربّ استمغ أيها السيد. لستُ أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلّمتَ عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان»** (١٠ خروج، الاصحاح الرابع). بيد أن الإجابة لموسى كانت كالآتي: **«فقال له الربّ مَن صَنَعَ للانسان فماً أو مَن يصنع آخرس أو أصمّ أو بصيراً أو أعمى. أمّا هو أنا الربّ. فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلّمك ما تتكلّم به. فقال استمع ايها السيّد. أرسل بيد مَن تُرسِل. فحَمِيَ غضب الرب على موسى وقال أليس هارون اللاوي أخاكَ. أنا أعلم أنّه هو يتكلّم»** (١١، ١٢، ١٣، ١٤ خروج، الاصحاح الرابع).

والجدير ذكره أنه بخصوص القصّة القرآنية، فإنها تُظهِر موسى وهو يعلم أن الله تعالى وازَنَ بين الوجدان والعقل في البُنية البشرية، بحيث جعل الوجدان مركزاً لتلقّي العلم الإلهامي الذي يفيضه الله تعالى على المخلصين له في إيمانهم (وحتى

على الأنبياء الذين يتلقّون الوحي). والإلهام غير الوحي قطعاً، لأنّ الإلهام نور يضعه الله تعالى في قلب المؤمن، متى شاء حكمةً فائقة.

وبعلم موسى التام بتلك الحقائق، توجّه للّهِ تعالى يطلب أن يشرح صدره، ويُيَسِّرَ أمره في تنمية مدارك ذهنه بأحسن وجه، للتمكّن من الكلام بطلاقة مُوجِبة للإقناع، بالرعاية الإلهية. فاستجابَ الله تعالى لطلب موسى. أمّا النصوص التوراتية المذكورة آنفاً، فكأنها تحمل في طياتها نوعاً من تثاقل موسى عن أداء مسؤوليته في مجابهة فرعون، كما يظهرُ من العبارة الآتية «فقال موسى للربّ استمع ايها السيّد، لستُ أنا صاحب كلام مُنذ أمس ولا أوّل من أمس ولا من حين كلّمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان». ومع ذلك التثاقل التوراتيّ من جانب موسى، لأداء مسؤوليته، بموجب رؤيتنا للأمور، يخرج موقفه في مخاطبة الله تعالى عن الحدود المُبرزة في القرآن، بصدد الطاعة المطلقة من الانبياء والرسل لرب العالمين. وعليه، فالمعاني التوراتية بهذا الخصوص تخضع للتحريف أيضاً.

هذا، واضافة لذلك الفارق الأساسي بين القرآن والتوراة، فهناك فارق آخر مختصّ «بمسألة القضاء والقدر». فبالنسبة للقرآن الكريم، فإنه يُبيّن أنّ الانسان مخيّر في أمور، ولكنه مُسيَّرٌ في أمور أخرى. وذلك لأن الله تعالى خصّهُ بالعقل دون باقي المخلوقات، ليميّز بين الخير والشر، والرسالات السماوية أمامه منذ عصر نوح الى عصر النبي محمد (ﷺ). أما والأمر كذلك، فالانسانُ مخيَّر في جانب «الأعمال» وحسابه يخضع لتلك الأعمال، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. وبالنسبة لفرعون وآله، كما ورَدَ ذكرهم في القرآن الكريم، فظلمهم وتشدّدهم في التطاول على الدين، والعدل، والحق، نابعان من توجهاتهم نحو الشرّ، ولذا فعليهم وحدَهم تقع مسؤولية الظلم التي يحاسبهم الله عليها، بعقابهم، وإرجاع الحقوق للمستضعفين. يقول تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

إن قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص] يشير الى تخوّف فرعون وجنده من ضياع ملكهم في يومٍ ما، بسبب إعمالهم في البطش والتنكيل ببني اسرائيل، وهذا الضياع آتٍ بسعيهم وبأيديهم. هذا، مع العلم بأنه عندما دارت الدوائر ضدهم، وتعرضوا للعقاب السماوي، كان ذلك جزاءً لما قدّمت أيديهم، ليكونوا عبراً ودروساً للنّاس في كلّ زمان ومكان. إذاً فحريّة الاختيار، الواردة في القرآن الكريم، تؤكد الآتي:

أ) انّ الله تعالى مُنزّه تنزيهاً كلّيّاً عن الشرّ والظلم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران/ ١٨٢ والأنفال/ ٥١ والحج/ ١٠].

ب) انّ الله عزّ وجلّ، يترصّد أعمال الظالمين، ويُحبطها في الوقت الذي يختاره بمشيئة.

جـ) ان الله عزّ شأنه، يُغيّر الأحوال كلما التوت موازين الحق في التاريخ بدوراته، ويُعاقب الظالمين ويجعلهم عِبْرةً للناس. وهذا ما حصل لآل فرعون تماماً: أساؤوا استخدام حرّية الاختيار التي يحظى بها كل أبناء البشر على قدم المساواة، على أساس أن حسابهم، يخضع لأعمالهم التي يجب ان تتماشى مع القوانين الروحية، فعاقبهم الله تعالى جزاء ظُلمهم بالدنيا والآخرة، كما ذُكِر بالتفصيل سابقاً.

فلو أبقينا هذه المعلومات في ذهننا، وانتقلنا الى مسألة القضاء والقدر في التوراة، في قصّة موسى مع فرعون، لوجدنا أنّ أعمال فرعون تتبعُ الجانب الجبريّ بموجب النصوص المذكورة سابقاً: «وقال الربّ لموسى عندما تذهب لترجع الى مصر انظرْ جميع العجائب التي جعلتها في يدك واصنعها قُدّام فرعون. ولكني أشدّد قلبه حتى لا يُطلق الشعب». تلك النصوص، تُرجع عناد فرعون، وإصراره على ظلم بني إسرائيل، واستعبادهم دون الاستجابة أبداً لإطلاقهم، الى قلبه، الذي شدّده الرب. أو بكلمة أخرى، فوقفةُ فرعون في عدم إطلاق بني اسرائيل، وقفة تخضع للجانب الجبري في الحياة، كما يظهر في هذا المشهد: يأمر الرَّبُّ موسى بصنع العجائب أمام فرعون، بعد رجوعه لمصر. ويُشدّدُ الرَّبُ على فؤاد فرعون

حتى لا يُطلِقَ الشعب، مع أن هدف البيّنات هو تطويع فرعون لإخراج بني اسرائيل مع موسى من مصر، بسبب إذلال فرعون لهم، كما ورد في النصوص التوراتية. **«فقال الربّ إني قد رأيتُ مذلة شعبي الذي في مصر وسمعتُ صراخهم من أجل مُسخّريهم. إني علمتُ أوجاعهم. فنزلتُ لأُنقِذَهُم من أيدي المصريّين وأُصعِدَهم من تلك الأرض الى أرض جيّدة وواسعة...»** (٧، ٨ خروج، الاصحاح الثالث).

وفي إشارة جانبية هنا إلى أن المشهد الثالث يضع الأمور تارة في حيّز «الجبر»، وطوراً «الاختيار»؛ بخلاف «الجَبْرِ» في المشهد الثاني ولكن مع هيمنة الجبرية كما سوف يرى القارىء لاحقاً. هذا، بالنسبة للفروق بين القرآن والتوراة فيما يتعلّق بالقضاء والقدر، كما يتمثّل في قصة موسى مع فرعون. بَيْدَ أنّ هنالك فارقاً عقائديّاً آخر في المشهد الثاني من تلك القصة يتعلّق بموضوع التوحيد. إذ ورَدَ في التوراة النصّ الآتي من الربّ لموسى: **«فتقول لفرعون هكذا يقول الرّبّ. إسرائيل ابني البكر، فقلتُ لك أطلقْ ابني ليعبدني فأبيتَ أن تطلقه...»**. ومن المؤكّد أن المضمون التوراتي هذا يتعارض مع القرآن الكريم، ويخضع للتحريف. فالقرآن الكريم يشدّد على التوحيد:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة/ ١١٦].

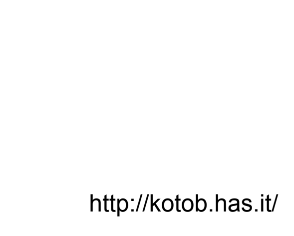
﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء/ ١١١].

﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١)﴾ [مريم].

وتجدر الاشارة هنا إلى أن مصدر متاعب بني اسرائيل مع فرعون، كما يذكر القرآن، هو تمسّكهم بالتوحيد، فتأتي عبارة «اسرائيل ابني البكر» لتُذهبَ مبدأ التوحيد، وهذا دليلٌ على التحريف: بَيْدَ أنّه بالانتقال للقرآن الكريم، فمن المؤكد أنّ المحور القرآني الرئيس في قصّة موسى مع فرعون هو تثبيت التوحيد، وذلك لإظهار أن التأليه لأيّ حاكم، ظلم كبيرٌ، يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة معاً. ان المعجزات التي أفاض الله تعالى بها على موسى تهدف الإظهار لفرعون أنّ الله واحد، وهو قادر على الإحياء والإماتة، في وقت لا يقدر فيه فرعون على شيء من ذلك؛ لأنّه بشر محدود بعقله؛ مصيرهُ الفناء كغيره. كما أنّ الكوارث التي

أنزلها الله تعالى على مصر، في وقت إصرار فرعون وآله على عدم إخراج بني اسرائيل من مصر، لدلائل على التوحيد. ثم إنّ رفع الرِّجْزِ عنهم فيما بعد، لدليل آخر على التوحيد. . . وهكذا. وكل ذلك يشكل بواعث في القصة القرآنية على الإيمان بالله تعالى، الذي يخضع كلُّ شيء لحكمه سبحانه، فهو الخالق للكون وما فيه.

وفي ذلك عبر قرآنية، مفادها عدم الخشية من الحاكم المتألّه، حيث أنّ الخشية هي من الله تعالى وحده، لا شريك له، الذي له القوّة والعزّة جميعاً. وبالوصول لتلك النقطة، فسوف ننتقل للمشهد الثالث من القصّة التوراتيّة بخصوص موسى مع فرعون، بفصل آخر.



المشهد الثالث
عرض الأحداث التوراتية

بالتركيز الآن على المشهد الثالث من القصة التوراتية، نجد انها تمضي الآن، لِتُبيّنَ ذهاب موسى وهارون، إلى فرعون، والطلب منه إطلاق بني اسرائيل ليعبدوا الله في البرّية، بموجب قول الرب لهما:

«فقالَ فرعون مَن هو الربّ حتى أسَمَع لقولِه فأُطلِق إسرائيل. لا أعرفُ الربّ وإسرائيل لا أُطلِقُهُ. فقالا إله العبرانيين قد التقانا. فنذهب سَفَر ثلاثة أيام في البرّية ونذبح للرّبّ إلهنا. لئلاّ يصيبنا بالوباء أو بالسيف. فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهارون تُبْطلان الشعبَ من أعماله. اذهبا الى أثقالكما. وقال فرعون هو ذا الآن شعب الأرض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم» (٢، ٣، ٤، ٥ خروج، الاصحاح الخامس).

ومن جرّاء ذلك، أمر فرعون بزيادة أعباء بني اسرائيل في العمل، لكي يحول بينهم وبين الذهاب للبرية. وفي الوقت نفسه، زاد من الإذلال لهم بواسطة رجاله. ولمّا تذمّر رؤساؤهم أمام فرعون، اتّهمهم بالكسل، وزعم أنّهم يطلبون الذّهاب للبريّة والذبح للرب هناك، تهرّباً من مسؤولياتهم. وتمضي القصة التوراتية للقول:

«وصادفوا موسى وهارون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدنْ فرعون. فقالوا لهما ينظر الربّ إليكما ويقضي. لأنّكما أَنْتَنْتُما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتى تُعطيا سيفاً في أيديهم ليقتلونا. فرجعَ موسى الى الرّبّ وقال يا سيّد

لماذا أسأتَ الى هذا الشعب. لماذا أرسلتني. فإنّه منذ دخلتُ الى فرعون لأتكلّم باسمكَ أساء الى هذا الشعب وأنت لم تخلّص شعبك» (٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣ خروج، الاصحاح الخامس).

ومن تلك النقطة، تُبيّن القصة أن الرّبّ طمأنَ موسى بإبلاغه أن اطلاق فرعون لبني اسرائيل قادم، مُبيّناً له عهده مع إبراهيم وإسحق ويعقوب، لإعطاء لبني إسرائيل أرض كنعان، طالباً منه إبلاغ بني اسرائيل بالآتي، نقلاً عن الرب:

«لذلكَ قُلْ لبني اسرائيل أنا الرّبّ وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديّتهم وأخلّصكم بذراع محدودة وبأحكام عظيمة. وأتّخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً. فتعلمون أنّي أنا الرب إلهكم الذي يخرجكم من تحت أثقال المصريين. وأُدخلكم الى الأرض التي رفعتُ يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب. وأعطيكم إيّاها ميراثاً أنا الرب». (٦، ٧ ، ٨، ٩ خروج، الاصحاح السادس).

ومن هنا، تُبيّن القصة انّ موسى نقل الرسالة الربّانيّة إلى قومه، ولكنهم لم يسمعوا له، من شدّة العبوديّة المسلَّطة عليهم. ثم تكلّم الرب مرّة أُخرى مع موسى قائلاً له:

«أدخلْ قل لفرعون ملك مصر أن يُطلِقَ بني إسرائيل من أرضه. فتكلّم موسى أمام الرّبّ قائلاً هوذا بنو إسرائيل لم يسمعوا لي. فكيف يسمعني فرعون وأنا أغلف الشفتين» (١١ ، ١٢ ، ١٣ خروج، الاصحاح السادس).

فكلّمهُ الرّبّ مرَّةً أُخرى مع أخيه بهذا الخصوص. ثم كلّم موسى، فيما بعد في سياق الموضوع نفسه أيضاً، فعاد موسى فذكر أمام ربّه أنّه أغلف الشفتين، فكيف يمكن إصغاء فرعون له؟ ولكن، هنا، تذكُر القصة الآتي:

«فقال الرَّبّ لموسى أنظر. أنا جعلتك إلهاً لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيّك، أنت تتكلم بكلّ ما آمرك، وهارون أخوكَ يكلّم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه. ولكن أقسي قلب فرعون وأكثر آياتي وعجائبي في أرض مصر. ولا

يسمع لكما فرعون حتّى أجعلَ يدي على مصر فأُخرج أجنادي شعبي بني اسرائيل. . .» (١، ٢، ٣، ٤ خروج، الاصحاح السابع).

وعند هذا الحدّ تُبيّن القصة التوراتية أن موسى وهارون ذهبا لفرعون، لتنفيذ ما أمرهما الرّبّ. ولكنّ الرّبّ كلّمهما بالقول، إنْ طلبَ فرعون معجزة منهما، فعلى هارون أن يقوم بمعجزة «العصا» أمام فرعون. وذاك ما حصل. فدعا فرعون سحرة بلاده، وفعلوا الآتي:

«طَرَحوا كلّ واحد عصاه فصارتْ العصي ثعابين، ولكنّ عصا هارون ابتلعتْ عِصِيَّهُمْ. فاشتدَّ قلبُ فرعونَ فلم يسمع لهما كما تكلّمَ الرَّبُّ» (١٢، ١٣ خروج، الاصحاح السابع).

وبناء على ذلك، اشتّد عناد فرعون وتجسَّد برفض إطلاق بني اسرائيل. بَيْدَ أنّ الرّبّ أمره بالذّهاب للقاء فرعون على حافة النهر في الصباح، وفي يده العصا التي تحوّلت حيّة، وإبلاغه بالأمر الإلهيّ لإخراج بني إسرائيل من مصر. وعند تلك النقطة، أمر الرّبّ موسى بإخبار هارون بأخذ عصاه، ومدِّ يده على مياه المصريين. فتتحول دماً ينتشر في كل مصر، في الأخشاب والأحجار. . وقد أبلغ موسى هارون بذلك، وفعل ما أُمِر:

«رفع العصا وضَرَبَ الماء الذي في النهر أمام عينيّ فرعون وأمام عيون عبيده. فتحوّل كل الماء الذي في النهر دماً. وماتَ السمك الذي في النهر. وأنتنَ النهر. فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماءً من النهر. وكان الدم في كل أرض مصر. وفعل عرّافو مصر كذلك بسحرهم. فاشتدّ قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلّم الرب. ثمّ انصرف فرعون ودخل بيته ولم يوجّه قلبه إلى هذا أيضاً. وحفر جميع المصريين حوالي النهر لأجل ماءٍ ليشربوا، لإنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر». (٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤ خروج، الاصحاح السابع).

وبعد سبعة أيام من ضرب الرب للنهر، أمر موسى بالعودة لفرعون، والطلب منه إطلاق شعبه (أي شعب الربّ) لعبادة الربّ، وإلاّ فالنتيجة ضرب جميع تخومه بالضفادع، فيفيض النهر بها، فتدخل بيت فرعون، وبيوت عبيده، وشعبه. وبعد

ذلك، أمر الرب موسى إبلاغ هارون لمدّ يده بعصاه على الأنهار، إضافة الى السّواقي فالآجام، لتصعد الضفادع على أرض مصر، ففعل هارون ذلك، وغطّت الضفادع أرض مصر:

«وفَعَل كذلك العرّافون بسحرهم وأصعدوا الضفادع على أرض مصر» (٧ خروج، الاصحاح الثامن).

ولكنّ انتشار الضفادع في مصر أزعج فرعون، فطلب من موسى وهارون رفع الضفادع عنه وعن المصريين. فلبّى موسى طلب فرعون. ولمّا استغاث بالرّبّ، أغاثه، فماتت الضفادع، وذهب الضُرّ الحاصل بسببها. ولكنْ بهذا الفَرَج، عاد فرعون مرّة أخرى إلى قسوته برفض إخراج بني اسرائيل من مصر. وتجاه هذا، أرسل الرب كوارث أخرى على أرض مصر. وكذلك أمر موسى بوجوب مدّ عصاه، وضَرْبِ تراب الأرض، لكي يصير بعوضاً، وحَصلَ ذلك، وانتشر البعوض:

«وفَعَل كذلك العرّافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا. وكان البعوض على الناس وعلى البهائم، فقال العرّافون لفرعون هذا أصبع الله. ولكنِ اشّتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلّمَ الرّبّ» (١٨، ١٩ خروج، الأصحاح الثامن).

وتجاه عناد فرعون المستمر ذاك، أمَر الله تعالى موسى بالذّهاب، مرة أخرى إلى ذلك الحاكم، وتوجيه الأمر له بإطلاق شعب الرب لعبادته، وإلا فسوف يبعث الرب عليهم كارثة الذباب، ويحجبها عن بني اسرائيل. وحصل هذا، فطلب فرعون من موسى وهارون الصلاة لرفع الذباب عنه وعن عبيده وشعبه، ففعل موسى، واستجابَ الربّ له، إلا أنّ فرعون عاد لقسوته السابقة في رفضه إطلاق بني اسرائيل من مصر، وما إن تصل الأحداث في القصة التوراتية لهذا الحدّ، حتى تظهرَ كوارث أخرى، من قبل الرب، على فرعون وعلى شعبه، وهي بالترتيب: إماتة كلّ مواشي المصريين، مع الإبقاء على مواشي بني اسرائيل كما هي، وإصابة الناس والبهائم ببثورٍ، كما جاء في النصوص الآتية:

«ثم قال الرّبّ لموسى وهارون خُذا ملء أيديكما من رماد الآتون، وَلْيُذَرِّهِ موسى نحو السماء أمام عيني فرعون ليصير غُباراً على كلّ أرض مصر. فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كلّ أرض مصر» (٨، ٩، ١٠ خروج، الأصحاح التاسع).

هذا، ولم يتمكن العرّافون من حلّ المشكلة، لأنّ الدمامل ظهرتْ عليهم أيضاً، ومع ذلك بقي فرعون على قسوته في رفضه إخراج بني اسرائيل من مصر. وإثر تحذيرِ لفرعون أنزلَ الرب الكارثة الآتية في أرضِ مصر؛ بعد مدّ موسى عصاه نحو السماء، كما ورد في هذه النصوص:

«فأعطى الرب رعوداً وبَرَداً وجَرَتْ نارٌ على الأرض وأمطَر الرَّبُّ بَرَداً على أرض مصر، فكان بَرَدٌ، ونارٌ متواصلة في وسط البَرَد. شيء عظيم جداً لم يكن مثله في كل أرض مصر منذ صارت أُمّة» (٢٣، ٢٤ خروج، الأصحاح التاسع).

وكنتيجة لذلك، فقد ضرب البَرَدُ الناس والبهائم وعشب الحقول، مُحطِّماً جميع الأشجار، باستثناء أرض جاسان، حيث كان يقطن بنو إسرائيل، فلم تُضْرَب بالبَرَد. فعاد فرعون للطلب من موسى وهارون الصلاة للرب لإنقاذه مع المصريّين من كارثة البَرَد تلك؛ ففعل موسى، ولكنّ فرعون عاد لتشدّده في الرفض لإخراج بني اسرائيل من مصر، فحصلَ الآتي:

«ثمّ قال الرّبّ لموسى ادخُلْ إلى فرعون فإنّي أغلظت قلبه وقلوب عبيده لكي أصنعَ آياتي هذه بينهم. ولكي نُخبِرَ في مسامع ابنك وابن ابنك بما فعلته في مصر وبآياتي التي صنعتها بينهم. فتعلمونَ أني أنا الرب» (١، ٢ خروج، الأصحاح العاشر).

وهنا، تُظهرُ القصة التوراتية، أنه تجاه تشدّد فرعون، ذهب موسى وهارون إليه لإخباره بضرورة إطلاق سراح بني اسرائيل، أو تسليط الجراد عليهم من السماء، الذي تم لاحقاً، وخرَّبَ الجراد مصر حين أكل عشب الأرض، وثمر الشجر الذي تركه البَرَد، فلم يترك شيئاً أخضر لا في الشجر، ولا في العشب. وانطلاقاً من ذلك، حدث ما يأتي:

«فدعا فرعون موسى وقال اذهبوا اعبدوا الرَّبَّ. غير أنّ غنمكم وبقركم تبقى. أولادكم أيضاً تذهب معكم. فقال موسى أنتَ تعطي أيضاً في أيدينا ذبائح ومُحرقات لنصنعها للربّ إلهنا، فتذهب مواشينا أيضاً معنا، لا يبقى ظلف... ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتي إلى هناك. ولكن شدّد الرب قلب فرعون فلم يشأ أن يطلقهم. وقال له فرعون اذهب عني. إحترز.، لا ترَ وجهي أيضاً. إنكَ يوم ترى وجهي تموت. فقال موسى نِعمّاً قُلتَ. أنا لا أعودُ أرى وجهك أيضاً» (٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩ خروج، الأصحاح العاشر).

وعند تلك النقطة، تُبيّن القصة التوراتية أنّ الرب سيوقع كارثة بفرعون، وبمصر كلّها؛ وبعدها يُطلِق سراحهم؛ وأمره بالتكلم على مسامع بني اسرائيل، لكي يطلب كل شخص من أصحابه، وكل امرأة من صديقاتها، أمتعة فضة وذهب:

«وأعطى الرّب نعمة للشعب في عيون المصريين وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر في عيون عبيد فرعون وعيون الشعب» (٣ خروج، الأصحاح الحادي عشر).

وبعد ذلك، تذكرُ القصة التوراتية قولاً لموسى مفاده، أن الرب سوف يخرج وسط مصر نحو مُنتصف الليل، ويحصل الآتي:

«فيموتُ كلُّ بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلْف الرحى وكل بكر بهيمة. ويكون صُراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن قبله ولا يكون مثله أيضاً» (٥، ٦ خروج، الأصحاح الحادي عشر).

وتمضي القصة التوراتية للقول نصّاً:

«فحدث في نصف الليل أن الربّ ضرب كلّ بكرٍ في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذي في السجن وكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين. وكان صُراخ عظيم في مصر. لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت. فدعا موسى وهارون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين

شعبي أنتما وبنو اسرائيل جميعاً. واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم. خذوا غنمكم أيضاً وبقركم كما تكلمتم واذهبوا. وباركوني أيضاً...» (٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣ خروج، الأصحاح الثاني عشر).

وعندها طلب بنو اسرائيل أمتعة الفضة والذهب والثياب من المصريين، وذلك، بموجب النصوص التوراتية:

«وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتّى أعاروهم، فسلبوا المصريين». (٢٦ خروج، الأصحاح الثاني عشر).

وهكذا ارتحل بنو اسرائيل عن مصر، ولكنّ فرعون لَحِقهم، بعد ان عادت إليه القسوة الوجدانية المعروفة عنه، بَيْدَ أنّ الربّ أنقذهم كما جاء في النص التوراتي:

«قال الرّبّ لموسى مُدّ يدكَ على البحر لترجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم، فمدّ موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة، والمصريون هاربون إلى لقائه، فدفع الرّبّ المصريّين في وسط البحر، فرجع الماء وغطّى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، لم يبقَ منهم ولا واحد. وأمّا بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، فخلّص الرب في ذلك اليوم اسرائيل من يد المصريين، ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين، فخافَ الشعب الرّبّ وآمنوا بالرّبّ وبعبده موسى». (٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠ خروج، الأصحاح الرابع عشر).

هذا وبالوصول إلى تلك النقطة، نكون قد انتهينا من عرض كل المادة المختصة بالقصّة التوراتيّة عن موسى وفرعون باختصار. أما بالنسبة لتحليل تلك المادة المستجدة في المشهد الثالث من القصة التوراتية، فهذا ما سوف ننجزه في خاتمة هذه الدراسة.



الفصل الرابع

تحليل المشهد الثالث ومقارنته

قبل البدء بتحليل المشهد الثالث من القصة التوراتية، بمقارنة عقائدية مع القرآن، يجب أن يُذكر بأننا حتى الآن قُمنا بعرض ثلاثة مشاهد عن قصة موسى وفرعون، كما وردتْ في التوراة، بحيث تُغطي باختصار القصة التوراتية بكاملها. وقُمنا في، الوقت نفسه، بتقديم تحليل لأول مشهدين، في خضّم مقارنة قرآنية توراتية، تبرز فوارق عقائدية هامّة بين الكتابين المقدّسين بصددِ المَسائل الآتية: التوحيد، الصفات الالهيّة، الخير والشر، القضاء والقَدَر وغيرها. هذا وبصدد المشهد الثالث، فسوف نقومُ الآن بتقديم تحليلٍ لمادته التوراتية، في ظل استطرادٍ للمقارنة التي أُجريتْ في الفصلين، الأول والثاني من الباب الثاني من هذه الدراسة؛ وإشارةٍ إلى مواطن «التحريف» التوراتي، التي تأخذ خطّاً واحداً في القصة التوراتية، مع شرح علمي، لأسباب ذلك التحريف.

على أنه بالتركيز الآن على مُجريات أحداثِ المشهد الثالث من قصة موسى وفرعون التوراتية، نلاحظ انه مع اتفاقِ القرآن والتوراة في محور ظلم فرعون لبني اسرائيل، البالغ حدّاً بعيداً، في آثاره على أبناء الشعبِ ذاك، وبالتالي، في التكليف الإلهي لموسى لإخراجهم من مصر، من نيّر عبودية فرعون وجنده، إلاّ أن هنالك فوارق جوهرية في أسلوب الاخراج ذاك، تحمل في طيّاتها فوارق عقائدية بين الكتابين المقدسين. وهي تبتدئ من نقطة ذهاب موسى وهارون إلى فرعون بموجب القصة التوراتية، والقول له كما ذُكِر في السابق: «هكذا يقول الربّ إلى اسرائيل أطلِقْ شعبي ليعبدوا لي في البريّة. فقال فرعون من هو الربّ حتى أسمع

لقوله فأُطلِقَ اسرائيل. لا أعرِفُ الربّ وإسرائيل لا أُطْلِقه. فقالا إلهُ العبرانيّين قد التقانا. فنذهبُ سَفَر ثلاثة أيام في البرّيّة ونذبحُ للرّبّ إلهنا. لئلاّ يُصيبنا بالوباء أو بالسيف. فقال لهما مِلِكُ مصر لماذا يا موسى وهارون تُبطِلان الشعبَ من أعماله. اذهبا إلى أثقالكما، وقال فرعون هوذا الآن شعب الأرض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم». وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في هذا الحوار، تَبرزُ النقاط الآتية:

أ) انّ الرّبّ هو إله اسرائيل بالتخصيص، يأمر بإطلاق شعبه للعبادة في البرّية.

ب) استكبار فرعون وكفره بالرّبّ، وإصراره على عدم إطلاق بني اسرائيل .

جـ) إظهار قدرة ربّ بني اسرائيل على فعل الأشياء التي يعجز عنها البشر، وبالتالي تأكيد وجوب طاعته من موسى وهارون.

د) تهجم فرعون على طلب موسى وهارون، واعتباره كنوع من إراحة بني اسرائيل عن العمل المطلوب منهم، وإشاعة التكاسل بينهم. ولذلك كانت نتائج طلب موسى وهارون عكسية، من منطلق ظلم فرعون وتيهه وعناده.

وبمقارنة حوار موسى وهارون، بنقاطه المذكورة أعلاه، بحوار موسى مع فرعون، الوارد في القرآن الكريم، نجد الفوارق الآتية:

أ) في القرآن، فإن الله هو ربّ السموات والأرض وما بينهما، أي هو الخالق، لكل شيء، المتصرّف بشؤون العباد، المنظم لأمورهم، العليم بكل أحوالهم ومجريات تاريخهم، المشرف عليها، والكافي لإبطال الظلم، حين تلتوي الموازين الأرضية، بفعل الطغاة، بشتى دورات التاريخ. وبهذا الإطار، فالله تعالى في القرآن، هو الإله المسيطر على جميع العباد الذين خلقهم، دون تخصيص شعب له. وتجدر الإشارة هنا، إضافة لما سبق، إلى أن تخصيص بني اسرائيل كشعب الله تعالى، لا يتناسب أبداً مع قوانين المساواة في الخلْق، بموجب الرسالات السماوية، كما هي مذكورة في القرآن الكريم. . . لِمَ يخْلُقُ الله تعالى عباداً له، بأجيال وأجيال، طالما أن الطبيعة البشرية واحدة من حيث التكوين؟ وطالما أن كل مخلوق جاء لأداء مسؤولية التكليف، ثم المحاسبة في الآخرة لكل فرد بموجبها؟ إنْ مَيَّزَ الله تعالى بني إسرائيل على غيرهم أيام شدّة بغْي فرعون عليهم، وبطشه

بهم، فذلك جاء كنتيجة للرحمة الإلهية التي يهبها، سبحانه، للمظلومين على مرّ العصور، لطمأنتهم بوقوف السماء إلى جانبهم، لتحريرهم، وإعادة حقوقهم لهم، كما ذكرنا في السابق، ويجب أن نبين هنا أن الله تعالى خاطبَ بني اسرائيل بالآتي في القرآن الكريم:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢٢) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة].

١ ـ مفهوم الأفضلية في القرآن والتوراة

إن تلك الآية تؤكد أولاً أن للتفضيل قواعدَ روحية، وأنّ تفضيلَ بني اسرائيل على غيرهم جاء في ذلك الإطار، في زمان معين، وفي ظروف محددة، بَيْدَ أن قوله تعالى ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة/ ١٢٢] تشيرُ إلى حدوث جحود من قبل بني اسرائيل بالنعمة الإلهية، المستجدة في اخراجهم من عبودية فرعون لهم؛ يوم أن هيّأ الله لهم الأسباب لتحقيق التحرير، لأن سنَنَ الكون التي وضَعها الله تعالى قائمةٌ على اقرار الحق والعدل. «والجحود» ذاك يعني نسيان بني إسرائيل الفضل الإلهي في انقاذهم من عبودية فرعون وجنده لهم، والسَّير بأنفسهم نحو التّيهِ والطغيان، بعد حصولهم على المُراد. وبناء على ذلك، فالله تعالى يُحذّرهم من سوء العاقبة في الآخرة، لأنَّ الحساب يجرى على كل فرد، بسعيه، دون شفاعة ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة/ ١٢٣]. إذاً، بموجب النظرة القرآنية تلك، فإن كلمة «شعبي» الواردة في عبارات توراتية قبل «أطلق شعبي ليعبدوني»، تقف تكراراً كتحريف، ومُنطلقُهُ، هو وَضع بني اسرائيل لأنفسهم في مكانة فوق الآخرين. وإلههم يُراعي مصالحهم وحدهم، وحين يتذمّرون أمام موسى، يتعصّب لهم، ويتذمَّر للإله يهوه نيابة عنهم. وهنا تنشأ فوارق بين التوراة والقرآن:

أ) إن القرآن الكريم لا يذكر اسم الله الأعظم، حتى يُدرِك كلّ الناس بأن الله هو ربّ العباد كلهم على مدى التاريخ.

ب) إن الأفضليّة التي تضعها التوراة لبني اسرائيل مرتبطة بنظرية الميراث للأرض، التي تختلف بدورها اختلافاً كلّيّاً عمّا ورد في القرآن الكريم بصددها.

ج) إن مفهوم النُبوَّة التوراتي يختلف عن المفهوم القرآني إلى حدّ بعيد.

٢ ـ نظرية الميراث للأرض في القرآن والتوراة

بالنسبة لنظرية ميراث الأرض القرآنية، فهي مرتبطة بمسألة إخسار الموازين من قبل الظالمين من أبناء البشر، وإعادة تلك الموازين لاستوائها بالقدرة الإلهية العظيمة.. أو بتعبير آخر، فلتلك النظرية علاقة بالظلم البشري من حيث المسبِّبات، وعلاقة بالعدل الالهي المطلق من حيث إبطال المسبِّبات؛ والقرآن يُبرز للمستكبرين الذين يعيشون في الأرض فساداً، القدرة الإلهيّة على إذهابهم عن الأرض، واستخلاف مَن يشاء من بعدهم، فالله تعالى الذي خَلَق أبناء البشرية بأجيالهم، ووضَعَ أمامهم الكتب السماوية، للتصرّف من جانبهم بالحقّ، قادر على إهلاك الأقوام الطاغية. واستبدالهم بأقوام أخرى؛ والخاسرون هم الطغاة، لا غيرهم، يقول تعالى:

﴿يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [الأنعام/١٣٣].

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود/٥٧].

هذا، وحين يُذهِبُ الله تعالى الطغاة الذين أسرفوا في ظلم المؤمنين، والذين يعملون الصالحات ـ لاصرارهم على السير في طريق الحق ـ على عكس ما يريده الطغاة؛ فاللهُ تعالى يُعوِّض المؤمنين أولئك بالاستخلاف في الأرض، جزاء صبرهم، وإخلاصهم له في الدين، وثباتهم في التمسك بالمبدأ، والقيم، لإعلاء حكمة الله عزَّ وجلَّ. يقول جلَّ شأنه:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور/٥٥].

هذا، وفي استمرارية الاستخلاف بالاطار الذي تَمَّ شرحه أعلاه، فقد ورَدَ قوله الكريم:

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور/ ٥٥].

ولكن فيما يختص ببني إسرائيل ومسألة الاستخلاف، فقد ورَدَ قوله تعالى:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف].

ان تلك الآية الكريمة تضع مسألة الميراث للأرض ضمن الرعاية الإلهية للمستضعفين، بمعنى أنّها تُبرز مفهوم الاستخلاف في الاطار المذكور سابقاً. على أن استخدام كلمة «القوم» تبين أنَّ بني اسرائيل هم أمام الله تعالى قومٌ كغيرهم من الأقوام، يسري عليهم ما يسري على غيرهم في نيل حسن الثواب لصبرهم؛ وذلك لما صبروا على ظلم فرعون، وثبتوا، وقاوموا فكرة تأليهه لنفسه من خلال الإصرار على التزامهم بالتوحيد. هذا، ومع تركيز الآية على توريث بني اسرائيل لأرضٍ مقدسة بدليل قوله تعالى ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف/ ١٣٧]، إلاّ أنها، لا تضع تحديداً قطّ لتلك الأرض بدليل قوله الكريم ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف/ ١٣٧]. على أن عدم التحديد ذاك يعني تأكيد أن الميراث لبني اسرائيل، في الأرض المقدسة، يتبع فرض كلمة الله تعالى، في إهلاك الطغاة، وتعويض المظلومين عن خسائرهم السابقة لقاء صبرهم. وذلك لكي يُدرك أبناء البشر أنّ للظلم نهاية، وأنه يدمَّر بالقضاء الالهي الذي لا يُرَدّ. على أنه بتدميره مع أصحابه، ينال المظلومون بالمقابل حسن الثواب على صبرهم. وبهذا الإطار الفكري القرآني، يَظهر جلياً، أن عدم تحديد اسم الأرض المقدسة، بل الحديث عنها، باطار الاتجات الجغرافية العامة مُقترِن بالعدل الإلهي المطلق، المتجسّد هنا في المساواة بين الخلْق في الحساب. وبهذا المفهوم القرآني عن مسألة الاستخلاف في الأرض، وعدم تحديدها لبني إسرائيل، فضلاً عن إبرازها كأرضٍ مقدّسة، فالفارق بَيِّنٌ بَيْنَ القرآن والتوراة. وذلك، لأن التوراة تُحدِّد الأرض كما جاء في العبارات الآتية الواردة في المشهد الثاني حسب تقسيمنا للقصة التوراتية، وهي: «**فقلتُ أُصعِدكم من مذلّة مصر إلى أرض الكنعانيين والحثّيين والآموريّين والفرزيّين والحويّين واليبوسيّين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً**» (١٧ خروج، الاصحاح الثالث).

هذا، ونعيد القول تكراراً، إنّ عدم التحديد القرآني للأرض المقدسة التي أورثها الله تعالى لبني اسرائيل، يهدف لتأكيد العدل الإلهي المطلق في دفع المسيرة التاريخية نحو الأمام، ما يجعل التحديد التوراتي لتلك الأرض، إذاً، مخالفاً المفهوم القرآني في العدل الإلهي المطلق. وعليه، فهو يقع في بوتقة «التحريف»، لأنه يخالف العقيدة الإسلامية. ويجب أن نضيف، عند تلك النقطة، انه طالما أن مسألة الاستخلاف في الأرض، تقف كتجسيد للعدل الإلهي المطلق، في تدمير شؤون الخلْق، كما ذُكِرَ سابقاً، فالقرآن يُبيِّن بوضوح أنه إنْ أخلَّ القوم المستخلفون في الأرض، بقوانين العدل، وتطاولوا على الدين، وتلاعبوا في أحكامه، فأدّى ذلك إلى انتشار الظلم بعد وقت، وشيوع الطغيان؛ يُعاقِبِ الله تعالى الظالمين، ويستبدلهم بمن هم أهل مسؤولية في التكليف، إلا إنْ عاد هؤلاء إلى حظيرة الحق والعدل، يقول تعالى:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء].

إنّ تلك الآيات الكريمة من «سورة الإسراء»، تُظهر أنه بعد استخلاف بني اسرائيل في الأرض المقدّسة، مَضَوْا في طريق الظلم الكبير في دورتين، وحقّقوا علوّاً كبيراً، ولكنْ قائماً على الظلم، وبما أن الظلم يتعارضُ مع سنن الحياة في الحقّ والعدل، عاقبهم الله تعالى بهزيمة مُنكرة، في أوّل دورة، من خلال ارسال قوم جبّارين للانتقام منهم، جزاءً لإفسادهم. ولكن لمّا تابوا، هيّأ الله تعالى لهم الأسباب للغلبة على أعدائهم؛ بيد أنهم لما عادوا للافساد مرّة أخرى، فقد أصابهم ما أصابهم من تدمير، كما كان الحال في المرّة الأولى. ولكن مع استمرار الوعد الإلهي لهم بكشف الضرّ عنهم إن عادوا إلى حظيرة الحقّ، ومع تذكيرهم أنّ جهنّم

هي مكان الظالمين. ومن الجدير بالذكر هنا، أن تلك الآيات القرآنية، وغيرها ممّا ورَد في سور أخرى، تُظهر جنوح أكثرهم نحو الظلم منذ خروج بني إسرائيل من مصر، مع موسى، بعد معاناة طويلة من ظلم فرعون. ولكن، حتى قبل خروجهم من مصر، نرى مثلاً أن موقف الاسرائيلي، الذي تسبَّب في وكزة موسى للقبطي، وقتله غير المتعمّد، ثم محاولة ذلك الاسرائيلي نفسه زجّ موسى في عراك آخر مع قبطي، لَيُشكّلُ مظهراً من مظاهر الظلم الذي وقعتْ وطأته على موسى، كما بينَّتْ القصة القرآنية. هذا، والقصة التوراتية بدورها تبيّن ظلماً روحياً موجّهاً نحو موسى وهارون من مُدبّري بني اسرائيل، قبل خروج موسى بهم من مصر؛ ويَظهر ذلك بالنصوص التوراتية الآتية: **«فرأى مدبّرو بني اسرائيل أنفسهم في بليّة إذْ قيل لهم لا تُنقِصوا من لبنكم أمْرَ كل يوم بيومه. وصادفوا موسى وهارون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدنْ فرعون. فقالوا لهما ينظر الرب إليكما ويقضي. لأنكما أنتنتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتى تعطيا سيفاً في أيديهم ليقتلونا»**، (١٩، ٢٠، ٢١ خروج، الأصحاح الخامس). إنّ الشيء المثير للتأمّل، صدور مثل تلك الأقوال الظالمة من مُدبّري بني إسرائيل لموسى وهارون، بما تحمله من تطاول على الدين، في وقت استماتةِ بني إسرائيل للتحرّر من ظلم فرعون وجنده، بتطلّع إلى السماء. إذ، لولا ذلك التطلّع، لما ركّزَ القرآن، على الرحمة الإلهية التي أفاضها الله تعالى عليهم، بتكليف موسى تحريرهم من الظلم. فهُنا يوجد فارق قرآنيّ توراتيّ. ولكن، ما يدعو أكثر إلى التأمّل، هو الإفادة التوراتية، انه بعد القول المُبيّنُ أعلاه من مدبّري بني إسرائيل، تأتي العبارات الآتية:

«فرجع موسى الى الرّبّ وقال يا سيد لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب. لماذا أرسلتني. فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلمَ باسمكَ أساءَ إلى هذا الشعب، وأنتَ لم تُخلّص شعبك»، (٢٢، ٢٣ خروج، الأصحاح السادس).

إن أسلوب قول موسى للرب ومضمونه، كما ورَدَ في التوراة، يتناقضُ كلّياً مع المفهوم القرآني بصدد موضوع علاقة الأنبياء بربّهم. ولشرح ذلك، لا بدّ لنا الآن من حديث مختصر عن موضوع النبوّة في القرآن الكريم، لأنه مُتطلّب للمقارنة التي نُجريها بصدد قصة موسى مع فرعون، في القرآن والتوراة.

٣ ـ مفهوم النبوّة في القرآن الكريم ومقارنتُهُ بالتوراة

في الحديث عن النبوّة، يجب أن نذكر أولاً بأن النبي هو إنسانٌ مُصْطَفىً من الله تعالى لتبليغ رسالة سماويّة لبشر. والأنبياء، إذاً، هم الأخيار المُصْطَفون من الله عزَّ شأنه لهداية الناس بالرسالات السماويّة. والأنبياء هم، بذلك أعلى فئة من أبناء البشر، يتميّزون بالصدق التام، والطهارة الوجدانية، والنقاء النفسي، والأمانة التامة في نقل رسالاتهم السماوية للناس، مع تحلّيهم بالصبر، والثبات في وجه الأذى، الصادر عن المستكبرين، الذين يصدّون النّاس عن الدين، لحرصهم على دوام مصالحهم، والحؤول دون التغيير التاريخي. بهذا الإطار، فالأنبياء هم أشدّ أبناء البشر طاعةً لله تعالى. وإنْ صَدرتْ هفوةٌ عن أيّ منهم (لإن الكمال لله تعالى وحده) فإنه يطلب المغفرة من الله عزَّ وجل. وقد رأينا كيف أنّه بعد قتل موسى غير المتعمّد للقبطي، استغفر ربّه، فغفر له: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص]. هنا، يتوسّل موسى لربه، وهو مُدرِكٌ تماماً هفوته في قتله غير المتعمّد للقبطي، أن يغفر له. فعبارة ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ تثبتُ إدراكه ذاك، بل وندمه، والاستغاثة بربّه الغفور الرحيم للعفو عنه. فهو بشرٌ مُعرّض للخطأ بموجب الطبيعة الانسانية. وفي الوقت نفسه، يُعاهد ربه، وقد غفر له ـ والغفران نعمة ـ بأنْ لا يكون ظهيراً للمجرمين. ومن هنا، فالسياق القرآني يُبرز موسى، إنساناً مُطيعاً جداً لله تعالى، يخشاه، ويلجأ إليه بطلب الغفران، والتعهّد بالالتزام بالحقّ في كلّ تصرفاته، كما يُثبتُ عهده ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص]. فإن أبقينا تلك المعلومات في ذهننا، واتجهنا نحو عبارة التوراة: «فرجعَ موسى إلى الربّ وقال يا سيد لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب. لماذا أرسلتني، فإنه منذ دخلتُ إلى فرعون لأتكلّم باسمكَ أساء إلي هذا الشعب. وأنتَ لم تُخلّص شعبك»، نَرَ فارقاً شاسعاً في أسلوب موسى بالتكلّم مع ربه في التوراة وفي مضامين كلامه في القرآن. ففيما يَظهرُ موسى في القرآن، وهو يُكلّم ربّه في أقصى حالات التأدُب المعروفة عن الأنبياء، ويُقرّ بضعفه المتجسد في هفوته في القتل غير المتعمد للقبطي، وهو يشعر بالحَرَج؛ تُصوّرهُ العبارة التوراتية المذكورة أعلاه، بعيداً إجمالاً

عن التأدّب المعروف عن الأنبياء عند توجّههم لربّهم، أسلوباً ومضموناً. فالعبارة، أولاً، تنسبُ الشر إلى الله تعالى، في حين أن القرآن يُنَزِّه الله عزّ وجلّ كُلّيّاً عن الشرّ والظلم. فجملة «لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب تَنسبُ الشرَّ إلى الله (تعالى عن ذلك). وفي الوقت نفسه، فإنّ الجملة التوراتية «لماذا أرسلتني» تحمل في طيّاتها نوعاً من تذمّر موسى من تكليفه لإخراج بني اسرائيل من مصر. وكذلك فجملة: «فإنه منذ دخلتُ إلى فرعون لأتكلمَ باسمك أساء إلي هذا الشعب وأنتَ لم تخلّص شعبك»، تُظهر تشكيكاً بالرّبّ من جانب موسى، في وقت وضْعِ بني اسرائيل في مكانة، وكأنّها فوق المنزلة المخصصة لأبناء البشر كلهم كمخلوقات تابعة لواجب الوجود، خالق السموات والأرض وكل ما فيها. وبما أن جميع ذلك يُخالفُ المبادئ القرآنية في تعظيم الله تعالى، مصدر الخير المطلق، الذي يقضي بالحقّ بين كل أبناء البشرية، فهو يتبع إذاً جانب «التحريف» المُدخل على التوراة، بموجب النظرية القرآنية. هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى، فإنّ العبارة التوراتية المذكورة أعلاه بمجملها، تتناقضُ مع ما أوردته النصوص التوراتية سابقاً، من إظهار لطاعة موسى وهارون للرّبّ، القادر على فعل أشياء يعجز عنها البشر، والإشارة هنا هي «للمعجزات الإلهية»، التي سوف ندخلُ الآن، في بحثها ضمن قصة موسى وفرعون، في القرآن والتوراة.

٤ ـ المعجزات الإلهية

ولكن قبل ذلك البحث، يهمّنا أن نبيِّن أن المعجزة عمل إلهيّ، يقع فوق القدرات والمدارك الذهنية البشرية، لإثبات نبوّة نبيّ من جهة، وإثبات القدرة الإلهية المتجّلية في أشياء يعجز عنها أبناء البشر من جهة أخرى. هذا، وكما تحدثَ القرآن عن الفيض الإلهي على موسى بالمعجزات للهدف المبين بالتعريف، فكذلك تحدثت التوراة بذكره مع هارون، لكن مع فوارق في العدد والمضمون أحياناً، إضافة إلى فوارق أخرى، حين يَحضرُ موضوع «السحر»، إلى الصورة. فالقرآن الكريم يضع حدّاً فاصلاً بين المعجزة، وشعوذة السحرة، مُبيّناً أن المعجزة تقف كبرهان لإبطال السحر، كما يتجلّى في الآية الكريمة التالية التي أشرنا إليها

سـابـقـاً: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه]. فمعجزة موسى في العصا، أَبطل مفعول كل سحر السحرة الذين جمعهم فرعون، للظهور على موسى. وانتهى الأمر بالقاعدة الآتية: وهي ان السحر، في المفهوم الإسلامي، شعوذة، لأنه قائم على حيل كاذبة لخداع الناس، من أجل إبعادهم عن الدين ومبادئه في التوحيد والعدل. فَسِحْرُ سَحَرَةِ فرعون كان يَعني تثبيت تأليه فرعون لنفسه، وإبطال التوحيد، المُلزِم لكل أبناء البشر، في جميع الرسالات السماويّة، ابتداء من رسالة نوح عليه السلام، حتّى الرسالة المُنزلة على النبي محمد (ﷺ). وبهذا الإطار، فإن الإبطال القرآنيّ للسّحر، يقع في جوهر العقيدة الإسلامية. فلو أبقينا تلك الحقائق في فكرنا، وانتقلنا مرة أخرى إلى التوراة، لوجدنا أنه مع توافقها في التأكيد أن المعجزة عمل إلهي، يُبرِز القدرة الإلهية العظيمة في فعل كل أمر، إلاّ أنه حين يأتي التحدث عن السحر، نجد مزجاً توراتيا بين المعجزة والسحر. فمثلاً، في الحديث التوراتي عن معجزة العصا، فقد وَرَد ما يلي: «**طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً. فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة. ففعل عرّافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارتْ العِصِيّ ثعابين. ولكنّ عصا هارون ابتلعت عصيّهم. فاشتدّ قلب فرعون فلم يسمعْ لهما كما تكلّم الرّبّ**» (١٠، ١١، ١٢ خروج، الأصحاح السابع). صحيح أن عبارة «ولكن عصا هارون ابتلعت عصيّهم» تظهر أن المعجزة تمثّلت بعصا هارون. بيد أن عبارة «فصارت العصي ثعابين» تبيّن، كما يبدو، تحوّلَ عصيّ السحرة ثعابين حيّة. ومن جانب آخر، لمَّا أتى ذكر العقاب الدنيوي الإلهي لفرعون، وحاشيته، وشعبه، الذي أظهرتْه التوراة أحياناً في قالب المعجزة، وأتى ذكر السَّحرة، فقد وُضعتِ المعجرة فيها بموازاة أفعال العَرَّافِين في أكثر من موطن، ولكن نكتفي بالمثل الآتي: «**فقال الربّ لموسى قُل لهارون مُدّ يدك بعصاكَ على الأنهار والسواقي والآجام وأَصْعِدِ الضفادع على أرض مصر. فمدّ هارون يده على مياه مصر فصعدت الضفادع وغطّت أرض مصر. وفعل كذلك العرّافون بسحرهم وأصعدوا الضفادع على أرض مصر**» (٥، ٦، ٧ خروج، الأصحاح الثامن). وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه بالرغم من تلك القوة التي تعطيها التوراة لِسَحَرَةِ فرعون أحياناً، إلاّ أنها تبين في أحيان أخرى، عجز السحرة في درء

الكوارث عن مصر. والدليل على ذلك دعوة فرعون لموسى وهارون بالصلاة للرب، لرفع الضرّ عنهم: **«فدعا فرعون موسى وهارون وقال صلّيا إلى الرب ليرفع الضفادع عنّي وعن شعبي فأطلِق الشعب ليذبحوا للرب»** (٨ خروج، الأصحاح الثامن).

هذا، وطالما أن مسألة إنزال الكوارث بفرعون وجنده، من أجل تأكيد القدرة الإلهية، على فعل كل أمر، أتى في الصورة، فيجب أن نبيّن أنه فيما حدد القرآن الأمر بالله تعالى، وقدّمه باختصار، فالتوراة مزجت حلول الكوارث بعصا هارون أحياناً، كما يَظهر من الآتي: «فمدّ هارون يده على مياه المصريين فصعدتْ الضفادع»، «ويد موسى» في أحيان أخرى وهكذا. **«ثم قال الربّ لموسى مدّ يدك نحو السماء ليكون بَرَدٌ في كلّ أرض مصر على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل في أرض مصر. فمدّ موسى عصاه نحو السماء. فأعطى الرب رعوداً وبَرَداً وجَرتْ نارٌ على الأرض وأمطر الرب بَرَداً على أرض مصر»** (٢٢، ٢٣، ٢٤ خروج، الأصحاح التاسع). على أنه في أحيانٍ أخرى، قدمت التوراة الكوارث المُنزلة في إطار العمل الإلهي المحض دون تداخلات. وقد قُدِّمتْ تلك الكوارث المرسلة على مصر زمن فرعون في التوراة، في إطار تفصيلي جداً، كما أشرنا أعلاه. في حين أن القرآن حدّد الكوارث، بالآتي: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف]. وفي الإطار التفصيلي التوراتي في تقديم الكوارث المنزلة على فرعون وجنده، لَدليلٌ آخر على أن القصة التوراتية عن موسى وفرعون تأخذ منحىً تاريخيّاً محدوداً، محوره ظلم فرعون لبني إسرائيل، وتحريرهم بالنتيجة، من قسوة فرعون. على أنه في الإطار القرآني المحدود، بصدد الكوارث الإلهية المُنزلة على فرعون، فالهدف هو إبراز الضربات السماوية للظالمين، لتعطيلهم رويداً رويداً، حتى إنزال العقاب الإلهيّ الدنيوي الأخير عليهم، للدروس والعبر الأزلية. يقول الله عزّ وجل: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف]. والآية تلك تَربِطُ العقاب هنا بأعمال الانسان وسعيه. فجزاء فرعون وجنده مرتبط بما قدمت أيديهم. وذاك يثبت أن الانسان مخيّر في أمور، ومجبر في

أمور أخرى، بالنسبة للنظرية الإسلامية. والمُراجِعُ لقصة فرعون مع موسى يجد في تلك النقطة أحياناً تطابقاً مع ما ورد في القرآن، ولكن أحياناً تنحو التوراة نحو الجبرية. وهذا ما سوف نبحثه في موضوع «الاختيار والجبر».

٥ ـ حرية الإرادة والجبرية في القصتين: القرآنية والتوراتية

بعودتنا مرة أخرى إلى موضوع حرية الإرادة والجبرية، كما هو متمثل في قصة موسى وفرعون، نرى أن مرتكزاً رئيساً في القصة القرآنية، هو التأكيد أنّ أعمال فرعون هي وليدة نفسه، التي وضعها في مكان، أعلى من المكانة التي تُخصص للبشر بحكم التكوين. على أن وضع الذات الانسانية فوق حدودها، يشير إلى عدم انضباط، نابع في حقيقته، من التصرف من منطلق المنافع والمصالح والأهواء والنزعات الشخصية. والتصرف ضمن تلك الأحوال، يؤدّي لنزع وازع الضمير من الشخص، وبالتالي دفعهِ لفعل ما يريد بقسوة وجدانية. فمثلاً، مع استكبار فرعون، واستعلائه في الأرض، فقدْ جَعَلَ المجتمع المصري مجتمعَ فرقٍ وطوائف، مع استفرادِ بفرقة من الاسرائيليين، تُوِّج بذبح أبنائهم، واستحياء نسائهم. وبما أن تلك الأعمال تقع في إطار البطش والطغيان، فقد وصفها القرآن الكريم بالافساد. «والافساد هو الضلال الذي يدفع بصاحبه، نحو العدوانية بأساليب شتى، وكلّه يعود لحساب الشخص المعني بالأمر بما قدّمت يداه»، ممّا يُبيّن أن الأعمال الفردية تخضع لحرية الإرادة. ولتدعيم ذلك، وَرَد قوله الكريم عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص]. وبما أنّ أفعال فرعون الظالمة قد أدّتْ إلى حدوث التواء في موازين الحق والعدل، فقد قضى الله تعالى بإيجاد تعديل لتلك الموازين، التي تُنصِفُ المظلومين بالتمكين لهم في الأرض؛ وينال الظالمون عقابهم بتجريدهم من ملكهم، وإهلاكهم: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص]. إنّ قوله تعالى ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص/ ٦] يؤكّد حرية الإرادة الفردية لفرعون وهامان وجنودهما، المعطاة

روحياً لأبناء البشر، إذ أنه (أي هذا القول الكريم) يحمل معنى تخوّفهم من أعمالهم الظالمة، وانعكاساتها المستقبلية على كيانهم ووجودهم. ثم تأتي مُداهمة العقاب السماوي لهم، وما يخلّفه ذلك من عِبَرٍ خلال التاريخ البشري. وبهذا الإطار الفكري، فإن التركيز القرآني على مسألة حرية الإرادة في الحديث عن فرعون وجنده، مَعنيّ بإظهار أن الشرّ ينبعُ من الانسان الظالم. ولكن الله تعالى هو مصدر الخير المطلق، ويُثبِتُ كلمته في الحقّ والعدل، علماً أن ذلك يبعث على التأمّل والتدبّر بالأشياء، لأخذ الدروس. وفي حالة فرعون وجنده، فالتأمّل يقع في العقاب السماوي المُنزَل عليهم، جزاء سعيهم.

فلو أبقينا كل تلك الحقائق في ذهننا، وانتقلنا الى القصة نفسها في التوراة، لوجدنا أنها تضع أعمال فرعون تارة في الإطار الجبري وطوراً في بوتقة الاختيار. ولكن البوتقة الجبرية هي المسيطرة إجمالاً. فمثلاً جاءت النصوص الآتية عن قول الرّبّ لموسى **«أنتَ تتكلّمُ بكلّ ما آمركَ، وهارون أخوكَ يُكلّم فرعون لِيُطْلق بني اسرائيل من أرضه. ولكني أقسّي قلبَ فرعون وأُكثر آياتي وعجائبي في أرض مصر. ولا يسمع لكما فرعون حتى أجعلَ يدي على مصر فأُخرج أجنادي شعبي بني اسرائيل من أرض مصر بأحكام عظيمة. فَيعرِفُ المصريون أني أنا الربّ حينما أمدّ يدي على مصر وأُخرِجُ بني اسرائيل من بينهم. ففعَل موسى وهارون كما أمرهما الربّ. هكذا فعلا»** (٢، ٣، ٤، ٥، ٦ خروج، الأصحاح السابع). إن المحور الرئيس في تلك النصوص التوراتية، هو الإكثار من الآيَات والعجائب السماوية في أرض مصر، علماً أنها مُصْطَحَبةٌ بجعل قلب فرعون قاسياً لوقت، يقصِدُ فيه فرعون سيطرته على الدولة، مع الهيمنة الإلهية على مصر، كما هي متمثلة بالآيات والعجائب السماوية. فتُؤهَّلُ الأجواء عندها لخروج بني اسرائيل من مصر بأحكام عظيمة. ومعنى ذلك أن عِناد فرعون، في عدم إطلاق بني اسرائيل في وقت ما، من مصر، يعودُ إلى «الجبرية»، بالرغم من وجود المعجزات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هدف المعجزة كقاعدة، هو إثارة **التأمل الفكري**، والتدبّر بالأشياء، حتى يتوصل الانسان بنفسه لمعرفة حدوده كبشر. **فيُدرك** أنه مخلوق تابع لواجب الوجود، الخالق، الذي يفعل ما يريد. وحين يدرك الانسان

ذلك عن استنارة، يلين، ويخشع فؤاده، ويتّقي الله تعالى. وبتلك التقوى يتّجه نحو الاستقامة في تصرُّفه، ومراقبة أعماله، ومحاسبة نفسه. وتلك كلها دوافع لإبعاده عن الظلم، وبالتالي، للسير في طريق العدل قدر الامكان. هذا، وباجتماع المعجزة مع إحلال القسوة الجبرية في قلب فرعون، كما أوردت التوراة، تَضيعُ أهمية المعجزة، إذْ ما فائدة المُعجزة، بفرض قسوة في فؤاد فرعون؟ أليست المعجزة هي الوسيلة لإثارة الفكر نحو الحقّ، ثم الابتعاد عن الظلم؟ إن جبرية الموقف تحتم على فرعون أن لا يُطْلقَ شعب بني إسرائيل. ولكن طالما أنّ عدم الاطلاق ذاك آتٍ عن قسوة وجدانية، وطالما أن القسوة الوجدانية، منسوبة للرب، وطالما أن تلك القسوة تحمل زيادة في مظالم فرعون لبني اسرائيل، فالقصة التوراتية عن فرعون وموسى، تنسب بلا محالة الشرّ للرّبّ (تعالى الله عن ذلك). إذاً، هنا نرى فوارق عقائدية جوهرية بين القرآن والتوراة. وطالما يؤكّد القرآن أن الله تعالى هو مصدر الخير المطلق، وبما أنه يشير أيضاً إلى حدوث تحريفات في التوراة كما ذكر سابقاً، فلا بدّ إذاً، أن تكون نسبةُ القسوة لقلب فرعون، كعمل إلهي كما جاء في التوراة، تابعةً جانب «التحريف». وتجدر الإشارة هنا أيضاً، إلى أن القرآن الكريم، مُتّسق كليّاً في أسلوبه ومعانيه، لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والله تعالى هو الكمال المطلق. وذاك يعني، بدوره، أنه من المستحيل أن توجد تناقضات في التوراة، ثم تنسب إلى الله تعالى. على أنه إن وُجِدتْ تلك التناقضات في التوراة، فمعنى ذلك وجود «تحريف» بعمل من بعض أبناء البشر، لهدف ما. يقول الله عز وجل في القرآن الكريم:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء/ ٤٦].

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة/ ٤١].

هذا، والتقرير التوراتي أنّ مسألة نسبة قسوة فؤاد فرعون، لفعل إلهي؛ إنما يتبع الجبرية، فقد يكون ذلك معنياً بتضخيم الظلم الذي ألحقه فرعون ببني إسرائيل، لزيادة العطف عليهم، وإبقاء ذلك التعاطف تحت أي ظرف. صحيح أن فرعون ظَلَم بني اسرائيل بموجب المفهوم القرآني، ولكن، ظلمَهُ يقع في سلسلة واحدة حلقاتها عديدة. قد وُجِدَتْ في الماضي، وعرفت في كل عصر، طالما أن الشرّ

موجود في الحياة إلى جانب الخير. وفي هذا السياق، فالقرآن الكريم يُنفّر من الظلم بكل أشكاله وأصنافه وأنواعه، دون تضخيم لمسألة وَقْعِهِ على شعب دون آخر.

فالظلم شرٌ للجميع، سواء أأخذ مكاناً في نطاق قَبلي، أم على مستوى الدولة، كما كان الحال في دولة فرعون؛ ووضعه أليم في النفوس المقهورة، وهو كارثة انسانية، لما يُسبّبه من فواجع في حياة الأفراد والأمم. وعند تلك النقطة، لا بَأس من التكرار بأن القرآن الكريم يُظهِرُ تعاطفاً مع بني إسرائيل لمّا وقع ظلم فرعون عليه. ولكن، في الوقت نفسه، يذهبُ ذلك التعاطف معهم، حين يتوجهون هم أنفسهم نحو ارتكاب مظالم كثيرة ضد غيرهم. وقد أعطينا أمثلة قرآنية عن ظلم بني إسرائيل، ومن أبرزها، الظلم المتمثل في دورتين تاريخيتين، كما أوردتْ سورة الاسراء. أمّا والأمر كذلك، فإنّ المبالغة في استجلاب العطف المستمر نحو بني اسرائيل، كما يبدو من النصوص التوراتية، تتعارض مع الأسس القرآنية الأزلية الموضوعة للتعاطف. فالتعاطف في القرآن مبني على قواعد ثابتة، ويكون تجاه مجموعة مؤمنة، حين تُظلَم لإيمانها وتصبر، وتثبُت. ولكنّه يزول، إن هي توجهت للتِّيهِ والطغيان والإفساد، بعد أن أنقذها الله تعالى. إذ كيف يمكن أن يُقَرَّ التعاطفُ معها، حين تجلب فواجع لغيرها، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات؟ فالتعاطف هنا يتعارضُ مع العدل الذي يدعو إليه القرآن الكريم. والقرآن يُشدّد في مواطن كثيرة، على تطاول بني اسرائيل على العدل، كمبدأ، بعد خروجهم من مصر. ويُرْجع ذلك إلى جحودهم بالنعمة الإلهية. هذا، ونرى ضرورة هنا، للتحدث عن مفهوم «النعمة» الإلهية، كما وردت في القرآن، والتوراة، بصدد قصة موسى وفرعون.

٦ ـ المفهوم القرآني والتوراتي عن النعمة السماوية كما هو متمثل في القصة

قبل الحديث عن مفهوم النعمة في القصة القرآنية والتوراتية عن موسى وفرعون بالتحديد، يجدر بنا إعطاء تعريف للنِّعمة في الإطار الروحي العام. «فالنعمة هي الإفاضة الإلهية على الانسان في الأشياء التي يحتاج إليها في مسيرته الدنيوية».

ومن أبرز النعم التي يتحدث عنها القرآن الكريم نعمة العلم، نعمة الأخلاق، نعمة المال، نعمة الرعاية الإلهية للانسان. فالنعمة الإلهية التي يفيضها الله تعالى على الانسان، تشير إلى أن الانسان كائن ضعيف، يفتقِر دوماً إلى الرحمة السماوية، من كونه، مخلوقاً تابعاً لله تعالى لواجب الوجود.

هذا، وسواء أكان ذلك في القرآن أم في التوراة، فالسياق العام في قصة موسى وفرعون، يُبين أن أهم نعمة أفاضها الله تعالى على بني إسرائيل، تتمثل في تهيئة الأسباب لإخراجهم من مصر. ولكن، وبالرغم من هذا الجامع المشترك، فالتركيز القرآني على مبدأ النعمة الإلهية في قصة فرعون وموسى، أقوى من التركيز التوراتي على هذا المبدأ، وإضافة لذلك، فالتركيز التوراتي عليه، أتى عدة مرات، في إطار مُتعارضٍ تماماً مع مفهوم النعمة في القرآن. مثال ذلك، أن الائتمار بالأوامر الإلهية، والانتهاء عن النواهي، نعمة، إن التزم الانسان بها كما أُمِر، لأنها تؤدي إلى سعادته، في المفهوم القرآنيّ. ومثال ذلك أيضاً، أنّ الالتزام بالأمانة، والبعد الكّلي عن السرقة مفروضان على الانسان، بموجب الأحكام القرآنية، وذلك لأن السرقة آفة، فهي تعني سلب ما للآخرين. وسلب الآخرين يعني بدوره، التطاول على حقوقهم بطريقة غير مشروعة. والتطاول على الحقوق يُشكِّل مظلمة في حياة المتضررين، لأنها تجلب لهم المحن والأزمات بشتى أنواعها. إذاً، فالأمر السماوي بتحريم السَّرقة، يهدف إلى الحفاظ على حقوق أبناء البشر، ثمّ اقرار الأمن والنظام في أيي مجتمع معني بهذا الشأن. هذا مع العلم أنّ الأمن والنظام أمران ضروريان للتقدّم والرقي الاجتماعي. إذاً، فتحريم السلب كمبدأ روحي، معنّي بالحفاظ على حقوق الأفراد والمجتمعات أيضاً من العدوان. تلك هي الأهمية الروحية للأمانة في الإسلام. وما سوف نعيد ذكره من نصوص توراتية، محورها دفع بني اسرائيل نحو سلب أمتعة من المصريين بِحَثٍّ سماوي، إنما يدخل في جانب «التحريف». والنصوص تلك، بالترتيب: **«وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين. فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين. بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبونَ المصريين»** (٢١، ٢٢ خروج، الاصحاح الثالث). ولكن في

الاصحاح الحادي عشر، ورد الآتي بصدد الموضوع نفسه. **«ثم قال الربّ لموسى ضربة واحدة أيضاً أجلبُ على فرعون وعلى مصر. بعد ذلك يُطْلِقُكم من هنا. وعندما يطلقكم يطردكم طرداً من هنا بالتّمام. تكلّم في مسامع الشعب ان يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين. وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر في عيون عبيد فرعون وعيون الشعب»** (١، ٢، ٣ خروج، الاصحاح الحادي عشر).

هذا، وفي الاصحاح الثاني عشر، وَرَدَ الآتي: **«فحَمَلَ الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم. وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين»** (٢٤، ٢٥، ٢٦ خروج، الاصحاح الثاني عشر).

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن المحور العام في تلك النصوص يكمن في اعلاء شأن بني إسرائيل من خلال الذهب والفضة والثياب. فكأنّ إعلاء الشأن هنا يتوقف على الجانب الماديّ. وفي الوقت نفسه، فالمعنى الضمنيُّ أنّ الله تعالى أراد رفع وزن بني اسرائيل في مجتمع مصر، من خلال توجيه القول لهم، لطلب أمتعة الذهب والفضة والثياب من المصريين. وبالتالي، التأكيد على دور السماء في تسهيل المهمة لهم بالتلبية، بل وبالحثّ على إبقاء ما طلبوه لهم، وإعطاء شرعية للعمل ذاك. فعبارة «فتسلبون المصريين» تشير الى تلك الشرعية الروحية في التوراة، وكذلك عبارة «فسلبوا المصريين». ولِتعارُضِ كل هذا مع القرآن الكريم تكراراً، فتلك النصوص تدخل في باب التحريف.. الباب الذي يزيِّن التخطّي لحقوق الغير، مع اضفاء شرعية روحية على هذا التخطّي، بكل ما يحمله من كوارث تحلّ بنتيجته على الآخرين، أفراداً، أو جماعات.

٧ ـ الحوار في القصة القرآنية وأبعاده

وبالوصول الى هذه النقطة، نكونُ قد أعطينا صورة واضحة عن الفوارق

العقائدية بين القرآن الكريم والتوراة. بَيْدَ أنّه يهمّنا أن نضيف هنا فيما يتعلق بالقصة القرآنية بالذات، أنها خصّصت اهتماماً لموضوع «الحوار»، مع ربطه بالنفسيات البشرية، والعِبر من وراء ذلك. ويتجلى هذا في «حوار» موسى مع فرعون، بعد انتداب الله عزّ وجلّ موسى للطلب من فرعون إخراج بني اسرائيل من مصر. ذهب موسى كنبيٍّ، بمعرفة فيّاضة بالمادّة الروحيّة اللازمة، لإبقاء مستوى حواره في أعلى درجة ممكنة.. ذهب بصدرٍ منشرح، وعقل متفتّح للحوار على أسس عقلانية، وقوة معنوية هائلة، مصدرها الإيمان الراسخ، والفكر المستنير. بمعنى أنه ذهب بكل أدوات الحوار المتطلّبة للنجاح. أمّا فرعون، فقد كان بانتظار موسى وهارون، كحاكم متغطرس، متعطّش للانقضاض على موسى. وهو متجرّد من أسس الحوار ومقوّماته، في الايمان والمنطق. ومن هنا، ففيما تمكّن موسى من اثبات التوحيد، بثلاث مراحل من النقاش، وهو في أقصى حالات التركيز التي تعطيه المناعة ضدّ أي تهجّم مُحتمل عليه. ففرعون، كان مُفتقراً إلى مثل هذا التركيز، لأن همّه كان موجّهاً نحو ذاتيته. ومن هنا، فهو لم يمتلك القدرة على فَهْمِ جوهر نقاش موسى، كما أظهرنا ذلك سابقاً. فانصرف نحو السخرية من موسى تارة، واتهامه بالجنون طوراً، وتهديده في طور آخر.

وتجدر الاشارة هنا الى ان القدرة على الحوار قوة، في حين ان العجز عنه ضعف. ولكل ذلك انعكاساته على صورة فرعون ونفسيته كما أبرزها القرآن الكريم.. ففرعون يبدو كأنه رجل قوي، بصوْلةٍ وجاه. يتكلّم في إطار الأوامر التي تُنَفَّذ بطشاً بالفئة التي رفضت فكرة تأليهه لنفسه، وتجرأت على جهرها بالتوحيد. بَيْدَ أن ما يبدو في الظاهر، شيء، والحقيقة شيء آخر. فالرجل القوي مظهراً، والذي يُخيف مَن حَوْلَه، بمظاهر الصولة الدنيوية والبطش، ليسَ إلاّ رجلاً ضعيفاً. وضعفه لم يتأتَّ بحكم مبدأ التكوين البشري فحسب، بل هو ضعف في الجانب المعنوي أيضاً. إذ إن مرتكزات القوة المعنوية هي الإيمان، والفكر المستنير، والنفس السامية بنقائها، والمعرفة الحقة، ولقد كشف فرعون عن ضعفه في الحوار الذي تحدّثنا عنه آنفاً، والذي جرى بينه وبين موسى، كما ورَدَ في آيات (١٦ ـ ٢٩) من سورة الشعراء.

واضافة الى ذلك، فقد أظهر فرعون ضعفاً بعد المباراة التي جرت بين موسى من جهة، وسحرة دولته من جهة أخرى، حين هدّد السحرة، الذين آمنوا برب موسى وهارون، إثر رؤيتهم للمعجزات، بتعنيفهم. وأظهر ضعفاً حين أصرّ على عناده بعدم السماح لبني إسرائيل في الخروج مع موسى من مصر. وكذلك أبدى ضعفاً، وهو يواجه كوارث سماوية سلّطها الله تعالى على دولته، وصولاً إلى استغاثته بموسى، للالتجاء لربه لرفع الرِّجْزِ عنهم، لقاء الاعتراف بنبوّته، وإرسال بني إسرائيل معه، ثم النكث بالعهد هذا. ونقض العهد ضعف بكل معنى الكلمة. إذاً، ففرعون رجل ضعيف في حقيقته، على ان قوّته الماديّة المتمثلة في البطش والطغيان، قوّة عمياء سائرة على غير هدى، لما تُحدثه من دمار حولها. هذا، وإن أكبر دلائل ضعفه في الجانب المعنوي، هو تأليهه لنفسه. والتأليه لا يجوز لبشر أبداً (لأن إله الكون واحد، لا شريك له). والتأليه ما هو إلا قناع لفعل ما أراده فرعون، والقِناعُ تمويه من أجل الإبقاء على حكمه وتثبيته، خصوصاً لمّا هزّ موسى صورته عَلناً. فلو تمعّنا بقوله الكريم:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر]، لوجدنا أنّه من الواضح أنّ فرعون يحاول التمويه على النّاس. من خلال نفيه للوجود الإلهيّ، وذلك يتمثّل في تكذيبه لموسى. وفي الوقت ذاته، يحاول فرعون وضع نفسه في مكانة اقتدار، ومهابة وعلم. فهو يوجّه أمراً لرئيس جيشه، هامان، لبناء صرح، وذلك تطلّعاً منه لإمكانية الوصول للطرق، التي تؤدي للنظر إلى ربّ موسى نَظَرَ عِيانٍ كما يدّعي. وربما ظن فرعون ان ذلك يعزّز من فكرة تأليهه لنفسه. هذا، وإنّ اعتماده على التمويه، والظن بالقدرة، على إبقاء الأوضاع كما هي، ضعف وعجز بكل تأكيد.

وبالوصول الى تلك النقطة، نكونُ قد أتينا على وضع آخِرِ ما هو ضروري عن القصّتين القرآنية والتوراتية عن موسى وهارون، لنصل إلى استنتاجات نهائية، تَرِدُ في «خاتمة» هذه الدراسة، وتستند إلى كل ما ورد ذكره فيها، خصوصاً موضوع «القوة»، لأهمّيّته القصوى في حياة الأمم عبر التاريخ البشري.

القوة المادية والقوة الروحية

استناداً لكل ما جاء في دراستنا عن موسى وفرعون في القرآن الكريم أولاً، نجد أن موضوع «القوة» يأخذ جانباً كبيراً، في ثنائيّة، طرفاها: قوّة فرعون كحاكم، تُقابلها قوة موسى وهارون التي يساندها الله تعالى. أما الأولى، فبما أنها نابعة من البطش المعتمد على السلاح بموازين ذلك الزمن، فهي «آلية» في طابعها. وطالما أنّ القوة الآليّة، كقاعدة، معتمدة على التمويل المالي، فهي «مادية»، ويمكن تصنيفها المُجمل بالقوّة المادية. أمّا قوّة موسى وأخيه فهي روحيّة في طابعها. والقوة الروحية هي القوة النابعة من التعقّل والإيمان والحكمة والأخلاق. وبما أنّ كلّ تلك المقوّمات هي أساس الطاقة المعنوية التي تُكسِبُ صاحبها شجاعة نادرة، وجرأة على تثبيت الحق وتوطيد العدل، لذا، يمكن تصنيف القوة الروحية بمجملها بالقوّة الروحية المعنوية، المدعّمة بقوة السماء. هذا، والقوّة المادية، كما هي متمثلة بفرعون، مُوجّهة نحو الظلم والطغيان. أمّا الثانية كما هي متجسّدة بموسى وهارون، فهي موجهة نحو وضع حدّ للظلم ذاك، بأساليب قيّمة، مُدعّمة من الله تعالى بالمعجزات، تحمل في طياتها الدروس الآتية:

أولاً: التنفير من القوة المادية، مع إبرازٍ لمظاهرها، ثم التأكيد أنّ مصيرها هو الإنهيار مع أصحابها، لِما تحدثه من أضرار للمستضعفين.

ثانياً: الترغيب في القوة الروحيّة تلك، مع تزويد للقارىء بمفهومها، ثم وضعها كالعامل الجوهري في إرجاع الموازين الملتوية بفعل الطغاة، الى نصابها الصحيح، على مدى الأزمان، وفي شتّى الأمكنة، عند نشوء الحاجة.

فلو أبقينا هذه المعلومات في ذهننا، وانتقلنا الى مفهوم التوراة عن القوة، كما هو وأرد في قصة موسى مع فرعون، لرأينا أولاً أنّ التّوراة تركّز على موضوع القوّة المادّيّة، ولكن مع فوارق في التوجّه عن القرآن الكريم. ففيما ركّزت القصّة التوراتية على قوة فرعون من حيث البطش مثلاً بأطفال بني إسرائيل من قبل فرعون، واذلال تلك المجموعة، واستغلالها الى حدٍّ يفوق الطاقات الجسدية البشرية، إلا انها (أي القصة) لم تركُزْ بعمق على الدافع الجوهري الكامن وراء لجوء فرعون لهذا النوع من القوّة الظالمة. وطبعاً، فإن الدافع ذاك هو تأليه فرعون لنفسه، مع أنّه بشر، وفرض فكرة تأليهه تلك، على الناس، ورفض بني اسرائيل بالذات لتلك الفكرة، تمسّكاً منهم، في ذلك الوقت بمبدأ التوحيد. وممّا لا شك فيه أنّ المتمعّن في القصّة التوراتية عن موسى وفرعون يستشف بنفسه، أن فرعون كان يرى نفسه كإله من دون حقّ على الإطلاق؛ وأنه كان شديد الحرص على تدعيم سلطته بكل وسيلة، انطلاقاً من أنانية جارفة مسيطرة عليه. هذا، وقد قادته أنانيته تلك للتجرّد عن أي مظهر من مظاهر الرحمة، وعدم الاعتبار لانسانية الآخرين. ولذا، لمّا رفض بنو اسرائيل فكرة تأليه فرعون لنفسه، سخط فرعون عليهم، وبطش بهم. ولم يهتمّ بسخطهم أو رضاهم عليه، بل كان هَمُّهُ، هو إذعانهم له بوسائل قوّته الآلية التي سلّطها عليهم، بحكم كونه رئيساً لدولة، معروفة بقوتها المادية.

ولكن، لو توجهنا إلى القرآن الكريم، لرأينا، كما ذكرنا مراراً، انه يركز كل التركيز على مسألة تأليه فرعون لنفسه، وبنصوص واضحة:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر].

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات].

وبما أنّ تأليه فرعون لنفسه كان نابعاً من قصد الإبقاء على سلطته، فذاك يعني

أنّ القصّة القرآنية تشدّد على ربط مسألة التأليه بنظام الحكم وقتئذٍ، والذي ننعته بلغتنا الحاضرة، بـ«الدكتاتوري»، مُبرزةً مظاهره، كما ذكرنا سابقاً، مُصنِّفةً إيّاه كنظام قائم في قواعده على أسسٍ تتنافى كل التنافي مع القوانين الثابتة للكون، واضعةً الأسس والقواعد الروحيّة الأخلاقية اللازمة لتغييره، في إطار أفكارٍ أزليّة للإصلاحِ في كلّ زمان ومكان، حيثما نشأتِ الضرورة والحاجة للتغيير.

اذاً، حتى الآن، فقد أجرينا موازنة بين القرآن والتوراة، من حيث المفهوم للقوة المادية في كليهما. ووجدنا أن التركيز على عواقب التأليه في القصة القرآنية أقوى بكثير ممّا هو عليه في القصة التوراتية؛ وأن الربط ما بين التأليه ونظام الحكم أقوى بكثير في القرآن منه في التوراة، بدليل ان القرآن الكريم، ذكر نصوصاً صريحة عن تأليه فرعون لذاته، مع إبرازٍ لخطورةِ فكرته تلك، لا في الإطار الزمنيّ المحدود كما هي الحال في التوراة، بل في الإطار الأزلي. كما أن القرآن زوّد القارئ بالأسباب الضرورية للتحوُّل التاريخي، في حال وجود نظام قائم على التأليه مثل نظام فرعون، فتكون منطلقاً للحلول ويتم التغلُّب على الظلم حيثما وُجد.

ومع ذلك، فقد بيّنا أنه سواء في القصة القرآنية أو التوراتية، فالتنفير من قوّة فرعون الآليّة أمر واضح، ولكنْ بفروق جوهرية. ففيما يخرج القرآن عن بوتقة ربط التنفير ذاك، بقوم محدَّدِين (لأن حديثه عن بني إسرائيل جاء في إطار المَثَل أو النموذج لقوم ظُلِموا في التاريخ، بِعِبَرِ المَثَل ذاك، ودروسه) فالتوراة تحدّ التنفير ببني إسرائيل وحدهم إجمالاً.

وبناء على ذلك، ففيما تحصر التوراة الإشفاق من الظلم ببني إسرائيل وتثير التعاطف معهم في الإطار التاريخي، فإن القرآن يثير الإشفاق، ثمّ، التعاطف مع بني إسرائيل في عهد فرعون أيضاً، لكنه يرفع هذا الإشفاق في أوقاتِ تحوّل بني اسرائيل من مظلومين مدافعين عن التوحيد، الى ظالمين متطاولين على التوحيد، وعلى المستضعَفين. وقد أعطينا أمثلة عن ذلك مسبقاً. وتكراراً، فالحديث عن الظلم في قصة موسى وفرعون القرآنية، يأتي في الإطار الأزلي، الذي تُوجّهُ الأفكار فيه نحو إبراز مساوىء الظلم، وقبح الطّغيان، ووسائل التخلّص من تلك الآفات، في حيّز العمل الدؤوب بطابعه الروحيّ والمعنويّ والفكريّ الفعّال.

وفي خضمّ كلّ ذلك، تشير القصة القرآنية عن موسى وفرعون، ضمنياً الى فَنّ الحكم السليم، بل وصورة الحكومة الصحيحة، بإبراز بالخطوط العريضة وتزويد القارىء بأعمدة المسيرة السياسية التي تتلخّص بالالتزام «بالتوحيد»، والعمل الدؤوب على تطبيق «العدل» الاجتماعي، في ظل إطار من «المساواة». هذا، مع التأكيد أن تحقيق التكاتف في الالتزام بالتوحيد، والعدل، والمساواة هو السبيل «للوحدة» العضوية في المجتمع. وبكل تأكيد، فالوحدة هي أساس الأمن، والاستقرار الاجتماعي. على انه لاتّسام دولة فرعون بالتفكّك الاجتماعي النابع من تقسيم فرعون لمجتمعه الى شيع وطوائف، كما ذكرنا سابقاً، واضطهاده الكبير لطائفة بني اسرائيل بالذات، فقد ضاع الاستقرار، بمعناه الصحيح، في مصر. والدليل على ذلك وجود مخاصمات في الشارع. فقصة مخاصمة القبطي مع الاسرائيلي أولاً، ثمّ مخاصمة قبطي آخر مع نفس الاسرائيلي في وقت آخر ثانياً، لدليل على تمزّق الوحدة العضوية في مجتمع مصر.

والجدير بالذّكر، أن الأفكار القرآنية عن مقومات الحكم السليم كما هي مُبينّة آنفاً، بإطارها الأزلي، تحمل في طيّاتها، تكراراً، رحمة إلهية لكل المظلومين عبر الأمكنة والأزمنة. رحمة لبني اسرائيل، لمّا ظلمهم فرعون، كَمَثَلٍ لقوم عانوا آثار القوّة المادّيّة الغاشمة من حكم تسلُّط وطغيان، ثم رحمة بكل قوم يواجهون ظروفاً مشابهة لظروف بني إسرائيل في أيام فرعون، ورجال حكومته؛ هؤلاء الذين نظروا الى فرعون كإله، يُلبّي لهم منافعهم الدنيوية، مع أنّه لا يملك في الواقع لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، ككلّ مخلوق على وجه الأرض.

ولكن لو انتقلنا للتوراة لتتبّع موضوع «الرحمة» فيه، كما هو مُسْتَقًى من قصة موسى وفرعون، لرأينا وجود الرحمة، لكنها ليست رحمة ربّ العالمين لكلّ المستضعَفين من خلقه خلال التاريخ (مع ان المثل هنا هو لبني اسرائيل بالذات)، بل رحمة من الإله يهوه، إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، لبني إسرائيل كقوم عانوا ظلم فرعون، مع أنّ لهم مكانة مُفضلّة على باقي الشعوب. والأفضلية تلكَ تظهر بوضوح في التوراة، باعتبار أنه لبني اسرائيل كقوم، الههم الخاص بهم، هو الإله يهوه ـ إله ابراهيم وإسحق ويعقوب ـ الذي أورثهم بلاد أقوام عديدة جزاء صبرهم

على فرعون وجنده. ولكن التوراة لا تبيِّن مقوّمات الميراث التي ركّز القرآن الكريم عليها، كما شرحنا ذلك سابقاً.

ان ميراث الأرض ـ كما ينطبق على بني اسرائيل أو غيرهم من الأمم عبر التاريخ البشري ـ أتى في القرآن الكريم، في بوتقة البحث القرآني لموضوع التحوّلات والتغيُّرات التاريخية، بارتباطها بِمَحْقِ الظّلم، وإحلال العدل بقوة الله عزّ وجلّ. فميراثُ الأرض لهم غير المُحدّد باسمِ دنْيَويّ، أو حدودٍ، أتى كثوابٍ لهم على صبرهم على ظلم فرعون، لمَّا تمسكوا بالتّوحيد. ولكنه، ضاعَ لمّا ظَلَمَ بنو إسرائيل غيرَهم من المستضعفين، وتشرّدوا، وهُزموا، بقوّة السماء، في أُطرِ تحدّثنا عنها سابقاً، وبقي الباب مفتوحاً لهم، بموجب سعيهم، أو بما تُقدِّم أيديهم، عقاباً أو ثواباً.

فان أبقينا تلك المعلومات في ذهننا، واتّجهنا نحو موضوع الميراث في القصة التوراتية عن موسى وفرعون، نرى أنّ تحديد الميراث ذاك بأراضٍ ذكرناها سابقاً بموجب النصوص التوراتية، مع ربط ذلك الميراث بالأفضلية، كما بيّنا آنفاً، والاستعطاف لبني اسرائيل، وكأنّ الظلم الدنيويّ انحصر بهم دون سواهم، يؤدي، لا محالة إلى استغلال بني إسرائيل كل ذلك، للعمل على الحصول على أكبر مكاسب دنيوية. فقد يستخدمون مبدأ الأفضلية التوراتي لهم (مع أنه يخضع «للتحريف»، لأنّ الرسالات السماويّة كلّها تركّز على التساوي في خلق أبناء البشر، كما يؤكّد القرآن الكريم) لإضفاء شرعيةٍ على استيلائهم على أراضي الغير؛ فمثلاً، باسم وعد الإله يهوه يستولون على أراضٍ مثمرة، مخصّص ذكرها بالتوراة بالذات، في خضم بوتقة الأفضلية تلك، المنسوبة لهم. وبما أنّ موضوع الميراث المذكور في التوراة في إطار التخصيص والتحديد والتعيين، يتنافى مع موضوع الميراث في إطاره العامّ الشامل في القرآن الكريم، كتأكيد للعدل الإلهي المطلق، فموضع الميراث التوراتي لبني إسرائيل، يدخل في التحريف من الوجهة الإسلامية. وذلك لأنّ محوره هو الظلم، الذي يتنافى مع القوانين الثابتة التي تسير الحياة بموجبها، كما يظهرها القرآن الكريم. وبالوصول الى هذه النقطة، نكون قد استوفينا الحديث عن القوّة الماديّة بكلّ مضامينها، وآثارها القريبة والبعيدة في القصة.

ولكن لو انتقلنا الآن لموضوع «القوة الروحيّة» في قصّة موسى وفرعون في الكتابين المقدّسين، فيجب ان نكرّر، أن القصّة القرآنيّة توجّه اهتماماً كبيراً إلى هذا النوع من القوّة، وتبيّن أن القوّة الروحيّة تُشكّل حجر الأساس للتغيير التاريخي، بآثارٍ بعيدة المدى على مرّ الأزمنة والأمكنة. أمّا القصّة التوراتيّة، فتظهر أيضاً أهمّية القوّة الروحيّة في التحوُّل التاريخي، ولكن ضمن مفهوم، بعيد إجمالاً عن المفهوم القرآنيّ، وآثاره. فالمفهوم القرآنيّ يمتدّ مع الزمن بأفكاره وقيمه، فيشمل أقواماً وأقواماً، في حين أنّ المفهوم التوراتيّ ينحصر ببني إسرائيل بالذات، مرّة أخرى.

بالنسبة للمفهوم القرآني عن القوّة الروحيّة في قصّة موسى وفرعون، واستطراداً لما تقدّم ذكره، فالمفهوم في أسسه قائم على الطاعة القصوى لله تعالى، والنابعة من التفكير والإيمان. فالتفكير القيّم بالأشياء، والتدبّر بها، والموازنة بينها، تقود الإنسان المعنّي بالأمر للإيمان المستنير الذي تأتي المعجزات لتثبيته، أو أن المعجزات، هي نفسها، باعثٌ للتأمّل والإيمان فمثلاً قد شكّلت معجزتا موسى المذكورتين في القرآن الكريم، كما بيّنا سابقاً، الباعث لانسلاخ سَحَرَةِ فرعون عنه، رغماً عن الرّخاء الماديّ، الذي كان بانتظارهم، إنْ هم استمروا في ولائهم لفرعون. ولمّا هدّدهم فرعون بالبطش بأملٍ ضمنيّ بالتراجع عن قرارهم، أصرّوا على موقفهم بالطّاعة القصوى لربّ موسى، وهم مسلّحون بقوة روحيّة معنويّة مُذهلة، قوّة عرفوا من خلالها، أنّه لا يمكن لقوّة ماديّة الفوز عليها. ومن هنا، فتكاتفهم مع موسى وهارون، وعملهم جميعاً لوضع حدّ لطغيان فرعون ذاك، تحت مظلّة الرعاية الإلهية لهم، والانزال الإلهي للكوارث على فرعون وآله، وصولاً إلى إغراق فرعون وجنده في اليمّ، كل ذلك أدى الى ظفرهم وتغيّر الأوضاع، بالنتيجة، بالقضاء الإلهي. وسارتْ الأوضاع في سياق جديد، ثم تَبدَّلت تدريجاً بعد تطاول بني إسرائيل على موسى، وعلى هارون، بل وعلى خالق الكون وكل ما فيه، فدارَتِ الدوائرُ عليهم «بالتيه» في الصحراء، عقاباً لهم، لجحودهم بالنعم وطغيانهم. وطبعاً في خضمّ ذلك كله، حدثتْ تغيّرات وتغييرات في التاريخ البشري شملت أقواماً وأقواماً. . . ظلم يُمْحَقُ بالقوّة الإلهية، وموازين تَرجعُ الى نصابها الصحيح لفترة. . ولكن تعود، مرة أخرى، للالتواء مع دورة جديدة من الظلم،

فإعادة لتصحيح الأوضاع بالقوّة السماويّة، وإرساء الحق، وتوطيد العدل، وهكذا. . .

وبالانتقال الى المفهوم التوراتي للقوة الروحيّة وآثارها، نجد، كما ذكرنا سابقاً، حصْرَ ذلك المفهوم في بوتقة معينة، والهدف، بالنتيجة، كما يبدو إسعاد بني إسرائيل بالذات في عالم خاصّ بهم، وإله لهم وحدهم، ألا وهو يهوه تكراراً. الإله يهوه زوّد موسى وهارون بقوى البحر، وقد أشار القرآن إلى شيء من القوى التي مدّهما الله بها ولكن بخلفيّة اعتقاديّة أخرى. فالقرآن الكريم يحرص دوماً على وضع حدٍّ فاصل بين الإله الواحد الأحد، الخالق للكون، وكلّ ما فيه، المُسيّر لشؤونه، المدبّر لأموره، وبين النبي الذي يصطفيه الخالق للرسالات السماوية وتبليغها. هذا، وتلك القوى التوراتيّة لموسى وهارون، ضعّفت لديهما القوّة المعنويّة التي أعطاها القرآن لهما للكفاح، كأنبياء بشر، ضد طغيان فرعون وجنده. فتصدِّيهما لفرعون وآله، غدا يسيراً، في وقت جاء تدخل يهوه، في بعض جوانبه لتشديد فؤاد فرعون؛ وذلك للإجابة عن إطلاق سراحه لبني إسرائيل من جهة، ثم إنجاز عملية إنزال الكوارث بفرعون وجنده، باستقلالية عن موسى وهارون تارة، أو من خلال تأييدهما بالآيات طوراً آخر. هذا، والمتأمّل في كلّ ذلك، يفهم أنّ القوّة الروحيّة في القصّة التوراتيّة عن موسى وهارون، تعني تزويد موسى وهارون بقوى خارقة، تتعدّى المعجزتين اللّتين أيّد الله موسى بهما، كما جاء في القصّة القرآنيّة. ولكن، في الوقت نفسه، فالجبريّة التوراتيّة المتمثّلة في تشديد قلب فرعون للحيلولة دون إطلاق بني إسرائيل، هي في جوهوها مظهر من مظاهر تزويد فرعون بالقوة من الإله يهوه، وذلك للمضي من موقف مُتشدّد تجاه بني إسرائيل، إلى موقف أكثر تشدّداً. فيُطلِق يهوه كوارث أكبر عليه وعلى جنده، فيدرك عندها قوة الإله يهوه. وذلك بمُجمله يعني وجود نوع من عدم الاتّساق الفكريّ بالقصّة التوراتيّة، على أنّ عدم الاتّساق ذاك دلالة على وجود تحريفات عقائدية. فهذا الطاغية فرعون يقوى بفعل الإله يهوه، فيتشدّد، ويحول دون خروج بني إسرائيل مع موسى وهارون من مصر. ولكن في الوقت نفسه، يَضعُف مع تكرار الكوارث، فيعرف قوة الإله يهوه.

وعند تلك النقطة يجب أن نذكر أنّ المعجزة في المفهوم القرآني هي الوسيلة

للتصديق بالنبوة، وبالتالي بالرسالات السماوية التي تدعو الى التوحيد. وفي هذا الإطار آمن السحرة بربّ موسى وهارون، وخضعوا خضوعاً تامّاً له تعالى. وفي الوقت ذاته، فإنّ إنزال الكوارث على طغاة، مثل فرعون وجُنده، لتهدف جوهرياً أيضاً إلى تثبيت للتوحيد. على أن تثبيت التوحيد هو الطريق لتعريف الإنسان بضعفه كبشر، وبالتالي افتقاره للإله الواحد الأحد، والتوجّه إليه لنزع الضرّ عنه في أوقات الكوارث والمحن. ولكن، ومع ذلك، فمن منطلق وجود الإنسان في عالم يكتنفه الخير والشرّ معاً، فالإنسان الخيِّر هو الذي يعرف حدوده وإمكاناته كبشر. فيتّجه دوماً لله الواحد الأحد، لاستمداد العون منه تعالى والهداية، لأداء مهمّاته في الحياة كما ينبغي. أمّا الإنسان المستكبر، المتوجِّه نحو الشرِّ، فقد لا يُدرِك ضعفه، حتى وإن رأى المعجزات والكوارث؛ فيتمسّك بأهداف وَهْم القوّة المادّيّة التي قد يراها منفذاً لتحقيق أهدافه من خلال البطش، واستخدام تلك القوّة كتمويه لخداع الآخرين، والتظاهر بقدرة، لا وجود لها أبداً في داخله بالحقيقة، كما قلنا سابقاً. فالبطش ضعف كمبدأ عام، وكذلك الطغيان. وفي القصّة القرآنية، يُعَدّان تمويها وخداعاً صادرين عن فرعون وآله لجهلهم، فقد كُشِف أمر ضعفهم وعجزهم، مرّةً بالطلب إلى موسى الدّعاء الى ربّه بنزع الضرّ عنهم، وهم يكتمون الشرّ والخديعة، ومرة عند إغراقهم حين أعلن فرعون عن استسلامه، والموت يحيط به من كل جانب، في وقت رفضَ الإله الواحد الأحد طلبه، وأتمَّ اغراقه، وجعله عبرة للعالمين. ذلك المشهد بحدّ ذاته يبرز نتائج التخلّي عن السعي للتسلّح بالقوة الروحية المعنويّة الضرورية للنصر، بعون السماء. وبمقارنة فرعون مع السَّحرة في القصة القرآنية، نجد أنّه فيما وقف موسى وأخوه كرمز للنصر المنبعث من قوة الإيمان، والتعقل، والحكمة، فقد وقف فرعون وآله، كرمز للهزيمة المنبعثة من فقدان الإيمان والحكمة بموجب سعيهم. والنقطة الهامّة هنا، هي أن هزيمة فرعون بدت كرمز لضعفه كإنسان بسبب اختياره طريق الشرّ. ومن هنا، فلا حاجة لتشديد قلبه، طالما أنّه بجبروته المادّيّ، وضعفه الداخليّ أنكر المعجزات جهلاً أو تمويهاً. ففرعون وإن خاف من المعجزتين، إلاّ أنّ شرّه زيَّن له إمكانية التغلّب على موسى، والتنكّر لربّ العالمين، وهو معتزّ باستكباره بالقوّة المادّيّة، ولذا كان من الطبيعي بجهله وغطرسته أن لا يُخرج فرعون بني إسرائيل من مصر حتى، ولو لانَ في

موقف ما، لسبب تمويهي. وبذلك الإطار، يبرز «الاتّساق» التامُ في القرآن بصدد موضوع تشدّده في إخراج بني إسرائيل من مصر. وبذلك الاتّساق الكامل تظهر الفوارق بين الموقفين القرآني والتوراتيّ حول هذه المسألة، بل ويبرز سبب التحريف التوراتيّ في هذا الصدد. غير أنه بالتكامل في المعاني القرآنية، يظهر بوضوح أن جانب الجبر أكبر بكثير في القرآن الكريم منه في التوراة. بَيْدَ أن قوة الدروس والعبر في القرآن الكريم بصدد قصة موسى وفرعون، تنعكس على موضوع «التاريخ» كعلم. فالقرآن يُظهر التاريخ كعلم يُفاد بعبره في كل المشاكل النابعة من الطّغيان في حياة الأمم المنكوبة. فتتمهّد السُبُل لمستقبل أفضل في ظلّ فهم صحيح للمسيرة التاريخيّة. ومن هنا، فكما أفادت القصة القرآنية ذلك الأمر في الماضي، فهي تفيده في الحاضر والمستقبل، مبرزة التاريخ كوحدة في كل أزمنته. فالمستقبل شيء غير منفصل أبداً عن الحاضر، والحاضر شيء متصل تماماً بالماضي، وعِبَرُ الماضي مهمّة جداً في إصلاح الحاضر، وحسن الاستعداد للمستقبل. وذلك كلّه يؤكد الأثر العظيم الذي تخلّفه القصّة القرآنيّة عن موسى وفرعون في حياة البشرية جمعاء، وفي علومها.

بَيْدَ أننا لو انتقلنا للقصة التوراتيّة عن موسى وفرعون، وموضوع التاريخ كعلم، لوجدنا أنها اجمالاً، تحصر المفهوم التاريخي ببني إسرائيل، وآلامهم، وتكفّلُ الإله يهوه بهم، لأنهم شعبه المفضّل. ومن هنا، فالعبرة محصورة فيهم. وتكمن في إثارة الاشفاق غير المحدود نحوهم هم بالذات تحت أيّ ظرف. وبذلك الإطار، ضَعُفَ أثر العبرة في القصّة، إذا ما نظرنا إلى التاريخ بأحواله وفي سير الأقوام جميعاً، على مرِّ عصوره. وبات التّاريخ بالقصّة تلك، حتى وإن برز كوحدة، يسير لصالح بني إسرائيل بالذات؛ وبناء على ذلك الانحصار التاريخيّ في القصّة التوراتيّة عن موسى وفرعون، فما تقدّمه تلك القصّة لعالم المعرفة الإنسانية قليل جداً، إذا ما قورن ذلك بالعطاء القرآني لعالم المعرفة ذاك. هذا مع العلم، أن العطاء القرآني الواسع، يهدف لإسعاد البشرية جمعاء، وعلى مرّ العصور، في حين أن العطاء التوراتيّ المحصور، يهدف لإسعاد بني إسرائيل بالذات، كشعب للإله يهوه، إله إبراهيم وإسحق ويعقوب.

ولكن بكلمة إضافية عن العطاء القرآني الواسع، لعالم المعرفة الإنسانية في حقل التاريخ كله، ولصالح كلّ الأقوام على مرّ عصوره، فيجب أن نذكر أنه، بما أن القصة القرآنيّة تزوّد القارئ بمعلومات ضمنية عن جوانب هامة متعلّقة بعوامل جوهرية عن ازدهار الأمم وانحدارها، كما أشرنا سابقاً، فمعنى ذلك أنّها تربط علم التاريخ بعلم الاجتماع. وفي الوقت ذاته، نجد أن تلك القصة (أي القرآنية) قد زوّدت القارىء بصور حيَّة، نابضة بالحركة عن كل شخصياتها، بكل تحركاتهم وتوجهاتهم، مع إبرازٍ لآثار ذلك في الجوانب الروحية، والأخلاقية، والسياسية والاجتماعية، فمعنى ذلك أنها خصّصت اهتماماً لعلم النفس، مع ربطه بعلم الاجتماع الذي وصلته بالتاريخ. وبذلك الإطار وضعت القصّة التاريخ في مكانة مميّزة للغاية، كالجامع للعلوم الهامّة في المسيرة الدنيويّة، التي تمضي بالعلم الإلهيّ، الذي لا يحدّه شيء.

وطبعاً، فذلك أمر هام جداً، ينعكس بدوره على مفهوم الحضارة في القرآن الكريم. إن الحضارة الصحيحة هي الحضارة التي توازن بين الروح والعقل والوجدان. فإن حدث خللٌ في ذلك التوازن، طغت المادّية على الروحانيّة، فهبطت، من جرّاء ذلك، القيم المرتبطة بالإيمان، والاستنارة الفكرية القائمة على هذا الإيمان. وكما يحدث ذلك، فبدلاً من الارتقاء والتطور نحو الأسمى في المجتمعات المَغْنِيَّةِ بالأمر، ينشأ التصدّع فيها، فالانحدار، فالعقاب السماويّ، كما حصل لدولة فرعون. ومن هنا، تدحَضُ القصة القرآنية عن موسى وفرعون، مسألة ربط تطوّر المجتمع بالمادية، وتدعو، إلى السمّو بالحياة الروحية. وتلك نظرية هامّة في الإسلام. وفي هذا الصدد جاء ما يلي في فصل بعنوان «الإسلام والحضارة الجديدة: القوة الروحيّة في الإسلام» من كتاب «الشرق الجديد» لمحمد حسنين هيكل:

«يُخطئ الذين يظنون أنّ مصير الانسانية رهنٌ برخائها المادّيّ. وأنّ تطورها إلى ناحية الكمال يتأثّر بهذا الرّخاء. إنّما يرتبط مصير الانسانيّة بحياتها الرّوحيّة وبالايمان الحقّ بهذه الحياة، والتاريخ شهيد بذلك. فحيثما هبطت الحياة الروحيّة إلى أوضاع مادية نشأت الأزمات الانسانية الخطيرة. وآذن التاريخ أن يتّجه وجهة

جديدة وإن بلغ الرخاء أعظم مبلغ، وحيثما سمتِ الحياة الروحية إلى المعاني العليا نشطت الانسانية في اتجاهها نحو الكمال. وازدادت حرصاً على بلوغ الغاية في معرفة الحقّ والخير والجمال... هذه حقيقة يشهد بها التاريخ الحديث. ولئن كانت القوة الماديّة تستطيع مقاومة القوة الماديّة، فهي عاجزة كل العجز عن مقاومة القوّة الروحيّة...»[١].

بإبقاء ما ورد في تلك الفقرة من معلومات هامّة في أذهاننا، وبالعودة مرة أخرى إلى قصة موسى وفرعون القرآنية، نجد، تكراراً أن النصر لبني اسرائيل، لم يحصل من طريق مجابهة آليّة لفرعون، من خلال مقابلة قوّة مادية بأخرى، بل كما ذكرنا سابقاً، فإن تحقيق النصر ذاك، جاء في خضمّ مواجهة قوّة الروح والمعنى، لقوّة المادة. وذلك كلّه يشير، مرّة أخرى، إلى الأهمّيّة التي يُخصّصُها القرآن الكريم للقوّة الروحيّة المعنويّة، ودورها في التحوّلات التاريخية المصيرية. ففي فصل «الاسلام والحضارة الجديدة: القوة الروحية في الإسلام» من كتاب «الشرق الجديد»، لهيكل، توجد أمثلة على فعاليّة القوة الروحية، استناداً إلى التاريخ في الفقرة التالية:

«وفي التاريخ أكثر من شاهد على قوّة الحيويّة الروحيّة، قوّة لا يمكن لقوى المادة وإن اجتمعت أن تتغلّب عليها. وانتشار المسيحيّة في روما أوّل أمرها وما احتمل المسيحيون من اضطهاد وتعذيب وقتل شاهد على ما أقول. وما حدث في مصر كذلك من تعذيب المسيحيّين ومن تغلّب المسيحيّة، على رغم هذا التعذيب، شاهد آخر، على أنّ أقوى شاهد في تاريخ الانسانية على اقتدار القوّة الروحيّة على الانتصار والظفر بقوى الحياة الماديّة كلّها، إنّما هو ما حدث حين قام النبيّ العربيّ في شبه جزيرة العرب يدعو إلى عبادة الله، وإلى تحطيم الأصنام، ويُجادل اليهود ويجادل النّصارى، ويصل بقوّته الرّوحيّة التي سمت إلى الذروة من قوى الروح، إلى إقرار التّوحيد في شبه الجزيرة، وإلى التّمهيد لانتشاره بسرعة لم تعرف الأديان الأخرى نظيرها في أنحاء العالم كلّه. لقد كانت الوثنيّة هي الدِّين الغالب في بلاد

---

(١) هيكل، **الشرق الجديد** (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، لا.ت.)، ص ٢٤٦.

العرب حين بدأ محمد (ﷺ) يدعو إلى الإيمان بالله وحده، والعبودية له وحده. . . ولكن الأديان المعروفة يومئذٍ وأقواها اليهودية والنصرانية، كانت معروفة في بلاد العرب، وكان لها دعاة وأتباع. وكانت المجوسية الفارسية معروفة. فلما بدأ النبي دعوته كان أول ما اتجه بها إلى عشيرته الأقربين من عُبّاد الأصنام. ومع أنهم كانوا أصحاب سلطة ومجد، ومع أنّهم كانوا القائمين بتجارة بلاد العرب فيما بين قبائلها المختلفة، والقائمين بها بين هذه القبائل والبلاد المجاورة لبلاد العرب كالحيرة والشام، ومع أنهم كانوا أولي بأسٍ ماديّ شديد، فإنّ القوّة الرّوحيّة التي دعا بها محمّد (ﷺ) إلى التوحيد، قد تغلّبتْ على أحوالهم وعلى بطشهم وبأسهم. وسرعان ما كسبت لذلك انصاراً جعلوا يزدادون عدداً بتوالي السنين، وجعل عددهم يزداد سراعاً كلما تبيّن الناس هذه القوّة الروحية وسموا بها فوق الاعتبارات التي يجري الناس وراءها. فلما آن لمحمّد (ﷺ) أن يهاجر إلى يثرب، ووجد اليهود من أهل الكتاب بين أهلها يؤمنون بالله وادَعهم وعاهَدهم. لكنّهم ما لبثوا، حين رأوا قوّته الروحيّة أسمى من كل ما يعرفونه، أن حاولوا أن يرموا به وأرادوا إيقاع الفرقة بين صفوف أتباعه بالدسيسة وبالخداع وبالنفاق. والقوّة الروحية الصادقة لا تعرف هذه الوسائل التي يلتمس بها سواءُ الناس سلطانَ الجاه وسلطان المال، لذلك أسرعت الخصومة إلى القيام بينهم وبين المسلمين المعتزّين بقوّتهم الرّوحية. . . وخاصم اليهود محمّداً (ﷺ) ومن تبعه، فدارت عليهم الدائرة واضطّروا إلى الجلاء من شبه جزيرة العرب كلّها، مع أنهم كانوا أصحاب المال فيها. فأمّا النّصارى فلم يخاصموا محمداً (ﷺ) والمسلمين، مخاصمة اليهود إيّاهم. . . ومن ثم اتّبع كثيرون من النصارى محمداً (ﷺ) وبقي آخرون على نصرانيتهم لا يثيرون ما أثار اليهود من حرب وجدال انتهى بهم إلى الجلاء عن بلاد العرب»[٢].

في هذه الفقرة، يُشار باختصار إلى موضوع مخاصمة اليهود للنبي الأعظم محمد (ﷺ)، مع أنه نحا نحو موادعتهم في البداية، باعتبار أنهم من أهل الكتاب، ويشار فيها كذلك إلى وسائل اليهود في محاولاتهم لإثارة الفتنة في معسكر الرسول محمد (ﷺ)، بأمل النفاذ، والقضاء على الدعوة الإسلامية، وهي في عهودها

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٤٧ ـ ٢٤٩.

الأولى، والسبب في ذلك استبداديّ طبعاً، وهو شلّ إرادة المسلمين، وبالتالي، وضع العوائق أمام التحوّل التاريخيّ. وقد تكاتف اليهود، مع المشركين من أجل ذلك، بل وأثاروهم في جمع الجموع للقتال ضدّ الرّسول (ﷺ) في «غزوة الخندق» الواقعة في العام الهجريّ الخامس بل، ومُساندتهم بحصار المسلمين بالمدينة من خلفهم. وكان الإطباق على المسلمين شديداً من المشركين بالخارج، والمنافقين بينهم، واليهود من خلفهم. ولكنّ الله تعالى هيّأ كلّ أسباب النّصر للمسلمين، كما هيّأها لموسى وهارون لما طغى فرعون على بني اسرائيل. وذلك يُظهِر تكراراً، أن الله تعالى يساند دوماً المؤمنين الذين استُضعِفُوا، ولكنّهم قرروا الوقوف بثبات من أجل إعلاء كلمة الحق والعدل. فالله جلّ جلاله ساند بني إسرائيل لمّا وقفوا ضدّ فكرة تأليه فرعون لنفسه، وكانت تلك المساندة الرّبّانيّة بهدف تثبيت التوحيد، فأنقذهم الله تعالى من طغيان فرعون وجنده. ولكنّه، جلّ شأنه، عاضد النبي محمّداً (ﷺ)، وصحابته، وتابعيه، لمّا أراد اليهود القضاء على الوحي، أيّ القرآن الكريم، وعلى الرسول (ﷺ) وكلّ من حوله. ونصرهم على اليهود وأهل الشرك، وتوطّد الإسلام؛ وقام العرب والمسلمون بفتوحات باهرة. فأنشأوا حضارة عمادها القوة المعنويّة، التي نفتقِدُ إليها في عصرنا الحاضر، خصوصاً أنّ العالم العربي والإسلامي يعاني أزماتٍ، ومحناً، ومشاكل كثيرة. ولأهمية ذلك، فلا بأس من إنهاء دراستنا عن موسى وفرعون، التي ربطنا بعض أفكارها الأزليّة القرآنيّة بعصرنا هذا، بالفقرة التالية المستقاة من هيكل، من الكتاب والفصل إيّاهما المذكورين آنفاً:

«ولو أنّ هذه القوّة الرّوحية عادة تملأ نفوس المسلمين اليوم، كما كانت تملأُ نفوسهم في صدر الإسلام وفي عهوده الأولى، لما استطاعت قوّة مادّيّة أن تتغلّب عليها وإن آزرتها معجزات العلم بكلّ سلطانها. وليس هذا العَوْدُ بالأمر العسير إذا تضافرت جهود المسلمين الصادقين عليه. ولو تضافرت هذه الجهود لأسدى أصحابُها للانسانية يداً، ولأنقذوها من أزمة تعانيها. . .»[٣].

---

(٣) **المصدر السابق**، ص ٢٥١.

المصادر

(١) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام. **مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية**. بمباي: مطبعة ق، ١٩٥٤.

(٢) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد. **كتاب العقد الفريد**. القاهرة، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، ١٩٤٨.

(٣) أمين، أحمد. **ضحى الإسلام**، جزء ١ . بيروت: دار الكتاب العربي، لا.ت.

(٤) البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس. **كتاب مجموعة من التفاسير**. جزء ٣، بيروت: دار إحياء التّراث العربي، لا.ت.

(٥) توشار، جان. **تاريخ الفكر السياسي**. ت. علي مقلّد. بيروت: الدار العالمية للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ١٩٨٧.

(٦) حجازي، محمد محمود. **التّفسير الواضح**. جزء ٢، مصر، مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٩٦٨.

(٧) حسين، طه. إسلاميات: **مرآة الإسلام**. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤.

(٨) الخطيب، عبد الكريم. **التفسير القرآني للقرآن**. جزء ١٦. بيروت: دار الفكر العربي، لا.ت.

(٩) الدجاني، زاهية راغب. **أحسن القصص**. بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٩٩٥.

(١٠) Dajani, Zahia Ragheb. **Egypt and the Crisis of Islam.** New York: Peter Lang, 1990.

(١١) الرازي، الفخر. **التفسير الكبير**. جزء ٣٣. بيروت: دار احياء التراث العربي، لا.ت.

(١٢) الرافعي، مصطفى صادق. **من وحي القلم**. جزء ٣. بيروت، دار الكتاب العربي، لا.ت.

(١٣) الرجال، راشد عبد المنعم. **تفسير القرآن الكريم**. بيروت، دار الجيل، ١٩٩٤.

(١٤) الرضي، الشريف. **نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبده**. جزء ١. بيروت، المكتبة الأهلية، لا.ت.

(١٥) الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان. **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير**. جزء ١. مؤسسة الرسالة، لا.ت.

(١٦) الزحيلي، وهبة. **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**. جزء ٢٠. بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٩٩١.

(١٧) زريق، قسطنطين. **الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق، معنى النكبة مجدداً**. جزء ٢. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربي، ١٩٩٤.

(١٨) السلمي، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. **تفسير القرآن**، جزء ٢. الرياض، دار ابن حزم، ١٩٩٦.

(١٩) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. **أضواء البيان في إيضاح القرآن الكريم**. جزء ٥. بيروت، عالم الكتب، لا.ت.

(٢٠) الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم ابن أبي بكر أحمد، **الملل والنحل**. جزء ١. القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٩٦٨.

(٢١) الصابوني، محمد علي. **صفوة التفاسير**. مجلد ١، ٢. بيروت، دار القرآن الكريم، ١٩٨١.

(٢٢) الطباطبائي، محمد حسين. **الميزان في تفسير القرآن**. جزء ١٤. بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لا.ت.

(٢٣) الطبري، أبو جعفر بن جرير. **تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك**. جزء ١. القاهرة، دار المعارف، لا.ت.

(٢٤) الغزالي، أبو حامد بن محمد. **إحياء علوم الدين**. جزء ١. القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، لا.ت.

(٢٥) ـــــ، ـــــ، **ميزات العمل**. القاهرة: دار المعارف، لا.ت.

(٢٦) فكري، علي. **أحسن القصص**. القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٤٩.

(٢٧) القاسمي، محمد جمال الدين. **مجالس التأويل**. جزء ٨. بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨.

(٢٨) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**. جزء ١١. بيروت، مؤسسة مناهل العرفان، لا.ت.

(٢٩) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. **النكت والعيون: تفسير الماوردي**. جزء ٤. بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.

(٣٠) المراغي، أحمد مصطفى. **تفسير المراغي**. جزء ١٦. بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا.ت.

(٣١) مهران، محمد بيومي. **دراسات تاريخية من القرآن الكريم**. بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٨.

(٣٢) هيكل، محمد حسنين. **حياة محمد**. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨.

(٣٣) ـــــ، ـــــ، **الشرق الجديد**. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، لا.ت.



المفهوم القرآني والتوراتي عن موسى (ع) وفرعون

هذا الكتاب

دراسة بالغة الإفادة، لأنها، تضيف الكثير ممّا ينبغي إضافته إلى المكتبة الاسلامية. يعرض الكتاب تاريخ الظلم الذي تعرض له أنبياء الله جميعاً، ثم يشرح القصة القرآنية عن موسى(ع) وفرعون ويقارنها بالقصة التوراتية، موضحاً نقاط التشابه والاختلاف بين القصتين.

كما يعرض الكتاب نقاط التشابه بين الأحداث المتعلقة بحياة موسى(ع)، ونشأته، ووقوفه في وجه فرعون، بالأمر الإلهي، لإخراج بني اسرائيل من مصر، حتى نقطة خروجه بهم، وغرقه مع جنده. و تبدأ نقاط الاختلاف بين القصتين: القرآنية والتوراتية من المفهوم الإلهي، فمفهوم النبوة، والانسان، ومسؤولياته في الأرض.

ومن هذه الزاوية فالاختلافات جوهرية بين القصتين القرآنية والتوراتية. وربما نبعت تلك الاختلافات من بعض التحريفات المدخلة على التوراة. ويؤكد القرآن الكريم بدوره، دخول تحريفات على التوراة في أكثر من موطن.

هذا الكتاب دعوة إلى الإيمان الصادق، بأن النصر للحقّ، وأن الباطلَ زاهقٌ لا محالة.